الموقف الأدبي



249



مجلة شهرية يصدرها الحزب الشيوعي العراقي

249

العدد 11 السنة 39 أيلول 1992

فهرست

■ مقتطفات ومعالجات

الغلاف الاول: انبثاق
الغلاف الاخير: انفجار
للفنان فوزي الدليمي

تصـريـح

حول المنطقة الآمنة في جنوب العراق

تدور المـداولات واللقـاءات بين بريطانيا وفـرنسا والولايات المتحدة، وفي اروقة مجلس الامن الدولي، حول إقامة منطقة آمنة في العراق، جنوب خط العرض (٣٢) لتشمل عدداً من المحـافظات الجنوبية، الهدف منها، كما تؤكد الدول المذكورة وممثلو الامم المتحـدة العاملون في العراق، هو حماية مواطني تلك المنطقة وبخاصة سكان مناطق الاهوار. وذلك بحظر تحليق طائرات النظام فوقها، وتحريم قصفها بالمدفعية.

لقـد طرحت قوى من المعارضة العراقية على المجتمع الدولي هذه المبادرة منذ بضعـة اسابيع بعد ان تعرض المواطنون والعسكريون المعارضون، اللاجئون إلى تلك المنـاطق، الى هجـوم عسكـري برمـائي، وغـارات جوية وقصف مدفعي، بالقنـابـل الفسفـورية والنابالم يشرف عليه منذ مدة علي حسن المجيد وزير الدفاع. وتم فرض حصـار اقتصـادي يمنـع وصـول الغـذاء والدواء الى عشرات الالوف من سكان الاهوار والـلاجئين اليها. واعدّت السلطات خطة لابادتهم، افتضح امرها حين اوشك انجاز ما يسمى بالنهر الثالث على نهايته، الامر الذي سيؤدي الى سحب مياه الاهوار وتجفيفها، واقتران ذلك باقدام النظام على حرق حقول القصب لاكثر من مرة خلال الاشهر الماضية، بادارة عزت ابراهيم الدوري، نائب رئيس «مجلس قيادة الثورة».

وجرى، خلال الفترة القريبة الماضية، وضع كل هذه المعطيات الموثقة خطياً أمام مجلس الامن، وكذلك الاعتقالات والاعدامات الجماعية الميدانية لالوف المواطنين، باعتبارها انتهاكاً فظاً للقرار رقم ٦٨٨ القاضي بالزام السلطات العراقية باحترام حقوق الانسان، والامتناع عن الحاق الاذى بالانسان. وبسبب من ذلك كله واصرار الدكتاتور على التشبث بالسلطة ومواصلة بطشه الهمجي وبسبب تبعات هزيمته العسكرية، فان الحزب الشيوعي العراقي يتفهم اقامة مثل هذه المنطقة في جنوب وطننا، مستفيداً من تجربة المنطقة الآمنة في كردستان العراق، حيث توقفت ابادة الشعب الكردستاني، وداعياً الى تجنب المظاهر السلبية التي رافقتها. وهو يدرك جيداً ما تعنيه من مخاطر جسيمة تمس سيادة العراق، وتهديد لوحدة ترابه الوطني وتمزيق كيانه السياسي الموحد، وخطر على ثرواته البترولية الغزيرة في هذا الجزء من بلادنا. وبالاضافة الى ذلك فانها تفسح المجال للتدخل الخارجي. ولكنه يرفض رفضاً قاطعاً الفهم المبتذل لمساواة الوطنية بقبول الابادة البشرية لعشرات بل مئات الالوف من الجماهير الفقيرة المحرومة، والالوف من ابناء القوات المسلحة، الرافضين لنهج الدكتاتورية وحروبها، والذين تصدوا لها في انتفاضة آذار المجيدة عام ١٩٩١، ولجأوا الى الاهوار بعد انتكاستها، ومايزالون يقاومون ببطولة.

ويحمل الحزب الشيوعي العراقي صدام حسين ونظامه وزمرته المسؤولية التاريخية الكاملة عما الحقه بوطننا وشعبنا من كوارث، وهدده باخطار انفجار النزاعات الطائفية، والتجزئة والتقسيم.

ويدين بشدة ادعاءات النظام ومزاعمه الكاذبة والتضليلية بالدفاع عن سيادة واستقلال العراق، ويؤكد للرأي العام في كل مكان ان ما يريده صدام حسين هو ان يبقى حاكماً فرداً متسلطاً حتى وان اقتصر ذلك على القصر الجمهوري.

ان الحزب الشيوعي العراقي يناشد كل الاصدقاء والاشقاء وكل الحريصين على الحفاظ على كيان العراق السياسي المستقل وعلى استعادة مكانته ودوره في المنطقة، وفي المجتمع الدولي، يناشدهم ان يساندوا قوى المعارضة العراقية، ويقفوا الى جانب شعبنا ويتضامنوا مع نضاله الشاق ويمدوه بكل عون مادي ومعنوي للظفر بالخلاص من الدكتاتورية وبالحرية وباقامة النظام الديمقراطي التعددي في العراق المستقل الموحد

المكتب السياسي للجنة المركزية
للحزب الشيوعي العراقي
٢٢/آب/١٩٩٢

لابد من الاهتمام بالمدخل التعاوني

د. نبيه سليم

يؤكد الجانب الاقتصادي لمشروع الوثيقة البرنامجية للحزب[1] من حيث الجوهر. على تطوير القوى المنتجة وزيادة الإنتاجية وتخفيف قيود التبعية وحماية الشغيلة عموماً خلال هذه المرحلة من تطور البلاد، في إطار تعدد الأنماط الإنتاجية التي سيكون النمط الغالب فيها هو نمط الإنتاج الرأسمالي. . ونتفق مع التشخيص الذي يرى « القبول بنمط الإنتاج الرأسمالي كضرورة موضوعية، ولكن ذلك لايعني القبول أو السكوت على تناقضاته ونتائجه المدمرة للمنتجين (للعمال وصغار المنتجين) وللبيئة، بل نحن نمثل، داخل هذا النمط، القطب المضاد للرأسمال، القطب الذي ينبغي له أن يلجم، بحدود الممكن (حدود القوى الفعلية) ميول الرأسمال في مجال الاستثمار، الأجور، وجهة التطور، حدود السلطة. . إلخ إلخ »[2].

ومن هنا يبرز التساؤل: كيف يتحقق ذلك، سواء عندما يكون الحزب في المعارضة، أو مشاركاً في السلطة؟

ونرى من المسائل التي ينبغي أن يناقشها مؤتمر الحزب الخامس، هي المداخل الممكنة لتحقيق محتوى برنامجه كحزب للشغيلة. ومن هذه المداخل المقبولة هو المدخل التعاوني الذي نركز له هذه المقالة. كما سنتناول في مقالة قادمة مدخل التخطيط الملائم للتنمية، وهناك مداخل أخرى نطمح أن تكون موضوع المناقشات الجارية خلال التحضير للمؤتمر الخامس للحزب وعند انعقاده وفي الفترة اللاحقة، لتوضيح سبل الوصول للأهداف التي يسعى الحزب لتحقيقها في الواقع.

الحاجة للمدخل التعاوني

إن تطوير القـوى المنتجة وزيادة الإنتاجية يمكن الوصول إليهما بالصناعة الكبيرة والمزارع الكبيرة وما يرتبط بهما من مواصلات واتصالات حديثة، ومؤسسات تجارية منظمة، وقـاعـدة معلومات في ظروف بلادنا.وخلال هذه المرحلة من تطورها يوجد الملايين من الشغيلة الذين يمـارسـون عملهم الإنتاجي في زراعة مجزأة وحرف مبعثرة ومازال وسيظل لهم دور في تحقيق التنمية الشاملة.

ومن هنـا تظهر الحاجة الملحة إلى شكل ملائم لتنظيم عملهم، تنظيماً اقتصادياً واجتماعياً. والمدخل التعاوني هو أحد الأطر المفضلة لذلك، إذا اقترن بمبادرة الشغيلة المعنيين به، وبدعم وتوجيه حزب الشغيلة وكل قوى التقدم والسلطة الممثلة لمصالحهم.

وهذا المدخل التعاوني للأغراض المتعددة يمكن أن يساعد في لملمة المنتجين الصغار والاستفادة من تقدم العلم والتقنية والإدارة الرشيدة، وأن يساهم في تطوير القوى الإنتـاجية بجـانبيها المادي والبشري، وزيادة إنتاجية العمل الاجتماعي، وعدالة توزيع أعبائه وثماره فيما بين أعضائه في إطار المصلحة العامة للمجتمع.

لقـد ظهـرت الحـركة التعاونية في بلادنا خلال الأربعينات من هذا القرن، وكان للحزب دور واضح في تدعيمها ولاسيما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، حيث كان المبادر في تنظيم الفلاحين في جمعياتهم ذات التوجه التعاوني. كما شجع الحرفيين لتكوين تنظيمهم المهني ذي التوجه التعاوني. ولكن حدة الصراع والظروف القاسية التي كان الحزب من ضحاياها الدائمين قد أضعفت مساهمته في هذا المجال. كما ينبغي الاعتراف بأن عدداً من أعضاء الحزب وكوادره لم يستوعبوا أهمية العمل التعاوني ولم يبذلوا الجهد المطلوب في تنميته.

ولهذا فقد انحسر الطابع الشعبي الذي ميز الحركة التعاونية في بداياتها، وصارت تعمـل تحت مظلة الحكـومـة وإشـرافهـا، التي قلصت نشاطها وركزتها في الغالب في المجالات الخدمية. والقليل منها مارس العمل الإنتاجي ولم يجد الدعم المطلوب لتوفير مستلزمات نجاحها وبشكل خاص في الزراعة، حيث تسرب إليها عدد من الملاكين الذين لاتتوافق مصالحهم مع مصالح الفلاحين. فاستأثرت هذه الأقلية بثمار الدعم التعاوني ضد غالبية الفلاحين الذين يُفترض أن تحمي التعاونية حقوقهم.. وصارت هذه التعاونيات أداة بيد الملاكين لتفريغ الإصلاح الزراعي من محتواه المعبر عن مصالح الفلاحين، لصالح الملاكين.. ويمكن أن نتوقع أثر هذا وغيره من التصرفات البيروقراطية المعادية للفلاحين على الأعضاء المنتجين ومدى الحدّ من اندفاعهم وإيمانهم بهذا الدور الهام المنتظر من

التعاونيات، وما يتطلبه من إعادة الاعتبار للتنظيم التعاوني في المستقبل، وتوضيح الأدوار في وحدات البنيان التعاوني ذاته فيما بين التنظيمات القاعدية والتنظيمات الوسطى والقيادية التعاونية وسبل ارتباطها بالدولة.

الأغراض المتعددة للنشاط التعاوني

منذ انبثاق الحركة التعاونية المنظمة الذي ارتبط باسم الرواد الأوائل من عمال النسيج في انجلترا في منتصف القرن الماضي، كانت تتطلع إلى تحقيق تنمية متكاملة لمستوى معيشة الشغيلة المنتمين إليها. إن المبادىء العامة التي صاغها هؤلاء النساجون الأحرار ومس كان يدعمهم فكرياً، هي:

* الباب المفتوح للعضوية.
* ديمقراطية التسيير للتعاونية.
* التعامل نقداً وتوزيع العائد الصافي على المعاملات (بالنسبة للتعاونيات الاستهلاكية).
* الفائدة المحدودة على الرأسمال (بالنسبة للتعاونيات التسليفية).
* التسامح السياسي والديني.
* نشر الوعي والثقافة التعاونية.

وكان لهم أيضاً موقف هام جداً عندما أقروا: «يجب أن نرتقي من شراء احتياجات الأعضاء إلى صناعتها وزراعتها، فنوفر بذلك لأنفسنا أرباح فريق ليس منا، ونُوجد فوق هذا لأنفسنا وسائل العمل الشريف»[٣]. وهذا يعني بأنهم قد تسلموا المحتوى الإنمائي المتمثل بالعمل الإنتاجي التعاوني، وتكامل الإنتاج مع المستهلكين بدون وسطاء فريق ليس منهم كمنتجين حقيقيين أو كمستهلكين. كما أنهم وجدوا بالاعتماد على الذات الجماعية باستطاعتهم أن يحققوا لأنفسهم وسائل العمل الشريف تعاونياً. وهذه البذرة كما نرى كانت تحمل توجهاً واعياً للإنتاج الموجه للوفاء باحتياجاتهم.. وفي ذات الوقت تطوير الإنتاجية المجتمعية وتنمية القيم الاجتماعية التكافلية التي تحترم العمل المنتج وترفع من شأنه وتجزيه بما يستحقه من مردود.

وعند مراجعة التجارب المستمدة من نشاط التعاونيات بمختلف أنواعها والأغراض المتعددة لنشاطها فيما إذا كان خدمياً أو إنتاجياً: تعاونيات استهلاكية، تعاونيات تسليفية، تعاونيات حرفية، تعاونيات زراعية بمختلف أشكالها، تعاونيات سكنية.. إلخ، وفي العديد من البلدان ذات الأنظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة، نراها تؤكد على أن التعاونيات يمكن أن تُسهم بدور هام في تحقيق التغير الاجتماعي والاقتصادي نحو الأفضل

وعدالة توزيع ثماره. وقد حصل هذا بشكل خاص عندما جرى تشخيص طبيعة التعاونيات وتوضيح مهامها وتحديد موقعها الإيجابي في تقسيم العمل الاجتماعي. وعندما تلقت الدعم والمساندة المطلوبة من القوى التقدمية المنظمة ومن الدولة كعامل مساعد في بداية نشوئها بشكل خاص، لأن الأساس في التعاونيات هو أنها تقوم على قاعدة العون المتبادل للأعضاء والخدمة الذاتية فيما بينهم.

والتعاوينات في ظل سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي. يمكن اعتبارها في الغالب بمثابة أداة دفاعية لأصحاب الملكية الصغيرة الخاصة لوسائل الإنتاج، ومنها الحرفية، لتقف أمام هجمات المؤسسات الكبيرة الرأسمالية ذات إنتاجية العمل الأكبر في سوق مفتوحة. وبعض هذه التعاونيات أداة دفاعية عن المستهلكين ضد استغلال التجار والوسطاء، أو أداة دفاعية للمحتاجين للمال ضد جشع المرابين.

ونظراً لاختلاف التركيب الداخلي الاجتماعي لأعضاء التعاونيات وقياداتها، تتباين مواقفها. مما ينعكس على الوظائف الواقعية التي تمارسها التعاونيات ولمصلحة من تنشط. وهنا مجال الحزب للعمل على دفع النشاط التعاوني نحو مصلحة الشغيلة.

ويجب تشخيص الإمكانيات الفعلية للتعاونيات في إطار سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي في المجتمع. فإن تطور التعاون في العمل يمثل من حيث الجوهر نفياً للطابع الرأسمالي للإنتاج، وفي ذلك يكمن المغزى الاجتماعي للتعاون في العمل. ومنه الشكل الذي تؤطره التعاونيات في المجتمع الرأسمالي، وإن كان ليس بوسعها أن تغير من طبيعة هذا النظام الاجتماعي، كما دلت مسيرة مايقرب من قرن ونصف للحركة التعاونية في المجتمع الرأسمالي. إلا أنها خففت من ضغوط المؤسسات الرأسمالية الكبيرة وحمت نسبياً الشغيلة المنتمين إليها. إلا أنها ليست بالحماية الكبيرة إلى حد يجعلها حقلاً منعزلاً عن محيطه، أو نظاماً اجتماعياً تعاونياً مستقلاً بذاته، فهذا غير ممكن كما يثبت الواقع.

ومن مهام الحزب العمل مع القوى التقدمية الأخرى في بلادنا على توفير الشروط الموضوعية والذاتية المساعدة على تطور المدخل التعاوني كنمط ضمن تعددية الأنماط الإنتاجية لهذه المرحلة وآفاقها المستقبلية المنظورة، بحيث يجعل منه قوة اقتصادية اجتماعية تقدمية للمساهمة في تحقيق تطور قوى الإنتاج بجانبيها المادي والبشري، وزيادة الإنتاجية المجتمعية الحقيقية بالنسبة للفرد الواحد من المشتغلين وللمجموع، مُجسدة في الزيادة الحقيقية للمنتجات وتنويع تشكيلتها وتحسين جودتها مع تخفيض كلفتها، وكذلك بتوسيع السوق الداخلية وتوحيدها وزيادة قدرتها التصريفية للسلع والخدمات. والمدخل التعاوني يمكن أن يشارك بفعالية في ترسيخ القواعد الديمقراطية في التسيير الذاتي للمؤسسات ويعلمهم مناقشة أمورهم وانتخاب ممثليهم في إدارة شؤونهم وعلنية البيانات

والمعلومات التي تمكنهم من تقييم الأداء ومكافأة المُجدين ومحاسبة المقصرين.

وبهذا يمكن للحزب والقوى التقدمية الأخرى عن طريق المدخل التعاوني أن يربطوا أعداداً متزايدة من السكان وبأوسع مقياس ممكن بالفعاليات الاقتصادية والاجتماعية القائمة على المساعدة الذاتية المحققة للديمقراطية للجهاز الإداري الداخلي، وتبسيط إجراءاته وتخليصه من كل مايُربك ويعرقل حركته في تسيير النشاط التعاوني، وبالتالي المساهمة في التطبيق الحقيقي للديمقراطية السياسية وتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي على الصعيد الوطني والصعيد القومي مع بقية الأقطار العربية، من خلال تأسيس جمعيات تعاونية عربية مشتركة ثُنائية أو متعددة الأطراف، وامتداد السوق المحلية إلى خارج الحدود القطرية، والحدّ من العلاقات غير المتكافئة مع الأسواق الخارجية الأجنبية والمساهمة في تخفيف قيود التبعية للخارج.

إن الحلف التعاوني الدولي قد أضاف في مؤتمره السادس والعشرين الذي عقده مُؤخراً في باريس، مبدأ جديداً على التعاونيات أن تأخذ به، وهو مبدأ التعاون بين التعاونيات على الصعيد المحلي والقومي والدولي..

ولا بد أن يكون الأقربون أولى بالتعاون..

---

(١) مشروع الوثيقة البرنامجية، الثقافة الجديدة، العدد ١٩٩١/٢٣٩ ص ٥-١٢.

(٢) فالح عبد الجبار: قضايا فكرية أولية للنقاش، الثقافة الجديدة، العدد ١٩٩١/٢٣٧ ص ٩.

(٣) إبراهيم رمزي: الجمهور في التعاون الزراعي، المطبعة السلفية بمصر عام ١٩٢٤، نقلاً عن: شمس الدين حفاجي، التعاون الاستهلاكي، مكتب الشباب بالمنيرة، ١٩٧٥ ص ٢٨.

مقترحات للنقاش

حيان ابو نادر

ارسل لكم بعض الافكار والمقترحات التي قد تمهد لفتح حوار ديمقراطي حول مشروع نظام داخلي جديد بصياغة مبسطة، وطرح مسودة برنامج عملي في خطوطه العامة، وتترك التفاصيل لتقدير المنظمات تبعاً لظروفها الخاصة، آملين ان تحوز على رضاكم والموافقة على نشرها على صفحات مجلتكم الغراء. مع الشكر.

وتجنباً لاحلال الرغبات محل الواقع الموضوعي، ومنعاً للمغالطات الفكرية، فانني اريد ان اؤكد في البداية على اهمية تدقيق المصطلحات العلمية، والابتعاد ما امكن عن العمومية في طرح الافكار والشعارات لكي يكون مدلولها واضحاً يسهل تطبيقه في الواقع الملموس.

ولا شك بان النظر الى الظواهر الاجتماعية نظرة موضوعية تكاملية يساعد على تسليط اضواء الديالكتيك العلمي على مختلف جوانبها المادية والروحية، ان هذه النظرة التكاملية تسهّل علينا تفسيرها وتقييمها بشكل موضوعي وطرح الشعارات الموضوعية التي يمكنها ان تساهم في تطوير القوى المنتجة كهدف اساسي لرفع سوية المجتمع وزيادة غناه مادياً وروحياً. وعليه انني اقترح :

١ ـ استبدال عبارة: «انه حزب الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين وبقية الجماهير»

لانها تحتوي على مغالطة فكرية، وصياغتها على الشكل التالي :

ان حزبنا الشيوعي الذي يستند الى فكر الطبقة العاملة والقائم على الغاء كل انواع الاستغلال والاضطهاد يجعل في مقدمة اهدافه النضالية: الدفاع عن حقوق جميع المستغَلين والمضطهَدين من العمال والفلاحين والاقليات القومية ودعم المثقفين بمختلف فئاتهم وشرائحهم الاجتماعية، والوقوف الى جانب حقوق المرأة ومساواتها بالرجل.

٢ ـ كما يجب الربط الدقيق بين عملية التقدم الاجتماعي كمفهوم نظري وبين الاشتراكية كعملية ديالكتيكية ونضالية معقدة، تهدف الى اقامة التوازن المادي والروحي للفرد والمجتمع بكل جوانبه الفكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

ان الوصول الى الاشتراكية، كهدف نهائي تتطلع اليه الشعوب لاقامة مجتمع العدالة والحرية والمساواة، يمر عبر نضال طويل وصراع مرير: (وحدة وصراع الاضداد) تكون محصلته الانتقال بالمجتمع من مرحلة ادنى الى مرحلة اعلى.

ان هذه العملية النضالية الطويلة تستوجب العمل على تعبئة القوى عبر شعارات محددة واقامة التحالفات في كل مرحلة من مراحل التطور، على اساس برنامج الحد الادنى، يكون هدفها استنفار كل الطاقات المخلصة لتحقيق المجتمع المدني واقامة دولة القانون التي تجعل كل المواطنين متساويين في الحقوق والواجبات على اساس الديمقراطية والتعددية: الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والدفاع عن الحريات العامة بما في ذلك حرية الاجتماع والاضراب والتظاهر وتشكيل النقابات والجمعيات والاحزاب السياسية، وتكريس كل ذلك في الدستور الذي يجب ان يضمن حياة المواطنين المعاشية والصحية والتعليمية والتقاعدية، مسترشدين بمنهج الديالكتيك العلمي وبالاعتماد على منجزات العلم والتكنولوجيا وكل ما هو ايجابي في التراث الانساني: (محلياً وعربياً ودولياً) والسعي لاقامة علاقات متكافئة بين الامم والشعوب تساعد على صون السلام وحماية البيئة، وتوفير الامن الغذائي والحفاظ على جمالية الطبيعة والحياة.

٣ ـ ان الحزب الطليعي الذي يناضل لاقامة علاقات ديمقراطية وانسانية في المجتمع يجب عليه التأسيس لذلك بدءاً من حياته الداخلية(٠٪) ولكي تكون المنظمات القاعدية ورشة عمل فاعلة (كخلية النحل) يجب ان يترك لها المجال لتعمل بكامل حريتها للنهوض بمسؤولياتها على الوجه الاكمل. ومن هنا اقترح:

٤ ـ اعادة النظر في مفهوم المركزية الديمقراطية وتدقيقه ليعطي المعنى المطلوب بدقة اكبر، واقترح استبداله بعبارة: مركزة الديمقراطية والتي تعني بجوهرها: العقل الجماعي والقيادة الجماعية، التي يجب ان تقوم عليها وحدة الحزب الفكرية والتنظيمية

باعتباره اتحاداً طوعياً. هذه الوحدة يكون اساسها وحدة العقل والارادة والسلوك والتي يجب ان تترسخ وشائجها الروحية كقيم اجتماعية بين افراده، وكتراث حضاري يحقق التواصل الروحي بين الشعوب والامم.

٥ ـ تؤكد جدلية التطور «المادية التاريخية» على مرور الفكر في سير تطوره بثلاث مراحل وتمهد كل مرحلة منها للانتقال الى المرحلة الاخرى: وهي مرحلة: النشوء والتكون (الطفولة) ومرحلة الازدهار: (الشباب) واخيراً مرحلة التقهقر والانحطاط وهي: مرحلة (العجز والشيخوخة). والتي تمهد لنشوء نقلة جديدة في عملية التطور (الجديد يولد في احشاء القديم) تحقق ارتقاء نوعياً على سلم الحضارة الانسانية.

ومن هنا نلاحظ لدى الافراد، كما في المجتمعات، وجود فكر محافظ ترسخه قيم وعادات سابقة. يقابله فكر متجدد يندفع الى الامام. ثم ينبثق عن صراعهما حسب قانون الضاد والتضاد ما يمكن ان يسمى وليدهما. وتتوقف النتيجة سلباً وايجاباً على نسبة موازين القوى، وحسب المناخ والشروط التي تتم فيها عملية المخاض (بالقمع والعنف) أو العكس.

وبسبب تجاهل هذه الحقيقة تعرضت عملية البيريسترويكا الى الاجهاض. ولا شك ان الكثير من حالات الاجهاض التي تعرضت لها الحركات الثورية في بلادنا وقعت بسبب جهل أو تجاهل هذه الحقيقة.

ولذلك وتجاوزاً للسلبيات لا بد من الاقرار بالتعددية واحترام مختلف الآراء. وهنا يكمن الفرق بين مفهوم المركزية الديمقراطية التقليدي، وبين مضمون اقتراحنا (مركزة الديمقراطية) الذي يمكن ان يعمل كالبوصلة لتوجيه سير تطور الفكر المبدع الخلاق.

٦ ـ ولضمان تأسيس علاقات ديمقراطية وانسانية في حياة الحزب الداخلية لا بد من اعتماد قواعد تنظيمية محددة وواضحة تفسح المجال لاشاعة الديمقراطية في حياة المنظمات القاعدية التي تشكل حجر الاساس في الهيكل التنظيمي للحزب، وذلك كخطوة اساسية على طريق تحرير المنظمات القاعدية من سيطرة المركزية البيروقراطية.

ولتحقيق: مركزة الديمقراطية لا بد من الغاء «المراتبية» أو «المنصب» الذي تستغله السلطة الفوقية كامتياز لخدمة مصالحها الخاصة. ولضمان نجاح ذلك ولسهولة العمل التنظيمي اقترح ان يجري توزيع العمل الى ميدانين:

أ ـ **الميدان العملي**: الذي يقوم عليه الهيكل التنظيمي، ويتألف من مجموع المنظمات القاعدية وهو يختص بضبط وتنظيم كل ما يتعلق بحياتها الداخلية. وتشرف عليه وتهتم بتنظيم اموره لجنة تنظيمية منتخبة تابعة للمجلس المحلي مباشرة.

ب ـ **الميدان النظري**: ويتمثل في الهيئات الاستشارية، واللجان المتخصصة

المتفرعة عنها والتي تتوزع العمل مع المنظمات القاعدية لتنظيم الامور النقابية ومختلف النشاطات الجماهيرية: العلمية والفنية والرياضية . . . وذلك عن طريق المحاضرات واقامة الندوات والمهرجانات. ومتابعة النضالات المطلبية بكل الاساليب النضالية: وفود، عرائض، اضرابات، ومظاهرات. . للدفاع عن حقوقها ومطالبها وتحسين اوضاعها المعاشية والصحية والتعليمية . .

وتكون الهيئة الاستشارية مسؤولة امام المجلس المحلي عن تنظيم وتنفيذ كل هذه النشاطات.

وفي ضوء ذلك يمكن تحديد الهيكل التنظيمي ضمن الاطر التالية:

أ ـ المنظمة القاعدية ب ـ المجلس المحلي جـ ـ الهيئة الاستشارية ولجانها المتخصصة د ـ المجلس الوطني.

اولاً ـ المنظمة القاعدية: وتعتبر العمود الفقري في الهيكل التنظيمي، وتتوزع ضمن اطار جغرافي محدد، ويتحدد عدد اعضائها (حسب الظروف) وتكون اجتماعاتها دورية. ويمكنها عقد اجتماعات استثنائية بناء على طلب من ثلث اعضائها.

ثانياً ـ المجلس المحلي: ويتكون من مجموع المنظمات القاعدية المعنية ويمكن ان يتشكل اكثر من مجلس محلي حسب اتساع المنظمات واوضاعها الخاصة.

ويعتبر المجلس المحلي السلطة التشريعية، وهو الذي ينتخب الهيئة الاستشارية واللجان المتخصصة المتفرعة عنها. ويقرر تجديد عضويتها وتحديد مهامها بأكثرية ثلثي اعضائه. وتكون اجتماعاته دورية، ويمكنه عقد اجتماعات استثنائية بناء على طلب من ثلث اعضائه، أو بدعوة من هيئته الاستشارية.

ثالثاً ـ الهيئة الاستشارية: ويتراوح عددها بين ٥ ـ ٧ اعضاء أو أكثر وتقوم بمساعدة اللجان المتخصصة المتفرعة عنها في تنظيم وتنفيذ مختلف النشاطات الجماهيرية ـ وتكون مسؤولة امام المجلس المحلي الذي انتخبها ـ وتعقد اجتماعاتها بشكل دوري أو بناء على طلب من احدى اللجان المتخصصة. ويعتبر جميع اعضائها مسؤولين عن سلوكيتهم امام القواعد والجماهير.

ويتحدد عدد اللجان المتخصصة حسب ميادين العمل المتوفرة. ويتراوح عدد اعضاء كل لجنة بين ٣ ـ ٥ اعضاء وتكون اجتماعاتها مرتبطة باجتماعات الهيئة الاستشارية، ويكتسب دور اللجنة الاقتصادية أو (لجنة الرقابة والتفتيش المالي) اهمية خاصة. وهي مسؤولة عن ضبط وتنظيم الامور المالية، والبحث عن مشاريع انتاجية وخدمية حسب الانماط الاقتصادية المتواجدة وتوفير الكادر المتخصص لتنفيذها.

رابعاً ـ المجلس الوطني: وهو على نوعين: الاول ويتشكل من مجموع المجالس المحلية ضمن المنطقة الواحدة ويمثل السلطة التشريعية فيها وهو الذي ينتخب الهيئة الاستشارية العليا له ولجانها المتخصصة التي تقوم بتنظيم عمل الهيئات الاستشارية واللجان المتخصصة المحلية والتنسيق بينها. وهي مسؤولة امامه يقرر تجديد عضويتها وتحديد مهامها بأكثرية ثلثي اعضائه. وتكون اجتماعاته دورية ويمكنه عقد اجتماعات استثنائية بناء على طلب ثلث عدد المجالس المحلية، أو بدعوة من هيئته الاستشارية.

أما الثاني فهو المجلس الوطني العام. ويتشكل من مجموع المجالس الوطنية المحلية، ويعتبر السلطة التشريعية العليا ويجري فيه تبادل الآراء حول مختلف القضايا العامة واقرار السياسة العامة والخط العام للحزب. وينتخب الهيئة الاستشارية ولجانها المتخصصة التي تقوم بتنفيذ المهامات العامة على المستوى الداخلي والخارجي. كما تنظم عمل اللجان المحلية وتنسق بينها. وهي مسؤولة امام المجلس الوطني العام الذي ينتخبها ويقرر تجديد عضويتها وتحديد مهامها بأكثرية ثلثي اعضائه وتكون اجتماعاته دورية ويمكنه عقد اجتماعات استثنائية بناء على طلب ثلث عدد المجالس الوطنية المحلية، أو بدعوة من هيئته الاستشارية.

أما بالنسبة لمجموع بنود النظام الداخلي فانني لا أرى حاجة لتكرارها ويمكن الاقتصار فقط على بند شروط العضوية وحده وصياغته على الشكل التالي: يحق لكل من يسترشد بفكر الحزب ويقر ببرنامجه ونظامه الداخلي (كما حدد اعلاه) ان ينتسب الى احدى منظماته، ويسدد اشتراكاته.

ولا شك انه يمكن تقديم أو تعديل بعض الافكار أو الفقرات عبر النقاش والحوار الحر الديمقراطي والتنافس لاقتراح الافضل والامثل، وصولاً الى تحقيق المجتمع الحر الذي «يعتبر فيه التطور الحر للفرد شرطاً للتطور الحر للجميع» كما قال ماركس.

حوار شامل مع ليغاتشيف
اجراه احمد النعمان

ماذا جرى ويجري
في الاتحاد السوفييتي «سابقا»؟

ليغاتشيف في سطور

● ولد ايغور ليغاتشيف في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٢٠ في قرية دوبينكينو في منطقة تشوليمسك في مقاطعة نوفوسيبيرسك.
● تخرج في معهد الطيران بموسكو والمدرسة الحزبية العليا لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.
● بعد التخرج عمل مهندساً في مصنع الطيران في نوفوسيبيرسك.
● انتخب أميناً للجنة الكمسمول الشيوعي في المقاطعة.
● مارس النشاط الحزبي والنيابي منذ عام ١٩٤٩، وعين رئيساً لقسم في لجنة الكمسمول في نوفوسيبيرسك، ثم أميناً أول للجنة الكمسمول في المقاطعة.
● عمل في فترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ نائباً لرئيس قسم الدعاية ونائباً لرئيس قسم الهيئات الحزبية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في روسيا الاتحادية.
● كان منذ عام ١٩٦٥ أميناً أول للجنة الحزب الشيوعي في مقاطعة تومسك في سيبيريا أيضاً.
● في عام ١٩٨٣ عين رئيساً لقسم التنظيم الحزبي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي.
● في ديسمبر (كانون الأول) عام ١٩٨٣ انتخب أميناً للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي، وعمل في هذا المنصب حتى عام ١٩٩٠.
● كان منذ عام ١٩٦٦ حتى عام ١٩٩٠ عضواً في اللجنة المركزية للحزب.
● في الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب في ربيع عام ١٩٨٩ تلي تصريحه حول أن المحققين تيلمان غدليان ونيكولاي ايفانوف يتهمانه دون أي أساس بالرشوة، وقال أن هذا الاتهام استفزاز، وطلب من اللجنة المركزية التحقيق في القضية، وبالنتيجة لم يثبت المحققان أن ليغاتشيف كان يتسلم الرشاوى.
● ليغاتشيف متقاعد حالياً، ويتسلم الحد الأدنى لتقاعد المواطن الروسي العادي.

■ **إن كتابك الذي صدر أخيراً بخمسين ألف نسخة يحمل العنوان «لغز غورباتشوف» مارأيك، هل تمكنت من حل هذا اللغز، أم أن هناك لغزاً آخر؟**

الكثير من الأشياء ظل لغزاً لأن الأحداث المرتبطة بعهد البيريسترويكا لم تنته بعد، حيث يعود بعض الأحداث إلى أعوام السبعينات والثمانينات، لكنني، على أية حال، توصلت إلى استنتاج ثابت بأن غورباتشوف كان شخصاً مغايراً لما هو عليه الآن، بالمناسبة كثيراً ما يطرح عليّ السؤال التالي: مارأيك، هل كان غورباتشوف هكذا منذ سن الطفولة أم أنه أصبح الآن غير ما كان عليه؟ البعض يقول «إنه هكذا كان وسيبقى». بيد أنني لاأميل إلى هذا الرأي، لقد اجتاز غورباتشوف طريقاً ارتقائياً في تطوره، وإنني لعلى ثقة بأنه كان يتمسك بمواقف الماركسية اللينينية، لكنه بعد ذلك انتقل تحت تأثير العوامل الداخلية والخارجية إلى المواقع التحريفية اليمينية والتصفوية والاشتراكية الديمقراطية، ومهد الطريق في البلاد لمعاداة الشيوعية والانفصالية القومية، هذا هو جوابي المختصر عن السؤال، لأن عهد مايسمى بالبيريسترويكا التي منيت بالفشل بسبب فقدان الوجهة الاشتراكية والديمقراطية ليس متجانساً، فهو أيضاً ينقسم إلى مراحل معينة، وقد كتبت عن ذلك في كتابي. وإنني أؤكد أن الأعوام الأولى من البيريسترويكا، من عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٨، شهدت تحسناً وهو ماتدل عليه الإحصائيات، وقد ازدادت خلالها بشكل ملحوظ وتائر نمو الاقتصاد.

■ **تحسنت الأمور، وارتفعت سمعة الحزب، وعاشت البلاد على الآمال بالمستقبل الأفضل، ولكن ينبثق السؤال: لماذا كانت الأمور في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأولى أفضل مما في عامي ١٩٩٠ و١٩٩١؟**

تفسيري لذلك إننا بالرغم من كل نقاط الضعف والإخفاقات كنا نتبع، من حيث الأساس، النهج السياسي الذي أعده الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في أبريل (نيسان) عام ١٩٨٥، ماهو هذا النهج؟ إنه نهج تجديد الاشتراكية وإصلاحها، ولم تخطر ببالنا حتى فكرة تفكيك الاشتراكية وتصفيتها.

■ **وحتى ببال غورباتشوف؟**

نعم، كانت تلك تحولات اجتماعية في إطار النظام الاشتراكي القائم، وحققنا حينذاك نجاحات معينة باتباع نهج المزيد من الاشتراكية والمزيد من الديمقراطية، دون تهديم ذلك النظام، بل عن طريق تجديده وإصلاحه وتحسينه، وأود أن أقول في هذا الصدد أننا بدأنا في تلك الأعوام تقليص النفقات العسكرية، ولكن ليس بالشكل المطلوب طبعاً، لأن موقفنا من ذلك كان يتسم بدرجة عالية من المسؤولية.

ويخطىء من يقول أن أحد أسباب التخلف الكبير للاتحاد السوفياتي في النصف الثاني من السبعينات والنصف الأول من الثمانينات هو الاقتصاد المخطط، إن هذا خرافة وكذب، وكان «سادتنا الديمقراطيون» بحاجة لاختراع هذه الخرافة من أجل تهديم الاقتصاد المخطط وتحويل البلاد إلى طرق السوق الحرة التي لاتخضع لضوابط، وإلى الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، وهذا يتسم بأهمية مبدئية.

ما القضية إذن؟ لماذا بدأنا نتخلف بالفعل؟ إننا بدأنا البيريسترويكا لوجود تخلف كبير، وهذا واقع من المستبعد أن ينفيه أحد، وكان هدفنا جيداً، فكل دولة تتوصل عاجلاً أم آجلاً إلى مرحلة تضطر فيها إلى التجديد والإصلاح، هذا أمر طبيعي. وحان الوقت لأن نتغير نحن أيضاً، وأعتقد بأن أحد الأسباب التي أدت إلى تخلفنا، الذي تجلى في تدني وتائر نمو الاقتصاد وتباطؤ ازدياد المداخيل الفعلية وانخفاض مستوى معيشة السكان، يكمن بالدرجة الأولى في النفقات العسكرية المفرطة. أما لماذا كانت النفقات هائلة فهذه مسألة أخرى، لقد مرت فترة كانت نسبة النفقات العسكرية خلالها ١٨ بالمائة من الدخل القومي. وإنني لاأميل إلى تحميل القيادة السابقة المسؤولية عن أخطاء ما، فقد كان ذلك مرهوناً بالمجرى التاريخي، كنا ننفق ١٨ بالمائة من الدخل القومي على الدفاع للمحافظة على مستواه المضمون، لكنني أود في هذا الصدد التأكيد على أن الحزب الشيوعي السوفياتي نفذ ماأوصاه به الشعب في تلك الحقبة. فقد تسنى لنا تلافي حرب عالمية جديدة، ويعود الفضل في ذلك إلى حزبنا وبلادنا، وتحالفنا مع البلدان الأخرى، بما فيها البلدان العربية ومع كل البشرية التقدمية، وأود القول من خلال تجربتي عندما كنت أميناً للحزب في مقاطعة سيبيريا وعضواً في المكتب السياسي، إن الناس كانوا يطرحون في كل لقاء معي هذا السؤال: هل ستنشب حرب؟ وكانوا يقولون: افعلوا كل شيء من أجل ألا تنشب الحرب، ونحن مستعدون لشد الحزام على البطون.

■ أجل، إن الشعب السوفياتي والروسي عانى الكثير من الويلات بسبب الحرب.

ولهذا مازالت المأساة حية في ذاكرة الناس، وقدر علينا أن نحافظ على المستوى اللائق للدفاع والتوصل إلى التكافؤ العسكري الاستراتيجي وإجبار الامبرياليين على التخلي عن الحرب النووية.

■ أعتقد بأن الاتحاد السوفياتي كان متفوقاً على حلف الناتو وأميركا من حيث كمية الأسلحة وعدد أفراد الجيش!

إننا لم نكن متفوقين، فنحن عملياً لم تكن لدينا أية قواعد، بينما طوقت أميركا بلادنا بالقواعد من كل الجوانب، وهذا ماجبرنا على اتخاذ جانب الحيطة والحذر من كل المفاجآت، وإنك على

صواب عندما أشرت إلى أن الشعب لايزال يذكر تلك الحرب، ولهذا كان على الساسة السابقين والحاليين أن يذكروا ذلك. لكن المحافظة على المستوى اللائق للدفاع كانت تقوض اقتصادنا، إليك هذا المثال، إن ١٠-١٢ بالمائة من جميع وسائل الإنتاج كان مسخراً لتلبية حاجات الإنسان، أي أن بنية الاقتصاد كانت عسكرية عملياً، وإن المجمع العسكري الصناعي كان يضم أكثر من نصف القدرة الصناعية للبلاد.

■ لدي أرقام تقول أنه كان يؤلف نسبة ٧٠ في المائة.

في اعتقادنا ٦٠- ٦٥ بالمائة، ولربما أكثر تبعاً لما يمكن أن نحسبه، وكيف نحسبه، إنني عملت في مدينة تومسك حيث كانت تقوم صناعة عسكرية ضخمة، وعندما كنت أزور المصانع وأعود إلى البيت كانت تنتابني مشاعر متناقضة، فمن جهة كنت أرى أن بلادنا تتمتع بقدرات هائلة للدفاع عن نفسها وحماية شعبها، ولهذه القوة نفوذ على الصعيد العالمي، وهي تتيح لدبلوماسيتنا وسياستنا الفرصة لخوض النضال من أجل السلام بنجاح. وكنت أرى، من الجهة الأخرى، أن كل تلك الوسائل الضخمة والمواد الحديثة والآلات الدقيقة والكوادر الرائعة والأبحاث العلمية مسخرة لإنتاج وسائل الإبادة، ولهذا كنا نخصص القليل للزراعة من أجل حل المشكلة الغذائية ولإنتاج سلع الاستهلاك الشعبي وتطوير الصناعة الخفيفة.

■ ألم يكن أحد في قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي يريد إعادة النظر في هذه المسألة من أجل تقليص النفقات العسكرية الطائلة؟

إننا بدأنا النظر في هذه المسألة بصورة جدية وعميقة في عام ١٩٨٧.

■ وقبل ذلك لم تبحث إطلاقاً؟

كلا، وإن أول تقليص للنفقات العسكرية تم في عام ١٩٨٩، بمقدار ٤ مليارات روبل أولاً، ثم ٨ مليارات، ثم ٩ مليارات، لكن الوضع تغير الآن.

■ تطرقنا إلى مسألة النفقات العسكرية، مارأيك في توقيع معاهدة تقليص الأسلحة الاستراتيجية؟

يثير الحذر لدي حل هذه المسألة بسرعة، إنها مسألة معقدة جداً، فقد تخلينا عملياً عن المبدأ الذي تمسكنا به طوال عشرات السنين، مبدأ التكافؤ، لقد خرق التكافؤ الآن، وقد أعلن يلتسين عملياً بصورة طنانة، إننا نتخلى عن مبدأ التكافؤ، وأعتقد بأن هذا من السابق جداً لأوانه.

■ لكنه يقول: «نحن والأميركيون على السواء».

كلا، الأميركيون مسرورون بالطبع بتخلينا عن ذلك، وهذا أمر طبيعي، ولكن وفق الأخبار المتوفرة، لأنه لاتوجد لدينا وثائق بعد. ولا توجد وثائق أيضاً في البرلمان، وهذا يثير الحذر كذلك،

وفي الحقيقة يقولون في هذا الصدد: ما الفارق؟ وما الحاجة إلى امتلاك ألف صاروخ إذا كان من الممكن تدمير العالم كله بمائة صاروخ؟ إن هذه النظرة تتميز بضيق الأفق، وأعتقد بأن الدفاع اللائق يجب أن يقوم على مبادىء التكافؤ، لاسيما وأنني لاأعرف واقع الأمور في أمريكا في مايخص الصواريخ البحرية والجوية، إن الكثير من الأشياء غامضة، ويثير لدي الحذر أيضاً واقع أن هذه القضايا لم تناقش في البرلمان.

■ ماهو السبب؟

كانت زيارة يلتسين الأخيرة لأميركا تستهدف التسول والاستجدار وطلب مليارات الدولارات، وكانت كل الاتفاقيات التي وقعت وجميع الخطب التي ألقيت ترمي إلى قول مايود الأميركيون سماعه ومايناسبهم، وفي رأيي أن هذه السياسة ليست صائبة، أنا أيضاً كنت في أمريكا قبل فترة قصيرة، وكنت أول سياسي سوفياتي قال للأميركيين أشياء لا تسرهم، ويجب القول إنهم لم يوافقوا على الكثير من الأشياء، لكنهم كانوا يستمعون بانتباه واهتمام، وأعتقد أنهم قدروا ذلك التقدير المناسب، إن تصريحات يلتسين حول أن الصنم الشيوعي تحطم، وحول أنه لم يسمح بانبعاث الشيوعية، ووعوده بإيجاد أسرى الحرب الأميركيين في المعسكرات وتصريحاته حول أنه لن يستقيل، وحول أنه سليم الصحة، إن كل هذه التصريحات تثير الحذر، وكان هدفها الوحيد الحصول على أكبر قدر من الدولارات من الأميركيين.

■ علام حصل بالتحديد؟

لم نحصل على شيء، ولن نحصل في المستقبل القريب على أية حال، لأن دافعي الضرائب الأمريكيين لايسارعون لإعطائنا هذه المليارات، فلديهم مشاكلهم، إذ يتدهور النشاط الاقتصادي ويزداد عدد العاطلين عن لعمل وتفلس المؤسسات وتغلق، ويلاحظ أن عندهم ركوداً الآن.

لقد تكونت ثروة البلدان الرأسمالية المتقدمة لابواسطة شعوبها وعن طريق تطبيق الإنجازات العلمية والتقنية فحسب، بل كذلك بفضل المستعمرات واستغلال الناس هناك وعن طريق التبادل غير المتكافىء، بين بلدان العالم الثالث والدول المتطورة.

■ لقد كانت لديكم أيضاً مناطق نفوذ في البلدان الاشتراكية السابقة ودول أفريقيا والعالم الثالث؟

إننا لم نحصل على شيء، ولسنا مدينين لها، بل هي مدينة لنا، إن لدينا على هذه البلدان حسب الاتفاقيات والوثائق ديوناً بعشرات المليارات من الدولارات، ولهذا عندما كانت تقرر في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي مسألة تقديم المساعدة أو مسألة تطوير العلاقات

الاقتصادية مع البلدان الصديقة، لم نكن نفكر إطلاقاً في الحصول على منفعة وفي تحسين أوضاعنا على حساب ذلك، وكانت العلاقات تقام على أساس المساواة، بما في ذلك مع البلدان الاشتراكية، وكنا في الأعوام الأخيرة نقدم المساعدة فقط لكوبا وفييتنام، ويقال أننا كنا ندفع لكوبا ثمناً باهظاً لقاء السكر، بيد أننا كنا ندفع بالروبلات وليس بالدولارات.

ثم كان يجري بيننا تبادل على أساس التكافؤ، ومع ذلك كنا نقدم لهذين البلدين مساعدة أممية لتعزيز المعسكر الاشتراكي وتعميق النضال من أجل السلام والحرية، ونحن لانتخلى عن ذلك، فهذه هي ايديولوجيتنا، فقد جاء في النظام الداخلي للحزب أن الحزب الشيوعي السوفياتي هو جزء من الحركة العمالية الشيوعية العالمية.

■ لنتطرق إلى قضية أخرى، ما هي المشاعر التي تنتاب العسكريين في روسيا، في رأيك، في هذه الفترة؟!

نزع السلاح المتسرع يحمل الكثير من المصائب والآلام لملايين الناس، فالمجمع العسكري الصناعي عندنا يؤلف أكثر من ٦٠ بالمائة من الإنتاج العام، وثمة جيش يضم الملايين، وأعتقد بأنه ليس من الصواب نزع السلاح في فترات قصيرة جداً، لأن هذا يؤدي إلى صعوبات كبيرة ويمس الناس ويثير توتراً اجتماعياً وسياسياً كبيراً في المجتمع، وكان ينبغي أخذ هذا بالحسبان عند توقيع الاتفاقية مع ألمانيا، والمعاهدة الأخيرة مع أميركا.

■ ماهو تقديرك لوضع المجتمع الروسي تجاه العملية التي أسميها (الأمركة) وأقصد عرض وانتشار الأفلام والكتب الجنسية الخلاعية، أليس هذا دخيلاً على المجتمع الروسي وعاداته وتقاليده؟

إن هذا دخيل على طباعنا الروسية وتقاليد شعبنا، فالإنسان الروسي يتميز تقليدياً بالحشمة والأخلاق العالية، وكل مايجري الآن في مجال الأخلاق يأتون به من الغرب خصيصاً لإفساد الشباب بالدرجة الأولى أخلاقياً ومعنوياً، وهذا يجعلنا بلا مستقبل.

■ من يمارس ذلك بالذات؟ هل يأتي هذا من أميركا أم ثمة ناس داخل البلاد يمارسونه؟

أعتقد بأن هناك تحالفاً بين قوى داخلية وخارجية، ويبتز الكثيرون الأرباح من ذلك، وتنعدم مقاومة هذه الظواهر، على أن غورباتشوف أصدر بعض المراسيم في هذا الصدد، ويسيطر على وسائل الإعلام أشخاص موالون للغرب، ويجري كل شيء من أجل تخدير الشعب وجره إلى نظام آخر تماماً، ويقال أن إصلاحاً يجري، لكن هذا ليس بالإصلاح، إنه تحطيم للنظام، وارتداد عن الاشتراكية، ولهذا يجري غرس الملكية الخاصة واستبدال السوفيات بسلطة أخرى وإقامة سلطة الرئيس التسلطية. إن هذه الأيديولوجية دخيلة علينا.

■ هل تقصد في هذا الصدد مآرب سياسية؟

نعم، فالمصلحون عندنا ليست لديهم قاعدة اجتماعية واسعة، وهم يفعلون ذلك من أجل تكوين فئات ومجموعات من السكان تؤيدهم طبعاً، فمن دافع عن البرلمان الروسي، أو كما يسمونه الآن البيت الأبيض في أغسطس (آب) من العام الماضي؟

لقد دافع عنه الناس الذين يبتزون الأرباح على حساب آلام الشعب، والمضاربون وأسياد اقتصاد الظل والمافيا والبرجوازية المجرمة وأصحاب البورصات، إنهم طفيليون على ملكية الدولة، يشترون من الدولة ويبيعون بأضعاف مايشترونه ويتلقون أرباحاً فاحشة ويعيشون على حساب ذلك.

■ من ناحية أخرى يقال أن الثقة بالحزب الشيوعي كانت عظيمة جداً خلال أكثر من سبعين سنة على أمل الرفاه، ما الذي يجب عمله من أجل توفير جو من الثقة بالسلطات للسير في الطريق الجديد؟

يقول البعض أننا بنينا اشتراكية الثكنات، واشتراكية إقطاعية. لكنني أعتقد أننا بنينا اشتراكية يختلف نموذجها عن النموذج الذي رسمناه. وهو يتميز بالإفراط في تبعية كل مجالات المجتمع بما فيها شكل الملكية الاجتماعية، إلى الدولة، فقد كانت الملكية الاجتماعية عندنا متمثلة بملكية الدولة. وحتى الملكية الكولخوزية كانت إلى حد كبير ملكية للدولة. لكن ذلك كان يتيح لنا أفضليات كبيرة، ففي فترات قصيرة كان بوسعنا، إذا اقتضت الضرورة، تركيز موارد وطاقات هائلة على الاتجاه المطلوب وحل المهمات الأساسية وكانت هذه الأفضليات الرئيسية بالإضافة إلى الاقتصاد المخطط. وعند التوصل إلى مرحلة معينة استهلك هذا النموذج، الذي أسميه اشتراكية الدولة، نفسه، وصار يعرقل حل القضايا الاجتماعية بصفة خاصة. وحلت فترة الإصلاح والتجديد في إطار النظام السوفياتي، ولكن الأمور تطورت بشكل أن البلاد التي سلكت في عام ١٩٨٥ طريق الإصلاحات وجدت نفسها في عمق أزمة اقتصادية وسياسية، وإن ما يجري الآن ليس إصلاح الاشتراكية بل تكوين نظام جديد.

■ هل هو الرأسمالية؟

نعم الرأسمالية، وهم لايخفون ذلك، لكن ساستنا يتحدثون عن ذلك بصوت عال في الخارج، وبصوت منخفض في الداخل، ومن هنا تصريحات يلتسين حول تحطيم الصنم الشيوعي وعدم السماح بانبعاثه، وبالرغم من الضربات الخطيرة التي ألحقت ببلادنا لدينا كثير من الناس الذين يدركون ماذا كان عندنا وماذا أصبح.

■ كان في الحزب الشيوعي السوفياتي ١٩ مليون عضو، كم بقي منهم؟ يقال أنه لم يبق الآن حتى ربع مليون.

إنني لاأنتمي إلى المنظمة الشيوعية الجديدة، لكنني أعتبر نفسي عضواً في الحزب وأدفع الاشتراكات.

■ **لمن؟**

في جريدة «غـلاسنوست» (العلنية التي كانت تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي). وقبل فترة قصيرة دفعت بدل الاشتراك، وقالوا لي أن كثيراً من الناس يأتون لدفع الاشتراك وحتى يقفون في الطابور.

■ **هل أصبحت هذه الجريدة ناطقة باسم الحزب الشيوعي الروسي؟**

إنها واحدة من الجرائد، وكانت في وقت ما تابعة للجنة المركزية، وتجمع هيئة تحريرها الاشتراكات بصورة طوعية، وتنفق الاشتراكات على الصحافة الحزبية، بما فيها هذه الجريدة.

■ **ولماذا لاتنتمي إلى أي تجمع؟**

إنني أساعد بنشاط تجمعات معينة، لكنني أعتبر نفسي في هذه المرحلة شيوعياً وعضواً في الحزب الشيوعي السوفياتي. وأدفع اشتراكاتي، وسأساهم بمساهمة مباشرة نشيطة في جلسات المحكمة الدستورية التي ابتدأت في ٧ يوليو (تموز) الماضي التي ستنظر في مراسيم الرئيس يلتسين بشأن الحزب الشيوعي السوفياتي، وإذا اتخذت المحكمة الدستورية قرارات أخرى فإنني أقرر حينذاك في أية منظمة أكون.

■ **وإذا حظر نشاط الحزب الشيوعي؟**

ستظهر عدة احتمالات، فبعد أن حظروا نشاط الحزب تكونت منظمات شيوعية واشتراكية مختلفة، لكنها كلها من حيث الأساس تتمسك بالأيديولوجية الماركسية اللينينية، كما تتمسك أكثريتها بمبدأ المركزية الديمقراطية، وبالمناسبة أعيد اتحاد الشباب الشيوعي (الكمسمول).

ومع ذلك يوجد الحزب الشيوعي السوفياتي، حتى أن لجانه في المناطق مازالت تعمل، ولن أذكر لك أين وكيف تعمل، وهناك منظمات قاعدية تجمع الاشتراكات وتناقش المسائل المهمة. وإن مراسيم الرئيس منافية للدستور، في رأيي، وليس لديه أي حق في إصدارها، لاسيما بدون محاكمة وتحقيق، وبوسع يلتسين أن يهدد كيفما يشاء، ولكن لننتظر القرار. وأريد أن أقول: كيف يمكن محاكمة الحزب الشيوعي السوفياتي إذا كان نشاطه في إطار الدستور، وكيف يمكن القول أنه مخالف للدستور إذا كان الدستور ينص على أن الحزب الشيوعي السوفياتي هو القوة القيادية والموجهة، وأن الحزب الشيوعي السوفياتي هو نواة النظام السياسي وأساس المنظمات الاجتماعية والحكومية؟

■ **إذن ينبغي أخذ السلطة مجدداً؟ إذ لايوجد حزب لايسعى إلى السلطة؟**

إننا لانقصد الطريق العسكري، بل الطريق الدستوري، والبرلماني من خلال السوفيات، وعن طريق الانتخابات أعتقد بأن علينا الآن أن نطالب بانتخابات، وهذا ليس لمصلحة الحكام الحاليين، من الناحية السياسية، لأن إصلاحهم جلب الآلام والعذاب للشعب، وخرب البلاد والاقتصاد. ولايزال الشعب يذكر كيف كنا حتى فترة قريبة دولة عظمى قوية تتحسن فيها حياة الشعب باستمرار، وإن كان بصـورة بطيئة، ولهذا يحبذ إجراء انتخابات في مرحلة ما تعكس توزع القوى السياسية.

■ إنك كنت مسؤولاً في الحزب عن مجال الأيديولوجية، هل لديك نظرية أيديولوجية جديدة أم أعدت النظر في الأيديولوجية الماركسية اللينينية؟

لكل الأحزاب الشيوعية والاشتراكية التي تشكلت الآن برامجها وأنظمتها الداخلية، وإنني على اطلاع للكثير منها، وهي على العموم تعكس الأهداف البرامجية للحزب الشيوعي السوفياتي.

■ الأهداف الماركسية اللينينية؟

نعم، لكن هذه الأحزاب ستكون جديدة وديمقراطية، وسيكون صوت الشيوعي فيها حاسماً، وستؤدي فيها المنظمة القاعدية دوراً أساسياً.

■ وماذا بشأن ديكتاتورية البروليتاريا ونظام الحزب الواحد في ظل اللينينية؟

ليس لدينا حزب ذو اتجاه اشتراكي شيوعي يطرح مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا ماعدا حزب البلاشفة الشيوعي لعموم الاتحاد السوفياتي الذي تتزعمه نينا اندرييفنا، وأعتقد بأن مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا فات عهدها، ولا ضرورة للعودة إليها.

■ ألم يحدث أن ديكتاتورية البروليتاريا تحولت إلى ديكتاتورية الحزب وديكتاتورية اللجنة المركزية؟

يقولون الآن أن الحزب ابتلع الدولة، هذه هي أطروحتهم الأساسية الآن، ويزعمون أن الحزب منظمة إجرامية ولم يكن منظمة سياسية إطلاقاً، لكنني أريد أن أقول أن الحزب أبعد عملياً عن السلطة منذ حوالي ثلاث سنوات، والحزب ممنوع حالياً، لكن النظام الحكومي الإداري بقي، إنه موجود، بيد أنه ضعف بسبب عدم وجود الحزب الذي كان ينظم ويوجه كل شيء.

■ متى فقد الشيوعيون السلطة، برأيك، هل كان لأحداث أغسطس (آب) تأثير، أم أن كل شيء حدث قبل ذلك؟

إنني لاأستطيع ذكر الوقت بدقة لكن العمليات التي جرت في الحزب، عمليات الضعف الفكري والتنظيمي تعود إلى السبعينات، بينما ظهرت في الثمانينات التكتلات ذات الاتجاه

الاشتراكي الديمقراطي، وانضم إلى الحزب أناس تزعموا الحركات القومية الانفصالية..

■ **في عهد البيريسترويكا؟**

نعم، ظهرت تكتلات لها برامجها وزعماؤها، وكنا نتحدث عن ذلك في اجتماعات اللجنة المركزية، إن الحزب الشيوعي السوفياتي مثقل طبعاً بأعباء الماضي، وتنعكس في الوقت الراهن أيضاً أعمال التنكيل التي لاتحصى والظلم والعنف في أعوام عبادة شخصية ستالين. وكان هذا العبء يسحق الحزب، وقد استطاع جزء من القادة برئاسة غورباتشوف تبديل الحزب، وانتقلوا إلى المواقف التصفوية والتحريفية اليمينية والاشتراكية الديمقراطية ومهدوا الطريق لمعاداة الشيوعية وللحركة الانفصالية القومية. وكانت هذه المسائلب تناقش سواء في المكتب السياسي أم اللجنة المركزية، وكانت المناقشات تجري بحدة في كل اجتماعات اللجنة المركزية.

■ **في أحد الاجتماعات الأخيرة للجنة المركزية قال غورباتشوف: إذا كنتم ترغبون فإنني سأقدم استقالتي وقال ذلك مرتين.**

نعم، قال في اجتماع المكتب السياسي إنه لايستطيع العمل مع ذلك القوام للجنة المركزية، بيد أن قوام اللجنة المركزية كان كله مجدداً، وتجدد أيضاً قوام المكتب السياسي كله، ومع ذلك أعلن أنه لا يستطيع العمل، والسبب هو ظهور أناس ماركسيين ولينينيين حقيقيين كانوا ينتقدونه أشد انتقاد في اجتماعات اللجنة المركزية.

■ **كيف استطاع لوحده إعداد كل هذه «الطبخة»؟**

كان هناك ناس يؤيدونه، ثم خُلقت حوله هالة بأنه لابديل له، ولكن لماذا لايوجد بديل، هذه مسألة أخرى، فالكثيرون يقولون الآن عن يلتسين أنه لابديل!

■ **ما هي وجهة نظرك في تعدد الأحزاب؟**

إنني كنت واحداً من دعاة تعدد الأحزاب في عام ١٩٨٨ عندم بدأت مناقشة هذه القضية بصورة جدية، وفي عام ١٩٨٩ قدمت اللجنة المركزية للحزب اقتراحاً إلى السوفيات الأعلى ليطرح على مؤتمر نواب الشعب حذف المادة السادسة من الدستور التي كانت تحدد مكانة الحزب، وفي اعتقادي بأن الخطوة نحو تعدد الأحزاب هي خطوة مهمة نحو الديمقراطية.

■ **باعتبارك مبدعاً يسعى إلى تجديد الحزب والحياة السياسية، لماذا لم تقترح القيام بتلك الخطوة قبل ذلك، بل أعلنت موقفك عندما أصبح في البلاد حوالي (٢٥٠٠ حزب وحركة)؟!**

الحركات والأحزاب كانت أقل من ذلك بكثير، كان ينبغي أن نراعي الظروف، وإنه لقضية أخرى كون الحزب لم يتمكن بعد إلغاء المادة السادسة من الدستور، بحكم الظروف التي تحدث

عنها، من تولي الدور القيادي والتصدي للقوى الهدامة.

■ لكنك كنت تقول، أنت وغورباتشوف، في مختلف التصريحات أن المادة السادسة ستبقى، وأن الحزب الشيوعي السوفياتي يجب أن يكون قائد المجتمع.

أعتقد بأننا اتخذنا القرار الصائب، وقد نشر ذلك الديمقراطية في حياتنا بلا شك، ولكن كان ينبغي إلى جانب ذلك اتخاذ عدد من الإجراءات لتعزيز الحزب ونشر الديمقراطية فيه وتقوية دوره كقوة سياسية رائدة، ولو فعلنا ذلك دون التفريط في مبادىء الحزب الشيوعي السوفياتي لكان الوضع الآن مغايراً.

■ يستدل من كتابك ومن الحديث معك أن غورباتشوف لعب أحد الأدوار الرئيسية، إن لم يكن الدور الأول، في تهديم الحزب الشيوعي السوفياتي، فمن اشترك في ذلك ماعداه؟

ألكساندر باكوفليف.

■ ومن أيضاً؟

■ إن دورهما كان أهم من دور غورباتشوف، فقد كانا أنضج من الناحية الأيديولوجية.

عندما يقولون أن غورباتشوف كان هكذا دائماً لاأوافق على ذلك، ولكن إذا حكمنا من خلال ما توصلت إليه البلاد في مطلع عام ١٩٩٢ يتضح أن غورباتشوف أظهر نفسه كشخص خان قضية الشيوعية.

■ عندما كان غورباتشوف في القرم في زمن أحداث أغسطس (آب) من العام الماضي (أيام محاولة الانقلاب)، لماذا التزم الحزب الصمت؟ هل يمكن الحديث عن ذلك بالتفصيل؟

التزم الصمت لأن الحزب كان قد رفض إلى درجة كبيرة أمينه العام والرئيس، ولهذا لم يدافع عنه، إنها لمسألة طريفة، الأمين العام موجود في القرم، ويعلنون أنه مريض، والحزب صامت. لقد رفض الحزب الأمين العام ولم يعتبره شخصاً ينبغي الدفاع عنه.

■ والمجتمع؟ لماذ نصب الناس المتاريس ولم تدافعوا أنتم عن أنفسكم؟

لدي رأيي بهذا الخصوص، لقد أعلن يلتسين أخيراً أن جميع سكان روسيا أيدوه في أغسطس (آب) إن هذا مجرد اختلاق، لقد دافع الألوف وسكت الملايين، وبدأ الملايين الآن، عندما

أصبحت الحياة تؤثر عليهم، تنظيم أنفسهم ومعارضة السياسة المعادية للشعب التي أدت إلى خراب البلاد وإلى الكثير من الآلام، لقد كان الوضع مغايراً في دلك الحين.

■ ولكن كان عليكم أن تقولوا للشعب شيئاً ما حينذاك، الشيوعيون لم يدافعوا عن غورباتشوف، بيد أن البلاد كانت في خطر، أم أن أعضاء لجنة الطوارىء كانوا يناسبونكم؟ كان عليكم أن تقولوا للشعب ما هي تلك السلطة، وماذا وراء أحداث أغسطس، لكن الحزب التزم الصمت، ولم يعرف أحد موقف الشيوعيين، سكتوا طويلاً، ثم أعلنوا شيئاً ما بشكل رسمي.

بعد بضعة أيام من أحداث أغسطس (آب) أعطيت حديثاً لجريدة «غلاسنوست» ونشر في «برافدا» أيضاً، وإنني لاأتراجع عما قلت وأعتبر أن بين أعضاء لجنة الطوارىء كثيرين من الناس المحترمين الذين لهم أفضال كبيرة على الحزب والدولة والشعب، لقد حاولوا إيجاد طريق للمحافظة على الاتحاد الفيدرالي وعدم السماح بانهيار الاتحاد السوفياتي، لكن الطريقة كانت منافية للدستور، وهي عملياً مؤامرة ولم يكن الحزب يعرف أي شيء عن ذلك، ولا يمكن حل أية مسألة في مجتمعنا بالطريقة العسكرية.

■ ومع ذلك ألحقت لجنة الطوارىء ضربة بالحزب الشيوعي..

في اعتقادي أن هذا الطريق ألحق ضرراً معيناً بالحزب، واستغل ذلك بمهارة «الديمقراطيين» أعداء الشيوعيين، ويجب أن يتحمل مسؤولية خاصة الأمين العام للجنة المركزية الذي ترك الحزب.

■ وهل ترك الحزب دون التشاور مع أحد؟

لم يعقد غورباتشوف اجتماعاً للمكتب الساسي ولا لأمانة اللجنة المركزية، مع من كان بوسعه أن يتشاور أيضاً؟ مع ألكساندر ياكوفليف؟!

■ ألم تلتق مع غورباتشوف عندما عاد إلى موسكو؟

كلا، إنني لم ألتق معه منذ فترة طويلة، وكذلك ريجكوف لم يلتق معه أبداً، كان عليه أن يعقد اجتماعاً للمكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية والتشاور. لقد تبين أنه إنسان ليس صامداً، بل وهو جبان، فقد مارسوا الضغط عليه ودعوه إلى دورة البرلمان الروسي، وهناك وافق صامتاً على كل الوثائق المرتبطة بمنع نشاط الحزب الشيوعي، علماً أنه حاول الاعتراض، ولكن ليس من حيث الأساس، وفي اليوم التالي في ٢٤ أغسطس (آب) استقال.

■ أجل، أذكر جوابك حينذاك في المؤتمر الصحافي حين قلت: أي شيوعي هذا غورباتشوف إذا كان قد اعتقل في أثناء الاستجمام وبعد ثلاثة

أيام ترك منصب الأمين العام، لننتقل الآن إلى موضوع آخر، مارأيك، لماذا تفشل الإصلاحات؟

يقول الرئيس يلتسين أن الإصلاحات تفشل لأن الشيوعيين يقاطعونها ويخربونها.

لكن ذلك يجري، كما أعتقد لأن أعباء الإصلاحات ألقيت على كاهل الإنسان الكادح، ويبدي المقاومة الكادحون لأنهم لايستطيعون العيش على هذه الحال، ويحاولون مجرد البقاء على قيد الحياة، إليك هذ الأرقام لتحكم من خلالها، فقد تقلص الإنتاج الصناعي بنسبة ٣٠ في المائة والمنتجات الحيوانية بنسبة ٤٠ في المائة، وتراجعنا إلى مستوى بداية السبعينات في بعض المؤشرات ولاسيما استخراج النفط والغاز وبناء المساكن واستهلاك اللحوم والألبان، وستتطلب استعادة مستوى عام ١٩٩٠ فقط سنوات وربما عشرات السنين، إن كل شيء الآن يعود إلى الوراء، لهذا تجري الإصلاحات الحالية بصعوبة كبيرة، ولا تتحسن الحياة بل تتردى، وقد كانت بلادنا حتى فترة قريبة دولة عظمى تتحسن فيها حياة الناس باستمرار بالرغم من النفقات العسكرية الطائلة من أجل حماية أنفسنا من خطر العدوان.

■ **هل بقي هذا الخطر؟**

إنني أتحدث عن ذلك الزمان.

■ **ماهي، في رأيك، طرق الخروج من الأزمة القائمة؟**

الطريق الأول هو أخذ نموذج غريب، النموذج الغربي والسير في هذا الاتجاه، والطريق الثاني هو العودة إلى الماضي، ولكن ثمة طريقاً ثالثاً هو المحافظة على كل ماتحقق في النظام السوفياتي، وإصلاحه دون تصفية الدعائم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للاشتراكية، يجب أن نسلك طريقنا الخاص، وهذا يعني أن علينا أن نحافظ على كل الأشياء التقدمية التي تحققت في أعوام السلطة السوفياتية مع مراعاة التقاليد والخصائص القومية.

وهذا يعني أن علينا أن نصلح الاشتراكية دون تصفية النظام السوفياتي ودون إحياء الرأسمالية. وينبثق هنا السؤال الطبيعي: ما دمت أدعو إلى الاشتراكية، ماذا تعني الاشتراكية؟ ثمة مفاهيم مختلفة في هذا الصدد، إنني أعتبر أن الاشتراكية هي نظام عادل اجتماعياً مركزه الإنسان ومصالحه وهمومه. إنها زيادة مستمرة للرخاء المادي والروحي ومشاركة الناس الفعلية في إدارة الإنتاج والمجتمع، ماهي الدعائم الاقتصادية والسياسية للاشتراكية؟ إنها الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج، لكن مع الجمع بين القطاع الحكومي وأشكال الملكية الجماعية، وإنني أسلم بوجود الملكية الخاصة والفردية في قطاع الخدمات، أما فيما يخص الدعائم السياسية فإنها النظام السوفياتي، نظام المجالس الديمقراطية الواسعة التي تمثل العمال والفلاحين.

■ **مارأيك بالملكية الخاصة للأرض؟ ونذكر القراء بأنك كنت في المكتب السياسي مسؤولاً عن مسائل الزراعة.**

هذه مسألة أساسية، إن موقفي هو التالي : يجب أن تكون الأرض في أيدي من يحرثها مع الحق في توارثها والتصرف الكامل بنتائج العمل، ولكن لاينبغي أن تصبح الأرض مادة للبيع والشراء، لأن القطع الصغيرة من الأراضي ستتحول عاجلاً أم آجلاً إلى أيدي حفنة من المالكين الكبار، إنني واثق من ذلك تماماً، ويؤكد التاريخ ذلك، وتجري هذه العمليات في كل مكان، بما في ذلك في الولايات المتحدة، ويريد يلتسين وحاشيته فعل كل شيء من أجل جعل الأرض مادة للبيع والشراء وبأسرع مايمكن، لماذا؟ لأنه تتقرر الآن مسألة أن تكون الاشتراكية أو لا تكون، لقد تسنى لهم زعزعة دعائمها، وبقيت الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج ومجالس السوفيات ويشنون الآن الهجوم على الملكية الاجتماعية والمجالس، إنمهم يريدون بيع الملكية الاجتماعية التي خلقها الشعب وتسليمها للأشخاص، أي حرمان الشعب من الثروة الرئيسية، وهذا جور، وإنني لعلى ثقة، لمعرفتي بنفسية الشعب، بأنه لن يعطي هذه الملكية ببساطة، ويخوض الناس الآن صراعاً حاداً مدافعين عن مؤسساتهم ومصانعهم وأراضيهم وسوفخوزاتهم . وسوف يحتدم الوضع في هذا المجال، ولاشيء يثير الاستغراب في ذلك، فالناس لهم الحق في الملكية التي خلقوها بأنفسهم، وهذا الحق مثبت في الدستور بالمناسبة، ويريد الديمقراطيون الإسراع في بيع الملكية ليس انطلاقاً من أن ذلك يرفع الإنتاجية، بل يهمهم تكوين قاعدة اجتماعية جديدة، فلديهم الآن فئة اجتماعية ضيقة يعتمدون عليها في إصلاح نظامنا، وبالأحرى في تحويله إلى طريق التطور الرأسمالي، ولهذا يحتاجون إلى ذلك المالك الخاص، وينطبق الشيء نفسه على الأرض، لخلق فئة كبيرة من المالكين وتطرح فكرة إجراء استفتاء، وإذا سُجل السؤال بالشكل التالي : هل توافق على أن تصبح الأرض مادة للبيع والشراء؟ فإنني واثق بأن الشعب سوق يقول: كلا، أما إذا احتالوا وطرحوا السؤال بالصيغة التالية : هل توافق على إتاحة الفرصة للجميع في امتلاك الأرض؟ فإن الناس سيوافقون. إنني أدعو إلى إعطاء الناس الأرض لبناء البيوت وإنشاء المزارع الشخصية وبناء الكراج . . . إلخ . أي للأغراض الشخصية.

■ وإذا حصل على الأرض شخص لايستعملها لهذا السبب أو ذاك لماذا لايستطيع بيعها لمن يحرثها أ- رها؟

الأرض يجب أن تستعمل وألا تؤخذ منه من قبل الدولة، هذا فقط.

■ أية مجموعات تؤيدك كمدافع عن الحزب الشيوعي السوفياتي؟

قبل فترة قصيرة أجرلى معي الصحافي المعروف أورماس أوت، حديثاً عرض في التلفزيون لمدة ساعة، وطرح على هذا السؤال، وأجبت أن أمثالي كثيرون. ولدي الكثير من الأنصار في العقيدة.

■ اذكر من فضلك بعضهم؟

أعتقد بأن هذا لاأهمية له . إنني أريد التحدث عن قاعدة أوسع . أنا أتلقى الأصداء عن قاعدة

أوسع. أنا أتلقى الأصداء على منشوراتي وتصريحاتي ومشاركتي في المظاهرات، وأرى أن هناك مجموعة كبيرة من الناس تفكر مثلما أفكر.

■ **من يمكن أن يترأس الحزب الشيوعي في رأيك؟**

إنني لاأريد ذكر أسماء بحكم الظروف، لكنني أرى أن هناك مجموعة كبيرة من الناس الذين ينمون بسرعة من الناحية السياسية.

■ **هل هم من النسق الثاني؟ ايفاتشنكو على سبيل المثال؟**

كلا، إنهم أناس جدد تماماً، من القدامى أستطيع أن أذكر، لكن هؤلاء أناس كانوا يحتلون مناصب معينة وكانوا يناضلون ضد غورباتشوف وسياسته المزدوجة، ويتحدثون بصراحة ونزاهة في اجتماعات اللجنة المركزية وفي الصحافة. وهناك مجموعة من الناس الذين يمكن أن يكونوا قادة جماعيين. ولا يمكن ذكر اسم قائد ما جديد فالقادة يبرزون من خلال أعمالهم. فمن كان يعرف قبل الحرب العالمية الثانية قائدنا غيورغي جوكوف؟ كان يعرفه العسكريون فقط ولكن ظهرت ظروف برز فيها جوكوف.

■ **إنك كنت الشخص الثاني في الحزب بعد غورباتشوف، إذا أمكن القول، فهل احتفظت بهذا الدور القيادي بعد انهيار الأمين العام غورباتشوف؟**

إن مهمتي هي مساعدة الناس الجدد بكل السبل، إنني أعرفهم وأخالطهم وأثق بهم، ولن نتكهن الآن.

■ **قرأت في إحدى الصحف أنه يوجد في حساب الحزب الشيوعي السوفياتي في الولايات المتحدة وحدها (١٠٠ ـ ١٢٠) مليار دولار؟**

كان يخصص لاحتياجات الحزب والمنظمات سنوياً حوالي ٢٠ مليون دولار.

■ **أنا لاأقصد مسألة مساعدة الأحزاب والمنظمات في البلدان الأخرى؟**

هذا كذب، لايوجد لدى الحزب في الخارج أية مليارات ولا أي ماس أو فضة أو ذهب.

■ **لا في عهد بريجينيف ولا في عهد غورباتشوف؟**

على أية حال في الفترة التي كنا فيها في قوام المكتب السياسي لم تكن هناك أية علائم على ذلك، فلا أحد يستطيع إيجاد هذه الأموال. ولا توجد إثباتات. إنهم يضللون الناس من أجل التشهير بالحزب وصرف الانتباه عن فشل سياستهم. إنهم بحاجة إلى بعبع، إلى صورة العدو. إنهم يحتاجون مجدداً إلى تأليب الشعب على الحزب.

■ **ألا يمكن أن يكون هناك شخص أو اثنان مارسا بهذا الشكل أو ذاك**

تحويل هذه الأموال؟

كلا، هذا مستحيل. ويختلف الأمر إذا وجدوا لدى أحد القادة حسابات أجنبية. لكنني لاأدري. وأستطيع القول عن نفسي أنه لاتوجد لدي أية حسابات ولا أية أموال غير منقولة.

■ لنتحدث الآن عن قضية تمويل الحزب الشيوعي السوفياتي للأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى.

كان يجري تقديم مساعدة معينة. وبدأ ذلك في مطلع الأربعينات في عهد ستالين وإننا لم نبحث هذه المسائل في المكتب السياسي إطلاقاً، لأن ذلك كان أمراً اعتيادياً، ويطبق منذ زمن.

■ هل هو تقليد؟

تقليد كان قائماً على أيديولوجية الأممية. والحزب يعتنق الأيديولوجية الماركسية اللينينية التي تعتبر الأممية والوطنية نواتها، وكان لدينا نظام راسخ وبوسعنا الافتخار، فقد ربينا على ذلك أنفسنا والشعب والحزب كله. وأكرر أن النظام الداخلي للحزب جاء فيه أن الحزب الشيوعي السوفياتي هو جزء من الحركة الشيوعية العالمية. ولهذا كان يقدم لها مساعدة معينة. وأعتقد أنه مرت فترة كانت فيها هذه الأحزاب الشيوعية تقدم مساعدة كبيرة لشعبها ولشعبنا، مناضلة من أجل السلام وضد الحرب والعدوان. وكانت هذه حركة المقاومة في أعوام الحرب، وحركة السلام بعد الحرب.. وإنني لاأجد شيئاً سيئاً في ذلك.

لكن الأمر يختلف عندما يزعمون الآن أن هذه الأموال ليست أموال الحزب، بل أموال الدولة. لقد كان لدينا من الأموال الحرة في الحزب حوالي ٤,٥ مليار روبل. وعلاوة على ذلك خصص الحزب في فترة ١٩٨٨ - ١٩٩٠ أكثر من ١,٥ مليار روبل لمساعدة المتضررين من حادثة محطة تشرنوبيل الكهروذرية والمحتاجين.

وهذه الأموال هي من اشتراكات الأعضاء الطوعية. وكان بوسعنا دائماً أن نحول هذه الأموال إلى عملة صعبة حسب السعر الرسمي. ولكنني لاأدري لماذا خصصت الأموال على حساب بنك الدولة وليس على حساب ميزانية الحزب.

■ وكيف كانت تجري مساعدة الأحزاب في البلدان العربية؟

إنني بصراحة لاأذكر حتى القائمة، ولربما كانت فيها بلدان عربية وبلدان أفريقية وغيرها. إنني لم أعمل في ذلك المجال. وقد أخطىء إذا قلت شيئاً ما. لقد كان الحزب يقدر المساعدة الأممية تقديراً عالياً. ولهذا عندما تطلب الأمر مساعدة المحتاجين خصص الحزب فوراً ٥٠٠ مليون روبل. وكانت الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى تستقبل رفاقنا على أساس التبادل. وإن كل مابناه الحزب بأمواله أعطي الآن للشعب. وكان حينذاك الكثير من المصحات والمكتبات والمساكن ودور النشر والمطابع. وفي عهد البيروسترويكا أعطينا الكثير جداً لاحتياجات الشعب.

■ **عندما كنت عضواً في المكتب السياسي تكون انطباع بأنكم تفضلون الأحزاب الشيوعية في إيطاليا وفرنسا وانكلترا. وبدا أن الأحزاب الشيوعية في العالم الثالث، بما في ذلك الأقطار العربية، كانت في المرتبة الثانية. وحينما استخدم صدام حسين السلاح الكيماوي لم يذكر أحد حتى ذلك ماعدا جريدة «برافدا». وكان الاتحاد السوفياتي يقيم العلاقات الجيدة مع الدول العظمى فقط. ولم يكن ذلك في عهد البيروسترويكا فحسب، بل قبل ذلك أيضاً. وكنا نشعر بذلك. وكان قادة الأحزاب الشيوعية يتحدثون عن ذلك. ماهو تفسيرك؟**

يصعب علي التحدث عن القيادة السابقة، ولكن لاأعتقد أنه كان هناك تفضيل حسب مكانة البلدان، وأريد أن أقول بكامل المسؤولية أنني أحترم كل الأحزاب الشيوعية احتراماً كبيراً. وعندما تسنى لي الالتقاء على الصعيد الدولي على أنني كنت أشرف على نشاط الحزب الداخلي، كنت أشترك بكل سرور في المحادثات مع ممثلي البلدان العربية. وليس فقط مع مندوبي الأحزاب الشيوعية، بل كذلك الأحزاب والحركات الديمقراطية والتقدمية الوطنية التي كانت تخوض النضال في ظروف صعبة من أجل مثلها. ولم أشعر إطلاقاً في قوام المكتب السياسي الذي عملت فيه بأي استخفاف بالأحزاب الصغيرة أو البلدان الصغيرة.

■ **هل كان لديك منفذ إلى أرشيف الحزب الشيوعي السوفياتي؟**

إنني لم أستخدمها عملياً، إلا حين الضرورة، أما حباً للاطلاع وإشباع الفضول فلم أستخدمها.

■ **ثمة شهادات تفيد أن خروتشوف لم يسمح للحزب الشيوعي العراقي بالاستيلاء على السلطة في عام ١٩٥٩.**

هذا أمر لاأعرفه. ولم أكن أتلقى من الأرشيف إلا مايهمني من أجل العمل، لاسيما وإنني لم أعمل في مجال القضايا الدولية.

■ **عندما نتحدث عن قضايا الحزب الداخلية يطرح الرأي بأن صاحب المقالة التي نشرتها نينا أندرييفا في عام ١٩٨٨ تحت عنوان «لاأستطيع التخلي عن المبادىء» هو ايغور ليغاتشيف.**

إنني أجبت بالتفصيل عن هذا السؤال في كتابي «لغز غورباتشوف» وكرست له نصف فصل. وباختصار: أولاً: لاعلاقة لي البتة بنشر المقالة. وحاول استغلال المقالة أناس من حاشية غورباتشوف، وهو كذلك، ولاسيما ألكساندر باكوفليف من أجل تكوين مجموعة جديدة معادية للحزب، وإيجاد عدو للبيروسترويكا داخل المكتب الرسياسي في شخص ليغاتشيف. ولهذا

وصفت المقالة بأنها منشور مناهض للبيروسترويكا، وبحثت في جلسة المكتب السياسي، بل في جلستين خلال ساعات عديدة، وإنني لا أذكر خلال وجودي في المكتب السياسي، إننا ناقشنا خلال مثل هذه المدة مقالات أخرى. وجرى ذلك من أجل إلصاق اسمي بالمقالة. لكن أعضاء المكتب السياسي فهموا هذه اللعبة، وفعلوا كل ما بوسعهم من أجل رفض تلك المحاولة، علماً أن اسمي لم يذكر، وبعد بضعة أيام من جلستي المكتب السياسي استدعاني غورباتشوف، ولم أكد أغلق الباب ورائي حتى قال غورباتشوف: «ياايغور، إنني قمت بتحقيق خاص واقتنعت بأنه لاعلاقة لك بذلك إطلاقاً». وفرحت بذلك لأن الحقيقة انتصرت أخيراً.

■ هل كنتما تتخاطبان بلغة المفرد؟ (أنت أم أنتم!!!؟).

كلا.. كنت دائماً أخاطبه بالاسم واسم الأب كما هو متبع عندنا، لكنه كان يخاطبني، بالاسم فقط (يخاطب المقال باسمه واسم أبيه للاحترام.. أما المخاطبة بالاسم فهي للأصدقاء أو التصغير).

■ هل هو أصغر منك سناً؟!

نعم.. ومع ذلك كنت أخاطبه كما هو متبع عندنا.. ولم أؤكد بتاتاً أي تقرب منه.

■ مارأيك الآن في مقالة نينا أندرييفا (المقالة نشرت في البرافدا في غياب غورباتشوف خارج الاتحاد السوفياتي، أحدثت ضجة في وقتها)؟

كان فيها الكثير من الأشياء العادلة، وبخاصة محاولات تزوير تاريخنا... ولربما كانت فيها أشياء غير مقبولة، لكن المقالة لم تكن منشوراً معادياً للبيروسترويكا، وبعد مناقشتها في المكتب السياسي بدأت الدسائس، وكيلت إليّ التهم في الصحف، ونشرت أقوال ياكوفليف في المكتب السياسي، وأيده بنشاط فاديم ميدفيديف.. ولم ينضم إليهما غورباتشوف، بل حافظ على مسافة معينة. ومع ذلك مايزال لدي انطباع ثقيل عن جلستي المكتب السياسي.

ونشرت «برافدا» مقالة افتتاحية، كلفوا بها ألكساندر ياكوفليف، إنها من إبداعه وإبداع مجموعته.

وبالمناسبة أرسلوا أشخاصهم إلى هيئة تحرير جريدة «روسيا السوفياتية» التي نشرت مقالة نينا أندرييفا وقاموا هناك بتحقيق، وسحبوا كل الرسائل الإيجابية التي وردت من القراء حول مقالة أندرييفا، وكانت نسبة ٨٠ في المائة منها تؤيد المقالة.

■ الشيوعيون؟

كلا. لقد سحبت الرسائل.

■ بالمناسبة إن موقف نينا أندرييفا منك جيد جداً.. وقد سألتها عنك، وقالت أنه لاعلاقة لك بالمقالة، وقد كتبتها هي.

أنا أعتقد أن في برنامجها موضوعات مر وقتها مثل ديكتاتورية البروليتاريا، وأعتبر أن لستالين أفضالاً كبيرة على الحزب والشعب والحركة الشيوعية العالمية وله أفضال أيضاً على العالم كله. فهو من عداد من أنقذوا البشرية من الفاشية والطاعون البني. هل تتصورون وضع العالم لو انتصرت الفاشية، لكنني لاأستطيع أن أغفر لستالين التنكيل الجماعي بالناس الشرفاء، وقد مس ذلك بالمناسبة أقاربي وهناك من أعدم منهم.

■ لكن التبعة تلقى على بيريا؟

لايجوز اتهام بيريا فقط، إذ تمت تصفية حتى أقرب أعوان ستالين. إن ذلك من عمل ستالين الذي خالطهم كل يوم، ولربما عدة مرات في اليوم. لقد صفي جزء كبير من الشخصيات المرموقة. ولا يمكن تبرئة ستالين . ولن يتسنى ذلك أبداً. (كان بيريا مسؤول الأمن في عهد ستالين).

■ أود أن أطرح سؤالاً محرجاً، ألا يخيل لك أن الصهيونية تلعب دوراً كبيراً في روسيا، وفي هذه الحكومات بالذات؟

كان لدي أصدقاء يهود وما يزالون، ولم أكن أهتم في حياتي إطلاقاً بقومية الإنسان، ما عدا حالات توزيع الكوادر في جمهورية قومية ما، إذ كان ينبغي تمثيل مختلف القوميات.

■ من أين يأتي الخطر الآن، هل من الصهيونية أم الشوفينية مثلاً؟

أعتقد بأن هناك خطراً كبيراً من جانب أعداء الشيوعية والانفصاليين القوميين. فهذه هي القوة الأساسية التي هدمت البلاد. وجلبت للناس العذاب، إنها تخنق الديمقراطية. وكانت مصيبة قيادتنا، علماً أن موقفي كان مغايراً، في أننا لم نقدر في البداية حق التقدير هذا الخطر. وكنا نعتبر أن الخطر الرئيسي هو النزعة المحافظة، فالمحافظون هم أعداء البيروسترويكا والديمقراطية وإصلاح المجتمع. ولكن خطر عداء الشيوعية والانفصالية القومية كان يتزايد.

■ إذا حظروا نشاط الحزب هل أنت مستعد للنضال في الظروف السرية؟ وليس أنت فقط، بل كذلك الشيوعيون الآخرون؟

كل شيء يتوقف على السياسة، فإذا طبقت سياسة نهب الشعب، فإن الشعب سيكافح هذه السياسة حتى النهاية. أما إذا عدلت السياسة ولوحظ تحسن في حياة الشعب فإن الشعب سيؤيد الحكومة. لكن سياسة الحكومة الآن تقود إلى إفلاس الشعب وتدني مستويي حياته. ويتوقف شكل النضال على السياسة.

■ هل كانت لدى غورباتشوف نجاحات في السياسة الدولية؟ إنهم يكتبون عن ذلك في كل أنحاء العالم، ولاسيما في أمريكا؟

لماذا يكتبون في الغرب؟ لأن ذلك يتفق مع خطط ونوايا الغرب، إنني على ثقة بأن الغرب لايحتاج إلى وجود روسيا العظمى.

وتبتهج قوى كثيرة في الغرب بانهيار الاتحاد السوفياتي، بالرغم من أنني التقيت الكثير من الناس من ذوي التفكير السليم في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الغربية والذين يدركون أن ذلك يمس مصائر العالم بأسره، والكرة الأرضية كلها.

وينطوي ذلك على شتى العواقب.. فثمة أكوام من السلاح وعدد كبير من النزاعات والصدامات العسكرية التي تتجاوز إطار أراضي الاتحاد السوفياتي وروسيا.

■ وهل تواصل الحكومة الحالية نهج غورباتشوف وشيفاردنادزه؟

يقولون أن غورباتشوف مصلح عظيم، لكن كيف يمكن تقدير القائد العظيم والسياسي العظيم دون النظر إلى نتائج سياسته الداخلية، إن هذه النتائج تخيب الآمال، فالحياة لاتتحسن بل تتردى.

■ ألا يخيل لك أنكم بدأتم لا من إصلاح الحزب بل من إصلاح المجتمع؟

ليس صحيحاً أننا لم نصلح الحزب، إنني أعارض كل إصلاح سريع، ها هم يطبقون العلاج بالصدمة في الاقتصاد، وقد طالبوا بذلك في مايخص الحزب.. وما دام هذا إصلاحاً وليس ثورة ينبغي فعل كل شيء بالتدريج، وباستقامة ودون انحراف. إن الإصلاحية هي عقيدة وممارسة لطائفة من التدابير بشأن التغيير وتحسين النظام، ولكن دون تبديل دعائمه، والإصلاحية تستثني تبديل الركائز الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. أما الراديكالية والثورة فتدعو إلى تبديل كل شيء، ولهذا أعتبر نفسي مصلحاً وواقعياً، أما هم فليسوا إصلاحيين، إنهم يبدلون كل النظام.

■ هل تلحق ضرراً بمصالح روسيا السياسية الدولية للحكومة الحالية؟

لايجوز التحدث بالعموميات، ثمة أشياء تثير الحذر.. أولاً، السياسة الحالية بشأن حماية السكان الروس في الجمهوريات الأخرى، فثمة ٢٥ مليون روسي خارج روسيا، ومن الطبيعي إن مهمة كل حكومة هي حماية هؤلاء الناس.. لكن الدماء تراق في بريدنيستروفيا ويجري قتل وجرح ألوف الناس، ولا تتخذ عملياً أية إجراءات. ينبغي اتخاذ مواقف أدق في هذا الصدد. ولا يجوز التلويح بالسلاح، ولدينا إمكانية للتأثير السياسي والاقتصادي والدفاع عن أبناء وطننا. انظروا إلى أفعال الأميركيين إذا انتقص من مصالح مواطنيهم في مكان ما.. إنهم يتخذون كل الإجراءات وينبغي أن نتصرف بمثل هذه الطريقة والإصرار... وهذا واجب كل دولة.

■ ماهي أقرب مجموعة إلى أيديولوجيتك؟

لاأعتقد أن هناك مجموعة أو حزباً، إنها منتشرة في المناطق والجمهوريات والدول. وترى أنني أدافع عن مصالح الكادحين في كل أفعالي وتصريحاتي وخطبي. وترى أنني لاأبدل نهجي السياسي تبعاً لمهب الرياح. ولكنني لاأستطيع القول أنني لاأبدل وجهات نظري. فهذا ليس صحيحاً، لكنني لاأبدل المبادىء، وكنت في حينه أدعو إلى سحب القوات من أفغانستان، وإلى تطبيق تعددية الأحزاب.. ولكن عندما يبدلون المبادىء ويقولون إن هذا تطور للعقيدة وحركة الفكر أقول أن هذا مجرد خيانة.

■ **يعتقد الكثيرون أن الحكومة الحالية والرئيس سيبعدان عن السلطة قريباً، وصرح بذل مثلاً سيرغي شاخراي أقرب أعوان يلتسين، أما بطريقة دستورية، أو عن طريق انقلاب؟**

في ما يخص الانقلاب، فإن يلتسين حقق انقلاباً.. وهدم الدولة، وقد قال نزار بايف أخيراً أنه لولا روسيا لما كانت وثائق بيلوفيجسك، أي أنه بين دور يلتسين في انهيار الاتحاد السوفياتي، بالمناسبة رفض نزار بايف الذهاب إلى بيلوفيجسك، وقد دعوه، لكنه لم يرغب في الاشتراك، وتحدث عن ذلك في أحد أحاديثه الصحافية وفي كتابه.

■ **وما هو دور كرافتشوك في انهيار الاتحاد السوفياتي؟**

إن دوره كبير بمقدار دور أوكرانيا وبيلوروسيا، ويتحدد الدور لابالشخصية بقدر ما يتحد بالدولة. ولهذا لاأعطي تنبؤاتي بزمن زوال هذه الحكومة. وأكرر أنه إذا استمرت هذه السياسة فإن الحكومة ستسقط حتماً.

■ **وإذا نجحت الإصلاحات؟**

من المستبعد في ظل هذه الحكومة، لأنها تتوخى أهدافاً أخرى، هي بناء مجتمع من نموذج آخر وطابع آخر.. إن السنوات السبعين ليست سدى، وسينعكس ذلك عندما يحولون الملكية الاجتماعية إلى أيدي الأفراد، وسيقول الشعب حينذاك كلمته. إن روح الجماعية قوية لدى الشعب. أما الملكية الخاصة فكانت تفرق الناس دائماً. ولهذا السبب مثلاً لاينجح تحويل المساكن إلى ملكية خاصة. وأنا واثق بأن الفلاحين أيضاً لن يعطوا الأرض للمالكين الفرديين.. إن ساستنا يخطئون، إن الناس عندنا تربوا بروح الأيديولوجية الجماعية، وبالمناسبة لاتتوفر أية ظروف لإنشاء المزارع الخاصة. ولا توجد معدات تكنيكية.

■ **وفي الدولة السوفياتية لم تكن كل الأمور على مايرام، كان هناك نقص في اللحم، وكانت الحبوب تشترى من كندا وأميركا.**

أولاً، كان يجري باستمرار نمو الإنتاج الزراعي، وخصوصاً في السنوات العشر الأخيرة، ولا يجوز نسيان الأخطاء الكثيرة عند إنشاء المزارع التعاونية والجماعية. وحاولوا حينذاك تصفية المزارع

الشخصية. ولكن إدراك أية ظاهرة وتقييمها يتطلب فهم الظروف التي طبقت فيها السياسة. لم تكن لدينا سابقاً صناعة سيارات وقطاعات كهربائية وماكنات. ولكننا صنعنا ذلك، من قدم لنا القروض؟ لاأحد.

■ والآن لايقدمون؟

والآن أيضاً، إنني كنت في أميركا، إنها «بلد دسم» والشعب الأميركي طبعاً موهوب، ويستخدمون هناك الإنجازات العلمية جيداً. وكانت عشرات البلدان الأوروبية الراقية وأميركا تعيش على حساب المستعمرات فترة طويلة. وهي تستغل الآن العالم الثالث الذي تتوفر فيه الأيدي العاملة الرخيصة والخامات الرخيصة.. ويقول العلماء أنه إذا حرمت البلدان الرأسمالية المتطورة من كل الموارد المادية التي تحصل عليها من بلدان العالم الثالث، فإنها ستهلك في اليوم التالي، وتنهار كل حصون الرأسمالية. أما نحن فلم نستغل أحداً.

■ لقد أصبحت مسألة الإدمان على الكحول في روسيا وباء ومرضاً عضالاً يهدد النسل والمجتمع، ناهيك عن تهديده الكبير للاقتصاد؟ فالسكر يجري حتى في ساعات العمل، غير أن في حملة مكافحة السكر جرت أخطاء جسيمة، أدت إلى نتائج عكسية، وأكثر خطراً، سؤالي هو: يقال أنك كنت المبادر إلى حملة مكافحة السكر في البلاد بعد تولي غورباتشوف للسلطة، ويأتي ذلك لإلقاء اللوم عليك بالذات من قبل معارضيك؟

لم أكن مبادراً على الأقل لأنني لم أكن في ذلك الحين عضواً في المكتب السياسي، فقد كانت اللجنة تتألف عادة من أعضاء المكتب السياسي. لقد أصبحت عضواً في المكتب السياسي في أبريل (نيسان) عام ١٩٨٥، وصدر قرار مكافحة السكر في ١٥ مايو (أيار). والمعروف أن مثل هذه القرارات يجري إعدادها خلال شهور وحتى سنوات. لقد جرى الإعداد لها في عهد اندروبوف في عام ١٩٨٣. أما الحملة فبدأت عام ١٩٨٥، وترأس اللجنة ميخائيل سولومنتيتسيف الذي كان عضواً في المكتب السياسي. لكنني لاأريد التنصل، فقد طبقت تلك السياسة بنشاط كبير، كيف بدأ ذلك؟ لقد أغرق الناس اللجنة المركزية للحزب والحكومة ووسائل الإعلام بالبرقيات والرسائل حول ضرورة المكافحة الحازمة لإدمان المشروبات الكحولية. وتألفت لجنة لإعداد المواد والوثائق للمناقشة. ونوقشت الرسائل في البداية في فرق العاملين وجرى تأييدها. وبعد مرور سنتين تقريباً حدثت تطورات جدية.

■ ثمة رأي بهذا الصدد يقول أن معطيات الاستخبارات بينت أن إدمان الكحول إذا استمر في الاتحاد السوفياتي على هذه الوتيرة، فلن تحتاج الدول الغربية إلى أي سلاح نووي لقهر الاتحاد السوفياتي بعد ١٥ سنة.

لقد توصل إلى هذا الاستنتاج علماؤنا، فكل فرد نصيبه ١٠ ليترات من الكحول الصافي في

السنة وإذا استثنينا الأطفال حتى سن الخامسة عشرة، فإن هذه الحصة تؤلف ٢٠ لتراً، وهذا رقم فظيع، وبعد سنتين من حملة المكافحة لوحظ تحسن كبير، وانخفض استهلاك الكحول مرتين.

■ الاستهلاك أم الشراء؟

الاستهلاك، وعالجنا القضية بمختلف الأساليب والوسائل وتقلص الاستهلاك إلى ٥ لترات ثم إلى ٤,٥ لتر، وخيل لنا أننا إذا سرعنا العملية فمن الممكن على العموم تعديل الوضع، لكننا نسينا أن هذه العادة تأصلت على مدى القرون ويستحيل استئصالها خلال بضع سنوات. وينبغي أن أعترف بذنبي أيضاً، فقد استبقنا الأحداث، وأعلنا «مناطق الصحو» ورفعنا شعارات منع تعاطي المشروبات الكحولية، ثم ظهر أناس حاولوا من جديد التعويض عن سوء تدبيرهم الاقتصادي بواسطة بيع المشروبات الكحولية بلا حدود. ففي السابق كان الكثير من العجز في الميزانية يغطى من خلال بيع النفط والكمية الضخمة من المشروبات الكحولية. فمثلاً بيع في عام ١٩٦٥ من المشروبات الكحولية مايعادل قيمته ١٢ مليار روبل. بينما بيع في عام ١٩٨٤ أي عشية حملة المكافحة ماقيمته ٥٣ ملياراً بالأسعار المقارنة. أي ازداد البيع أكثر من أربع مرات خلال ٢٠ سنة. وعندما بدأت المصاعب الاقتصادية الكبيرة صدرت مراسيم يلتسين التي أزالت كل العقبات أمام إنتاج وبيع المشروبات الكحولية. وبوسع أية منظمة ممارسة إنتاجها وبيعها. واعتقد انها حملة جديدة حملة «تسكير الشعب». . بالمناسبة لاأعرف بلداً اتخذت فيه مثل هذه القرارات. فإن قسماً من إنتاج المشروبات الكحولية هو دائماً من احتكار الدولة. ما الهدف من هذه القرارات؟ أعتقد بأن هدفها هو تخدير الناس وصرف انتباه الشعب عن المشاكل وعن فشل سياسة يلتسين التي تحمل المآسي والآلام للشعب. . وإذا أضفنا إلى ذلك المراسيم حول «حرية» التجارة التي حولت عاصمتنا ولينغراد والمدن الأخرى إلى مزابل كبيرة، فإن كل ذلك موجه نحو إفساد الشعب عموماً والشباب خاصة، بغية تنفيذ الإصلاحات التي تغير أساس النظام القائم. ولربما يطابق ذلك أهواء قادتنا في هذه المسألة.

أستطيع القول أنه خلال سنتين أو ثلاث من تطبيق الحملة تقلص عدد الجرائم بنسبة الثلث وعدد الإصابات في العمل بنسبة الربع، وازداد لأول مرة خلال عشرات السنين متوسط العمر بمقدار سنة ونصف السنة. وازداد عدد المواليد بمقدار ٥٠٠ ألف كل سنة. وقد انخفضت نسبة المواليد بحدة عندما ضعفت الحملة في عام ١٩٨٩ و ١٩٩٠. . وأصبحت الآن نسبة الوفيات أكثر من نسبة الولادات في عدد من القطاعات. وتحتل بلادنا المرتبة الخمسين أو الستين من حيث متوسط عمر السكان. وكان من الضروري تعديل الحملة. لكنهم أفشلوها، ولكنني واثق من حلول فترة تتحتم فيها معالجة هذه القضية ولكن بخسائر كبيرة.

باختصار
عن «صوت الكويت»
٣ أعداد في آب

«قراءة تحليلية
في محضر اجتماع طارق عزيز
مع جيمس بيكر في جنيف»*

هوشنك الوزيري

قبل البدء . . .

ما يهمنا في هذه المقالة ليس ما يفكر فيه طارق عزيز أو ما يقوله في اجتماع جنيف مع جيمس بيكر (٩/ ١/ ٩١) ، فهو يقول الكثير ويتصدى لمسائل متعددة . والشيء الوحيد الذي يفكر فيه ومقتنع به هو (النصر) للقيادة العراقية ، وانما ما نركز عليه هو: كيف؟ وبأية طريقة كان يفكر؟ انها محاولة لاستنباط آليات تفكير صدام والقيادة العراقية من خلال اقوال وتفكير طارق الذي يمثلهما في هذا الاجتماع ، ومحاولة الامساك بالآليات التي خلقت التعنت والقناعة الفارغة التي تميزت بهما القيادة العراقية طوال فترة ما قبل المواجهة . وهي المسؤولة الوحيدة عن الكوارث البشرية / الاقتصادية المرعبة التي لحقت بالعراق وشعبه من جراء «حرب كان تجنبها ممكناً»[1] كما يقول يفغيني بريماكوف .

* * *

* بالرغم من عدم معرفتنا بدقة نص محضر الاجتماع الذي تم نشره في الصحف العراقية «الجمهورية ، العراق ، القادسية» بتاريخ ٩/ ١ و١٠/ ١/ ٩٢ ، فانه مع ذلك النص الوحيد الذي اعتمدناه في هذه الدراسة وذلك بسبب عدم عثورنا على أي نص آخر للمحضر . وان اقوال طارق وبيكر التي توجد ضمن قوسين (. . .) قد اقتبست من الصحف الثلاث المذكورة اعلاه .

(١) عنوان كتاب يفغيني بريماكوف الذي كان ممثلاً شخصياً للرئيس غورباتشوف خلال الجهود الدبلوماسية المضنية التي بذلها من اجل اقناع صدام بتفادي الحرب / المأساة/ والعثور على حل دبلوماسي . (كومبيوتشر) للدراسات والاعلام والنشر والتوزيع /بيروت/ الطبعة الاولى ١٩٩١ .

انظار العالم اجمع كانت متجهة نحو جنيف، هناك حيث اللقاء الهام بين الوفد العراقي (طارق عزيز) والوفد الامريكي (جيمس بيكر) ضمن سياق الجهود الدبلوماسية المكثفة للعثور على حل سلمي لازمة الخليج ولاقناع العراق بالانسحاب وانهاء غزوه. واكتسب هذا الاجتماع اهمية كبيرة لعدة اسباب نذكر منها:

١ ـ انه اللقاء الاول والمباشر بين امريكا والعراق (وهما الطرفان الرئيسيان في النزاع).

٢ ـ زمن اللقاء (٩١/١/٩) أي قبل ستة ايام من انتهاء مهلة الانذار الاخير باستخدام القوة العسكرية الموجه من قبل مجلس الامن الى العراق. وكان الانذار ينتهي في ٩١/١/١٥.

٣ ـ كان ذلك الجهد الاخير من سلسلة طويلة من الجهود والمساعي الاقليمية والعربية والدولية التي لم يبال صدام بأي منها. لهذا اعتبر هذا الجهد الفرصة الذهبية الاخيرة للقيادة العراقية كي تجنب المنطقة ويلات حرب يمكن ان يذهب ضحيتها الرئيسية الشعب العراقي واقتصاده.

وكانت تبرز التساؤلات:

ماذا ستفعل القيادة العراقية تجاه الفرصة الاخيرة هذه؟ كيف تستغلها من اجل السلام؟ والسؤال الاهم ما الذي تحويه حقيبة طارق الدبلوماسية لابعاد شبح الحرب / الكارثة؟ كل هذه الاسئلة كانت مطروحة من قبل المراقبين والمحللين السياسيين ومن قبل العالم، واخيراً من قبل الشعب العراقي المغلوب على امره. لكن الجواب كان: لا جديد سوى ما قاله رئيسه منذ اللحظة الاولى لغزوه الكويت وردده كافة مسؤولي الحكومة، ثم جاء دور طارق كي يردد ـ كالببغاء ـ امام الوفد الامريكي ما قاله صدام. ان تفسير ابعاد هذا التعنت هو سطوة (الماضي المجيد!) غير البعيد على ذهنية القيادة العراقية. فحين اتجه طارق عزيز الى جنيف كان يحاول جاهداً استرجاع امجاد العراق العسكرية في حربه مع جارته ايران، واحتلال الجيش لعدة مدن ايرانية. واستعادة الفاو بسرعة قياسية وأمجاد اخرى!! أي كل ما كان متمثلاً وحاضراً في ذهنية طارق هو الماضي، «الانتصار الساحق على ايران»!! ثم محاولة نقل الاستراتيجية العسكرية في حرب الخليج الاولى، نقلها واستخدامها في المواجهة العسكرية المقبلة. كان يفكر بكيفية اسكان هذا الماضي غير البعيد في زوايا المستقبل المجهولة على طريقة «قياس الغائب على الشاهد» أو «ما تم في الماضي يمكن تحقيقه في المستقبل»[2] وذلك ليس على صعيد النصر فحسب بل على

(٢) الدكتور محمد عابد الجابري، (خطاب العربي المعاصر)، دار الطليعة /بيروت/ الطبعة الثانية /١٩٨٥/ ص ٢٢.

صعيد البطولة وطول المواجهة ايضاً. لا بد من القول بان بيكر كان يتجه بكلامه نحو المستقبل وطارق ينحدر نحو الماضي دائماً.

يطرح بيكر في بداية الاجتماع السؤال المستقبلي الاساسي «بأية طريقة تغادرون الكويت سلمياً أو هل تجبرون على ذلك؟» من البداهة القول بان الاجابة القاطعة على هذا التساؤل، تستطيع ان تحدد الملامح المستقبلية للمنطقة بأسرها. ويوضح بيكر المسألة المتعلقة باستخدام القوة العسكرية وآثارها «نحاول ان نوصل لكم بامانة باننا نؤمن ان العواقب ستكون مدمرة للعراق لو استخدمت القوة العسكرية» ويستمر بيكر في محاولاته لتوضيح الصورة التي ستكون عليها الحرب في حالة اذا ما نشبت «ان لدينا تفوقاً تكنولوجياً فائقاً، وتفوقاً كاملاً من حيث الثقل الكلي للقوات الموجودة... لو حدث الصراع فان قواتكم ستواجه قوات تتمتع بقدرة تدميرية ساحقة».

ولا يكتفي بيكر في بداية حديثه بهذا القدر من الوصف والمعطيات، بل يمضي قدماً في رسم الخطوط المأساوية للصورة التي ستكون عليها الحرب المقبلة وعراق المستقبل، ويقول بلهجة تطغي عليها نغمة الانذار والتهديد، محاولاً تنبيه طارق الى الحقيقة القاسية «اخيراً. فان الحرب ستدمر كل شيء كافحتم من اجل بنائه في العراق وسوف تحول العراق الى دولة ضعيفة ومتخلفة». اذن يشير الى انهيار العراق بكل نواحيه - الاقتصادية / العلمية / الاجتماعية... وسيُقتل الكثير من الناس الابرياء في هذه المهزلة الشنيعة وستحطم كل انجازات الفرد العراقي وكل ما بناه المجتمع. هذه هي الحقائق ذات الابعاد المأساوية وآخر جملة يقولها بيكر في المقطع الاول من حديثه: «ان هذه افضل فرصة من اجل السلام». والآن نأتي الى طارق عزيز لنرى ماذا يفعل من اجل اغتنام (افضل فرصة) اتيحت لتجنيب الشعب العراقي كوارث حرب لم يكن يفقهها، لم يكن يريدها بأي شكل من الاشكال.. ويلات حرب كان الشعب العراقي متأكداً من عدم جدوى خوضها بل وهزيمته فيها..

وكما اشرت سابقاً فان سطوة الماضي كانت تحتل كل ذهنية طارق، واستمر في ابعاد المستقبل عن عقله ولهذا لم يستطع حتى ان يُتعب مخيلته كي يرى الدمار الهائل الذي سيلحق بالعراق، لم يجهد نفسه في ان يتصور حرباً سيخوضها العراق مع حوالي ٣٠ دولة (بينها دول كبرى وعظمى) بل تراجع نحو الماضي واسترجع شريط الانتصارات. امام كل هذه الحقائق يبدأ طارق عزيز رده على بيكر بوصف القيادة العراقية بانها قيادة حكيمة وانه هو ورئيسه قد بلغا سن النضج ومن المستحيل ان يخطئا «نحن نقود بلادنا منذ (٢٢) عاماً. انا عمري (٥٥) عاماً ورئيسي عمره (٥٤) عاماً واعتقد انك تتفق معي بان هذا السن هو سن النضوج والحكماء يقولون ان الحكمة تبدأ بعد الاربعين».

هذا هو كل ما يستطيع طارق ان يفكر فيه ويقوله عن قيادة اقحمت شعبها في حربين ضروسين، بل حاولت ابادته بالاسلحة الكيمياوية والليزرية.. وسرعان ما يعود طارق ليوضح بان القيادة العراقية عليمة بكل هذه الامور التي ذكرها بيكر ومع ذلك اتخذت هذا الموقف «أؤكد لك اننا نعرف بالضبط ماذا لديكم هناك ونعرف القوة والكفاءة التدميرية لكل سلاح امريكي في المنطقة». ثم يتجه طارق نحو صلب المسألة «الحرب» ولكن المشكلة هي ليس عن الحرب التي ستحدث قريباً في المستقبل.. بل الحرب التي حدثت في الماضي «نحن نعرف تكاليف الحرب نحن كنا في حرب مع ايران صحيح ان ايران ليست الولايات المتحدة ولكن هناك صفحات في الحرب مع ايران كانت صعبة جداً جداً». ومن هنا يبدأ بالتخبط في بركة الماضي القذرة والغوص فيها «نحن خرجنا من الحرب منتصرون.. انهينا الحرب بعمل منتصر وقمنا بانجاز مهم».

بهذه الطريقة يفكر، ان الدلالات المضمرة في هذا القول هي اننا انتصرنا في الماضي في حرب صعبة مع دولة كانت اكثر غنى من العراق واكثر سكاناً وتمتلك جيشاً كبيراً واسلحة كثيرة ولديها موارد نفطية هائلة وبالرغم من كل هذا (خرجنا من الحرب منتصرين)!! انها حقاً محاولة جعل المستقبل مثل الماضي: ما حدث في الماضي سيحدث في المستقبل حتماً!

بعد هذا يأتي طارق على وصف الشعب العراقي والحرب، وكأنهما عنصران متلازمان والعلاقة بينهما حميمية «انا لدي ابني الاصغر عمره (١١) عاماً كل تجربته في الحياة هي الحرب اذن الحرب ليست امراً غريباً بالنسبة لنا» انه يتكلم عن الشعب وكأنه راغب في دخول هذه المهزلة المخيفة بالرغم من قوله «الحرب مكروهة». سوف يذود عن القيادة وعن صدام المطلق: «شعبنا يقف الى جانبنا وهو مقتنع بموقفنا»! ويستمر طارق في الكذب «الشعب لا يؤيدنا فقط وإنما يحبنا هذه هي الحقيقة»! . بعد كل هذا الهراء، يطرح طارق السؤال الاساسي المتعلق بنهاية المواجهة «كيف ستنتهي المواجهة بيننا وبينكم؟».
لنتوقف هنا قليلاً، لو نعود قليلاً الى البداية سنرى ان بيكر ايضاً طرح تساؤلاً اساسياً «التساؤل الوحيد هو بأية طريقة تغادرون الكويت». ان هذا السؤال يحمل معه امكانية عدم نشوب الحرب ويرتبط بفترة ما قبل المواجهة. في حين ان سؤال طارق لا يحمل معه أي امل بعدم اشتعالها بل لا بد ان تحدث، لان السؤال يبدأ من نهاية المواجهة، ولكن كيف ستنتهي؟ ضمن سياق استخدام منهج «قياس الغائب على الشاهد» فان الاجابة جاهزة في تفكير طارق اللاعقلاني، انها لا تنبثق من التحليل العلمي أو الدراسة في ضوء المعطيات الجديدة على صعيد الساحتين السياسية والعسكرية، ولا من رؤية المستقبل والتحشدات العسكرية الهائلة في المنطقة، بل الاجابة ناتجة عن «نظرية القياس» وحدها.. قياس

المستقبل على الماضي، قياس حرب الخليج الثانية على حرب الخليج الاولى والاجابة هي محاولة قسرية لاحلال نموذج «انتصار» الماضي محل النموذج المجهول للمستقبل. .
ولنستمع الى طارق وهو يجيب على التساؤل الذي طرحه «اقول لك بصدق وبدون ادعاء بان (١٩) مليون عراقي ومنهم القيادة العراقية مقتنعون انه اذا ما نشبت الحرب بيننا وبينكم فاننا نحن الذين سننتصر. . هذه هي قناعتنا»!!!!

هذه هي القناعة المسبقة، الآتية من اطار الماضي، التي لا تخضع لاية عملية جدال وبالتالي غير قابلة للتهشيم أو التشكيك بمدى مصداقيتها. ومع ان هذه القناعة هي نفسها التي ادت الى الخراب والمآسي، فان طارق لم يتصدَ ولو من بعيد الى الاسس التي بنى عليها هذه القناعة وهذا التنبؤ. ومن هنا الثغرة في الوعي واللاعقلانية في التفكير وتقدير الامور.

ان الوهم هو البعد الاساسي في تكوين هذه القناعة، حين يجيب طارق باطلاقية النصر للقيادة العراقية «نحن سننتصر». لم يحذر نفسه من هول خطر السكوت عن حقائق كثيرة واول هذه الحقائق الجلية، الاختلاف الجوهري بين مكونات دوافع الصراع الدموي المقبل وبين دوافع ومحركات الصراع الماضي، وان التأييد شبه العالمي الذي كانت تحظى به القيادة العراقية اثناء حربها مع ايران اذ كانت هناك دولاً عديدة مثل، المانيا، بريطانيا، الاتحاد السوفييتي، امريكا، فرنسا ودول الخليج جميعها. . الخ تساند العراق وتزودها بالمال الوفير وبكل انواع الاسلحة (منها الكيمياوية ومعدات لصنع القنبلة النووية). ان هذا التأييد انقلب الى التنديد والاستنكار من قبل العالم. وهذه الدول هي نفسها التي تقف الآن في الخطوط الامامية للمواجهة. ثم ان بضعة من الشوفينيين القوميين والذين خدعتهم الهوية الزائفة[3] التي رفعها صدام آنذاك ـ حماية البوابة الشرقية / محاربة الاطماع التوسعية للفرس المجوس. . الخ من الشعارات الكاذبة ـ والذين جعلوا من صدام حامي شرف العروبة ورافع رايتها والشخص الوحيد الذي في وسعه ان يستعيد أمجاد العروبة الغابرة، بل اوصلوا صدام الى حافة «المارد» العربي و«المنقذ الكلي» نذكر هنا جهاز الاعلام الخليجي وعلى وجه الخصوص الاعلام الكويتي والمصري ـ ان هؤلاء ايضاً انقلبوا ضده ونددوا بفعلته (الغزو). والحقيقة الاخرى والتي قمعت ايضاً بالرغم من اشارة

(٣) لازال هناك من الاسلاميين والقوميين من خدعتهم الهوية الزائفة التي رفعها صدام في حرب الخليج الثانية (الجهاد، محاربة الكفار، نفط العرب للعرب، اعادة توزيع الثروة العربية) وهو نفسه الذي ضرب الثورة الاسلامية الايرانية، وحول نفط العراق وكل ثرواته الاخرى الى آلة عسكرية جهنمية رهيبة ليضرب بها الشعب العراقي وجيرانه.

بيكر اليها «نحن من سيحدد شروط أي صراع وليس انتم».
هذه هي الحقائق التي لم تسمح لها القيادة العراقية بان تطفو الى سطح الشعور بل قمعتها وهي مقبلة على اقحام شعبها في حرب ضروس لم يشهد مثلها طوال تاريخه. العزلة التامة، تنديد المجتمع الدولي واصراره على انهاء العدوان الصدامي، التحشدات العسكرية الهائلة، هذه هي اهم السمات الرئيسية لتلك الفترة ومع ذلك كانت القيادة العراقية لديها «القناعة التامة» بالنصر الساحق!

ربما يدرك جيمس بيكر كيفية تفكير طارق عزيز ويمسك بآليته المريضة حين يقول له «اعرف انه نتيجة خبرتكم في الحرب مع ايران تعرفون التكلفة في الحرب... ولكني ارجوك ألا تجعلوا قادتكم العسكريين يقنعونكم بان الاستراتيجية التي استخدمت ضد ايران ستنجح هنا.. انكم في الحقيقة ستواجهون قوة مختلفة تماماً.. نحن من سيحدد شروط أي صراع». انها محاولة لاقناع طارق بالتخلي عن هذه الطريقة في التفكير واخراجه من بركة الماضي التي ما انفك يتخبط فيها. ويحاول بيكر ايضاً ان يُري طارق المستقبل القريب وينبهه الى ان المجتمع الدولي جاد في تاريخ انتهاء مدة الانذار، التي تنتهي بعد ستة ايام فقط «ان منتصف ليلة ١٥ / ١ / ٩١ هو تاريخ حقيقي جداً» بالرغم من انه ليس المرة الاولى التي ينبهه الى خطر هذا التاريخ وجديته.

ماذا يفعل طارق تجاه حقيقة، المستقبل القريب، ١٥ / ١ / ٩١؟ وكيف يستقبل هذا التنبيه المبطن بالتحذير؟ لا شيء.. أنه يرفض ان يمد بصره قليلاً ويرى المستقبل مادام الماضي بكل حقائقه واضحاً جلياً امام عينيه!! ان آليات تفكيره لا تستوعب مثل هذه الاقوال التي تجعل من المستقبل المجهول، ملموساً ومعلوماً، لديه قناعة راسخة وايمان عميق بالجيش الذي انتصر في الماضي «ان العسكريين في بلادنا رجال شجعان.. ولهم خبرة طويلة في الحرب» ومع هذا يعترف بالفوارق: «اعرف ان المواجهة بيننا وبين ايران تختلف عن المواجهة التي تنوون القيام بها» ولكنه يعترف ايضاً بالصعوبة الهائلة التي عاناها الجيش في حربه مع ايران «قام الايرانيون بهجوم على البصرة بـ(٤٠٠) ألف شخص.. كنا نقاتل اربعاً وعشرين ساعة وكنا نقتل منهم الآلاف والآلاف كل يوم» كانت حرباً صعبة من كل النواحي «كانت حرباً صعبة جداً جداً بكل ما تعنيه هذه الكلمة بجوانبها العسكرية والسياسية والنفسية». انها صعوبات مثل وربما اشد واخطر من صعوبات المواجهة المقبلة. ومتجاهلاً كل الحقائق يستمر طارق في التخبط في نعيمه، امجاد النصر الغابرة: «ومع ذلك تحملناها وخرجنا منها منتصرين».. هذا هو النصر الخارق الذي في وسعه القفز من زمن الى آخر دون ادنى مبالاة بالمعايير والموازين، وهو النهاية الطبيعية لاية مواجهة مهما تكن صعوبتها وخطورتها!!

ثم يشرع في الانتقال الى جانب آخر من القضية وهو يمثل اهمية كبيرة عنده: «تعقيدات كبيرة جداً في حالة نشوب حرب بين بلد عربي مسلم وبين قوة اجنبية مثل الولايات المتحدة». وهذا الجانب هو الشعور القومي والاسلامي في الوطن العربي والمؤمنين في العالم الثالث. ولكي يُقنع جيمس بيكر بما ذهب اليه، بانه سيحدث هيجان قومي واسلامي في حال حدوث النزاع المسلح، فانه يشير بسبابته الى تجربة الماضي «انا اتحدث هنا عن تجربة قريبة نحن كنا في حرب قبل سنتين ونصف» حقاً انه سجين الماضي.

في وسع القيادة العراقية ان تقلع التجربة الماضوية من ابعاد تاريخيتها وتلصقها ـ بعد شطب المستقبل ـ بأية تجارب تريدها هي، ولكي يطمئن طارق من انه لازال يفكر بنفس الآليات يقول: «تجارب الماضي تؤكد ذلك».

يتهاوى طارق عزيز اكثر فأكثر داخل اشكالية اكثر خطورة من الاشكالية الاولى التي سقط فيها، وذلك حين يوسع نطاق قناعته بالنصر الآتي الحقيقي بان هذا النصر لا يتحقق على الصعيد العسكري فقط بل يمتد ليشمل المعركة السياسية ايضاً. ولكي يبرهن على هذا فانه يحوّر المعادلة التي بنى عليها قناعته ويجعلها ـ ما حدث في ماضي قيادة اخرى سيحدث في مستقبل قيادتنا ايضاً ـ مادام هناك ظروف متشابهة. وان البطولة والزعامة التي كانت لتلك القيادة، ستكون لنا مثلهما!!

انه لا يعود هذه المرة بادراجه للتاريخ السياسي للقيادة العراقية، ولا الى ماضي جيش العراق، ولا تجارب قائده الماضيوية ولا تاريخ شخصيته، بل يذهب مباشرة نحو ماضي بيئة اخرى مغايرة، والى تجربة دولة اخرى واخيراً الى شخصية (قائد) آخر عاش في فترة تاريخية تختلف سماتها ومميزاتها عن هذه الفترة تماماً. يقول طارق في النصر السياسي: «من الناحية السياسية لم يحصل في تاريخ المنطقة ان نظاماً سياسياً دخل في معركة مع اسرائيل أو مع الولايات المتحدة وخسر سياسياً، خذ تجربة عبد الناصر عام ١٩٦٧، هزم هزيمة عسكرية كبيرة وغير مبررة.. واستقال ولكن الجماهير اعادته الى السلطة». ان نظام صدام قمعي، ولهذا فان بنية تفكيره هي الاخرى قمعية (بنية تقوم على قمع الحقائق). ولا تقوم هذه المقارنة ولا هذا التشابه بين عبد الناصر والدكتاتور صدام إلا باشتغال مبدأ «اسكات الحقائق الصارخة». ومن هذه الحقائق التي لا يمكن اخفاؤها ابداً:

ان صراع جمال عبد الناصر كان مع اسرائيل مباشرة وليس مع دولة عربية وهو حرّك خمس فرق عسكرية الى الحدود للتصدي لاسرائيل وليس الى ابتلاع دولة صغيرة كما فعل صدام حين حرّك كل قواته وآلته العسكرية الهائلة الى الحدود وغزا الكويت. ثم انه لم يقحم شعبه في مهزلة حرب غير مبررة ولا جدوى منها طوال ثماني سنوات مع أي من

جارات مصر، ولم يحاول ابادة شعبه بالاسلحة الكيمياوية. . وبشأن اعادة الجماهير لعبد الناصر الى السلطة بعد استقالته، فان انتفاضة الشعب العراقي العارمة والتي شملت كل العراق ـ حتى بعض مناطق في المركز ـ كانت تعبر عن مدى سخط الشعب العراقي من عدم استقالة الدكتاتور صدام.

وضمن السياق ذاته واستخدام منهج التفكير نفسه يقارن طارق عزيز (دون ان يعلم ذلك) مقارنة غير مباشرة بين الفترة الزمنية التي استغرقتها المواجهة مع ايران، والفترة التي ستستغرقها المواجهة الآتية، انها ستكون طويلة كما في الماضي «بعد فترة من الزمن ستتوقف الحرب، بعد سنة أو سنتين أو ستة أشهر. . انتم تظنون انها ستكون قصيرة ونحن مصممون وواثقون بانها ستكون طويلة».

انها قناعة طارق الفارغة. وحتى تستطيع ان تقمع اكبر قدر ممكن من الحقائق، وتبرز نفسها على انها الحقيقة الصائبة الوحيدة، فلا بد لها من عنصر التضخيم. ولهذا لا تبقى داخل اطار «النصر» فقط، بل تتعداه اكثر الى ندم الطرف الآخر على المواجهة، وتكتسب هذه القناعة ضخامة هائلة بشكل واضح حين يقول طارق «انكم ستحاربون بلداً لا تعرفونه. . . انكم ستندمون على ذلك».

النصر العسكري، النصر السياسي، طول المواجهة، البطولة والزعامة. . الخ كل هذه كانت المحاور الاساسية لاقوال طارق والمكونات الرئيسية لقناعته وتنبؤاته التي لم يتحقق أي منها لا اثناء المواجهة ولا بعدها على الاطلاق وذلك دون ان يرى الجانب المظلم والاهم في القضية ألا وهو المآسي الانسانية الواسعة التي ستخلفها الحرب.

هكذا وبهذا الشكل كانت القيادة العراقية، وعلى قمتها الدكتاتور، ترى نهايات الاشياء وهي مؤمنة ومقتنعة تمام الاقتناع بهذه النهايات! ان المواجهة العسكرية ستحدث، لكنها ستستغرق فترة طويلة من الزمن ثم تنتهي بانتصار الدكتاتور الساحق على الصعيدين العسكري والسياسي وبالتالي سيجعل الشعب العربي والامة الاسلامية من صدام بطلاً قومياً وزعيماً مؤمناً، واخيراً سيندم المجتمع الدولي على كل ما فعله من اجل انهاء غزو شرس. .

هذه هي قمة اللاعقلانية التي لا تضاهيها أية لاعقلانية اخرى.

* * *

بعد البدء. .

ربما خاضت القيادة العراقية في اطار ذهنيتها المريضة وخيالاتها المهووسة ـ ربما خاضت الكثير من الحروب الشرسة وغزت دولاً عديدة مثل تركيا، ايران، سوريا،

السعـودية. . الـخ. وخـرجت من كل هذه الحروب بانتصارات ساحقة، وفي مثل هذه الحـالات، يتـوجب على العالم لا ان يسكت فحسب بل عليه الوقوف ـ اجلالاً لعظمة الغـازي ـ على الارصفة والشوارع مصفقاً ومهللاً لهذه الفتوحات! لا وبل عليه ان ينشد اناشيد البطولة الألهية لصدام حسين. . .

حقاً انه لحلم مريض بغزو العالم وقيادته نحو الخراب!!. . .

* * *

اواسط كانون الثاني / ١٩٩٢

نظرة إلى الاستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط

لطفي حاتم

تتحدث بعض الأوساط السياسية العراقية عن ضرورة حث دول الغرب وأمريكا للمساهمة الجدية في إسقاط النظام الدكتاتوري في العراق. وتشكل القرارات الصادرة عن مجلس الأمن والمتضمنة إدانة هدر حقوق الإنسان، واعتبار النظام العراقي مصدراً من مصادر التوتر والعدوان منطلقاً لتلك الدعوات.

إن هذا التعويل على العوامل الخارجية في إسقاط الديكتاتورية (رغم أهميته) يتجاهل بتقديري الأولويات التي تشكل أساساً رصيناً في رسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأخرى المنبعثة من المصالح (الحيوية) لهذه الدول، هذه الملاحظة العامة تدفعني إلى قراءة أهداف الستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط مستفيداً من تحليل الأحداث الكبيرة والفرعية التي حصلت وكيفية تعامل الدبلوماسية الأمريكية معها.

لمحة سريعة للخطوط الرئيسية لهذه الاستراتيجية ترينا أنها تتحدد بطبيعة التطورات الجارية في منطقة الخليج في العلاقات الدولية وماشهدته من تبدلات سريعة، لذا أرى من الضروري دراسة هذه الستراتيجية بمرحلتين مترابطتين تتميز الأولى في كيفية مواجهة أميركا للأحداث باعتبارها إحدى الدولتين العظميين، وثانيهما مساهمتها في حل مشاكل المنطقة على أساس هيمنة القطب الواحد في العلاقات الدولية.

١ ـ مرحلة الثنائية في العلاقات الدولية

تميزت المرحلة الأولى من الستراتيجية الأمريكية المعتمدة في عقد الثمانينات

والمستندة إلى سياسة المواجهة وسيادة القطبين في العلاقات الدولية بمرونة وقابلية على الحركة في مواجهة التطورات الحادة والمفاجئة التي حصلت في منطقة الشرق الأوسط، فلقد بات واضحاً أن التغيرات الإقليمية التي حصلت في الحقبة المنصرمة والتي تمثلت في الثورتين الأفغانية والإيرانية وعلى الرغم من اتشاحهما بأردية أيديولوجية متناقضة إلا أنهما أحدثتا اختراقاً واهتزازاً كبيرين في الستراتيجية الأمريكية وبنائها وتهديداً صريحاً لمصالح الغرب الحيوية، وبسبب من خطورة هذه التطورات فقد لوحظ أن الدبلوماسية الأمريكية تحركت بمرونة عالية تمثلت في توتير عناصر الخوف لدى الأنظمة المجاورة من تأثير الثورتين وتكثيف العمل، للبحث عن الوسائل النشطة القادرة على التصدي لهذه التغيرات، ومنع تأثيراتها السلبية أو الحد منها. وفي هذا الصدد لابد من تأشير الأنشطة المعتمدة لتحقيق هذه الأهداف والتي يمكن حصرها في مساع داخلية للدول المجاورة وأخرى خارجية تمثلت في النشاط الدبلوماسي الغربي بشكل عام والأمريكي بشكل خاص.

لقد تميزت المساعي الداخلية التي سلكتها الدول المجاورة، بمسارات عديدة وسريعة يتصدرها إسراع الدول الخليجية في تعزيز حلفها العسكري ـ الأمني والتركيز على أهمية الدفاع المشترك محاولة في ذلك الاعتماد على قدراتها العسكرية الذاتية المدعومة من الغرب، وقد اقتصر هذا العمل المشترك في بداية الأمر على الاستعدادات الأمنية لقمع التحركات الدينية التي قد تحصل في بلدانها ولاسيما لوجود نسب شيعية كبيرة وصلات روحية مع المرجعية الدينية في إيران الإسلامية.

وفي العراق باشرت قيادة الدولة بطرد ألوف المواطنين العراقيين بحجة أصولهم الفارسية بعد أن جردتهم من وثائقهم وممتلكاتهم الشخصية، وقد ترافق مع هذه الحملة اضطهاد شامل للقوى العلمانية والدينية المعارضة لما لهذه القوى من تأثير كبير وساهم في تشديد الحملة الإرهابية التحالف الغير معلن بين بعض فصائل اليسار الإيراني (توده) والمؤسسة الدينية الشيعية في المراحل الأولى من الثورة الإيرانية، وبتقديري أن الانقلاب الدموي الذي قاده صدام حسين ضد رجالات الدولة وحزبه يمثل رسالة لتطمين الإدارة الأميركية ونشاطها الهادف إلى تحصين استراتيجيتها في المنطقة.

ويكمن التطور الآخر والذي لايمكن إغفاله في تعديل عناصر الستراتيجية الأميركية في إلغاء الديموقراطية النسبية في تركيا وإقامة حكم ديكتاتورية عسكرية إرهابية فيها وماتبع ذلك من اتفاقات أمنية وعسكرية حدودية بين العراق وتركيا لغرض التصدي لقوى المعارضة خاصة تلك الناشطة في كردستان الدولتين.

بهذه الإجراءات السريعة يمكن تأشير الخطوط العامة التي لجأت إليها دول المنطقة

بالتشاور أو بدونه لمحاصرة تأثيرات الثورة الإسلامية الإيرانية وكذلك استلام حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني للسلطة، وباستكمال هذه الإجراءات يمكن تشخيص مضمون الحلقة الثانية في تعديل الستراتيجية الأميركية وانتقالها من الدفاع عن خطوطها إلى استراتيجية الهجوم الشامل والذي رُسمت ملامحه وفقاً لنظرية برجنسكي (التفجير الداخلي) وعوامل استنزاف القوى على أساس المواجهة العسكرية المباشرة على النطاق الإقليمي، لقد ارتدت نظرية التفجير الداخلي أشكالاً عديدة تمثلت في إثارة الصراعات الداخلية في المجتمع الأفغاني حيث جرى تشجيع نزوح الملايين من الأفغان إلى الدول المجاورة الأمر الذي أدى إلى نمو وتطور الثورة المضادة التي جرت رعايتها من قبل باكستان والسعودية حليفتي الولايات المتحدة الأمريكية مستفيدة من التناقضات الحاصلة في تركيب حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني وتدخل الاتحاد السوفييتي في أفغانستان باعتبارها تشكل امتداداً جغرافياً لأمن جمهورياته الجنوبية ذات الأغلبية المسلمة.

أما الاتجاه الآخر فتمثل في تشجيع نزعات القيادة العراقية الرامية إلى الغاء اتفاقية الجزائر وملء الفراغ الأمني الحاصل في منطقة الخليج الأمر الذي يتناسب والطموحات الشخصية لصدام حسين وقد ارتبط هذا التشجيع بالنصح لإعلان الحرب على الجمهورية الإسلامية التي تعاني الضعف في مؤسستها العسكرية جراء التفكك الذي أصابها، وفقدانها لطاقمها القيادي ناهيك عن شبكة كادرها الوسطي جراء الثورة.

٢ ـ مرحلة القطب الواحد

أ ـ العودة إلى التفوق العسكري

إن الحديث عن الستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط في مرحلتها الثانية يتطلب المرور بالتطورات العاصفة التي أدت إلى قلب الكثير من الثوابت والأولويات خاصة بعد انتقال البروقراطية (السوفييتية) في علاقاتها الدولية إلى مبادىء جديدة يتحدد مضمونها بتعزيز الأمن المتبادل، وتوازن المصالح بعد فك الارتباط مع حركات التحرر والتخلي عن فكرة التمايز الحضاري بين الرأسمالية والاشتراكية ومارافق ذلك من تفكك في البناء السياسي لدول أوربا الشرقية، ومااعقبها من تطورات فجائية وحادة كان الحديث عنها لفترة قليلة ماضية يعتبر ضرباً من الخبل السياسي، نقول ان هذه الأحداث وفرت للستراتيجية الأميركية خاصة في منطقة (مجالها الحيوي) المرونة العالية في إعادة ترتيب الأوضاع العسكرية بما يتناسب وتكريس الهيمنة بعد زوال خطر خصمها التاريخي وبنفس الوقت حملت سياسة الهيمنة هذه بذور أزمتها التي تتطور عناصرها يوماً بعد آخر. فبعد توقف الحرب العراقية ـ الإيرانية والتي استنفذت أغراضها السياسية والاقتصادية بإضعاف الطرفين

المتحاربين تركز هم السياسة الأميركية بضرورة إعادة التوازن الستراتيجي العسكري لصالح حلفاءها وبالدرجة الأولى إسرائيل وطبعاً ينبغي الإشارة هنا إلى الكيفية التي يجري فيها تحجيم المؤسسة العسكرية العراقية وكبح جماح سياسة التوتر التي تنتهجها القيادة العراقية وغطرستها المتزايدة التي تؤدي إلى المغامرة بزج هذه المؤسسة بأعمال عسكرية تحت شعارات قومية أو حقوق تاريخية.

إن هموم السياسة الأمريكية في المنطقة والهاجس الأكبر في كيفية إعادة التوازن الاستراتيجي أملته أيضاً اعتبارات أخرى منها الخشية من إقامة تحالفات إقليمية بين دول المنطقة الرافضة لسياسة الهيمنة بعد أن فقدت هذه الدول حليفها السابق الاتحاد السوفييتي مما يوسع رقعة المخاطر أمام السياسة الأميركية الرامية إلى الحفاظ على مصالحها بتضحيات قليلة وبسمعة أخلاقية عالية، ولقد جاءت مغامرة احتلال العراق للكويت بمثابة قارب الإنقاذ لهذه الاستراتيجية وصيانة عناصر الهيمنة فيها. وفي تقديري أن غزو الكويت ليس بمعزل عن الدبلوماسية السرية الأميركية ودعمها للنظام الدكتاتوري اعتماداً على دراسة صبورة لشخصية صدام حسين المغامرة والثأرية والنرجسية والتي غذتها الكثير من الأوساط الإعلامية الغربية والعربية بشعارات تتناغم مع سايكولوجية البطل القومي التي تقمصتها شخصية حسين الدموية[1].

لقد وفر غزو العراق للكويت الفرصة للدبلوماسية الأميركية كي تضرب القوة العسكرية التي امتلكها العراق مستفيدة من عنصر الوقت والتطورات الإيجابية في المناخ الدولي المقترن بالحشد الهائل من التأييد العربي والعالمي لإخراج العراق من الكويت (وكان بالإمكان إخراجه سلمياً) كان ذلك التأييد نجاحاً باهراً للدبلوماسية الأميركية التي كانت بارعة ليس في تدمير القدرة العسكرية للعراق وحسب بل تجاوزتها إلى تدمير البنية الاقتصادية تحت مباركة وترحيب الجميع ضامنة بذلك ليس توازناً استراتيجياً كما كانت تطمح إليه، بل تفوقاً للقوى لصالح هيمنتها العسكرية والاقتصادية المباش. ة ولصالح دولة إسرائيل باعتبارها الحليف الستراتيجي في المنطقة.

ب ـ توطد الهيمنة وزمن الاستحقاقات الكبرى

المتتبع للتطورات التي أفرزتها الفترة المنصرمة يلاحظ أن عناصر الأزمة العامة في الستراتيجية الأميركية ترتبط بالدرجة الأولى بالتناقض الصارخ بين الشعارات التي تطرحها الإدارة الأميركية لإعادة بناء العلاقات الدولية الجديدة وبين الممارسة الواقعية لهذه السياسة التي امتازت بالفترة الحالية بسمات كولونيالية مستهجنة (احتلال عسكري، نهب مباشر لثروات المنطقة، تدخل في الشؤون الداخلية، تدعيم أنظمة موالية لها متخلفة عن روح العصر وقوانينه، محاولة إبعاد المنطقة عن مواكبة الحضارة الإنسانية المتعددة الأشكال

والمضامين). ويتحدد هذا التناقض على أساس الخوف من ماهية التجديد، وسعة نطاقه، وإمكانية السيطرة عليه وطبيعة القوى القادرة على تنفيذه.

عند تفحص عابر لمكونات التجديد الذي تنشره المنطقة والذي يتجاوب مع التطورات العالمية الجارية نراه يتركز بالدرجة الأولى بتجديد البنية السياسية في عنوانها الكبير: الديمقراطية وحقوق الإنسان، حل المسألة القومية، الأمن الإقليمي، وبهذه العناوين الأساسية تكمن الأزمة العامة للستراتيجية الأميركية في المنطقة أيضاً.

عند البحث في جوهر الديمقراطية السياسية فإننا نقصد بذلك إعادة البناء السياسي لسلطة الدولة على أساس تجديد مؤسساتها الرئيسية (والسلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية)، بما يتجاوب مع الإدارة العامة لمجتمعات المنطقة، حيث يتطلب التجديد إعادة صياغة القانون الأساس (الدستور الدائم)، والذي يفترض أن يكون معبراً عن المصالح والقواسم المشتركة العامة للمواطنين بغض النظر عن طبقاتهم الاجتماعية وانتماءاتهم السياسية والقومية والدينية، ويكمن الجوهر الحقيقي للديمقراطية السياسية أيضاً في بناء علاقات حضارية تستند إلى الحوار الهادف والعلني بين الأطراف والقوى السياسية المختلفة وكممارسة ثابتة بينها وبين سلطة الدولة المتداولة. ووفقاً لهذه المنطلقات فإن أزمة الستراتيجية الأميركية تتجسد في ازدواجية معيارها السياسي المتسم بتناقض مصالحها الاقتصادية الحيوية مع شعاراتها السياسية، ويتعمق معيار الازدواجية هذا في دفاعها عن الأنظمة السائدة من جهة وغياب بديلها (بديل الإدارة الأمريكية) القادر على مواصلة تأمين مصالحها الحيوية من جهة أخرى.

عند النظر إلى طبيعة النماذج السياسية الحاكمة نراها لاتتعدى أنظمة لأسر حاكمة تفتقد قوانينها أبسط الضمانات العامة لحقوق الإنسان، وأنظمة لنخب عسكرية يتشح بعضها بغطاء ديمقراطي شكلي يتلون بسلسلة من قوانين الطوارىء وتقييد الحريات، وأخرى ديكتاتورية إرهابية سافرة. لقد أصبحت هذه النماذج من الأنظمة الحاكمة عبئاً ثقيلاً على الحضارة الإنسانية وعائقاً أمام تطور العلاقات الدولية الجديدة، وبسبب استمرارها إحراجاً دولياً متزايداً للدبلوماسية الغربية والأميركية على الأقل في جانبها الأخلاقي ولهذا فإن أمر تجديد البناء السياسي لهذه الدول بات أمراً ملحاً، ولكن الخشية الأميركية من التجديد المفترض تكمن **في غياب القاعدة الاجتماعية الموالية للغرب والقادرة على الإمساك بالسلطة السياسية وتداولها على أساس الديمقراطية السياسية.** ويعود سبب غياب القوى الاجتماعية هذه إلى السياسة الأمريكية المتبعة خلال الفترة المنصرمة والتي اعتمدت سياسة النهب السريع للثروات وتشويه التركيب الاجتماعي لدول المنطقة، وكانت نتيجتها فرز قوى هامشية تتحدد بفئات بيروقراطية مرتبطة بأجهزة الدولة المختلفة

متحالفة مع برجوازية طفيلية مغتربة عن مصالح الوطن والمواطن. وبالمحصلة فإن هذه الشرائح لاتصلح كقاعدة اجتماعية مضمونة في صراعها مع القوى الاجتماعية الأخرى بشكل ديمقراطي. لذلك فإن الشكل الوحيد للحكم والقادرة على إدارة سلطتها السياسية هو الشكل الإرهابي المستتر أحياناً والسافر في أحايين أخرى.

إن هذا التعليل لأزمة البديل الاجتماعي الضامن لمصالح الغرب «الحيوية» يرتبط بالضرورة بطابع الديمقراطية السياسية التي تنشدها المجتمعات والذي يتخذ بالظرف الراهن مضموناً وطنياً[1] أي المطالبة بديمقراطية سياسية مبنية على أساس المصلحة الوطنية لبلدان المنطقة والتي ترتكز على ضرورة إلغاء الأشكال القديمة للأنظمة البالية والإرهابية المرتهنة للمغرب ورفض التواجد العسكري وصيانة الثروات الوطنية والتأكيد على السيادة الوطنية التي يكفلها القانون الدولي.

ولتحقيق الأهداف المارة الذكر تتصدر النضال القوى السياسية الفاعلة في هذه المجتمعات والتي تتمحور في التيارات الكبرى الثلاثة التيار الديمقراطي، والقومي والإسلامي والتي تنادي (وإن بدرجات متفاوتة) بخيارات ديمقراطية ـ وطنية معادية للإرهاب الداخلي والهيمنة الخارجية. وبطبيعة الحال إن هذا الواقع تخشاه الدبلوماسية الأميركية والغربية لذلك نجدها تعمل على الإبقاء على الخريطة السياسية الحالية بعيداً عن التأثيرات العالمية الجارية، عاملة بنفس الوقت على تهيئة البدائل بصورة تدريجية محاولة تعطيل الانفجارات التي قد تؤدي إلى فلتان الأمور من قبضتها.

إن النضال من أجل الديمقراطية ـ الوطنية والذي أصبح عنصراً من عناصر الأزمة العامة للاستراتيجية الأميركية يرتبط بالنضال القومي لشعوب المنطقة والذي يشكل هو الآخر عنصراً من عناصر أزمة الدبلوماسية الأميركية. فمن الواضح تماماً أن عمليات التفكك والاتحاد الجارية في العالم والتي اقترنت بتفكك الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا إلى جمهوريات مستقلة، وعملية توحيد الألمانيتين أعادت تشكيل الخارطة السياسية ـ الجغرافية لأجزاء كبيرة من العالم، وبطبيعة الحال لم تكن هذه التطورات بمعزل عن تشجيع الإدارة الأميركية وسياستها الرامية إلى إعادة صياغة العالم وفقاً لمنظور هيمنة القطب الواحد في العلاقات الدولية، والذي تتحسس خطورته الدول الأوروبية التي كثفت مساعيها لتطوير سوقها المشتركة إلى حلف سياسي ـ اقتصادي قد يشكل مستقبلاً قطباً آخر يتصدى لنزعة الهيمنة والغطرسة الأميركية[2].

لقد ألقت هذه التطورات القومية المرتدية شكلاً ديمقراطياً وطنياً أيضاً والرامية إلى استقلال وحرية الشعوب من خلال تكوين دولها الوطنية المستقلة ظلالاً قاتمة على الدبلوماسية الأميركية في منطقة الشرق الأوسط التي يواجه شعوبها مستويان من المسألة

القومية. يرتدي المستوى الأول طابعاً قومياً شاملاً لشعوب المنطقة العربية يتمثل في المطالبة بالديمقراطية الوطنية المصحوبة بطموح برنامجي يستهدف خلق اتحادات ديمقراطية بين الدول العربية المجاورة تبعث الأمل في تحقيق الوحدة العربية المنشودة. أما المستوى الآخر فيتضمن النضال من أجل حل المسألة القومية الملتهبة في بعض البلدان على أساس الاعتراف بحقوقها القومية المشروعة في تشكيل دولها الوطنية المستقلة مثل القضية القومية للشعب العربي الفلسطيني أو الحلول المطروحة لحل القضية الكردية بصيغ الفدرالية أو الحكم الذاتي.

إن حل القضية القومية التي تستند إلى الديمقراطية ذات المضمون الوطني تتعارض وبلا شك مع أهداف الستراتيجية الأميركية في المنطقة وبالتالي فإنها تشكل جزءاً من أزمتها العامة التي تلونت في مفردات نهجها السياسي إزاء الحلول المطروحة حيث اقتصر خطاب الدبلوماسية الأميركية على وضع القضية القومية في إطار العلاقات الداخلية للبلد الواحد مكتفية باعتبارها قضية إنسانية تحظى بالعناية والرعاية من لدن الإدارة الأمريكية.

ويتمثل المؤشر الثالث لأزمة الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة بإخفاقها المتكرر ببناء منظومة الأمن الإقليمي، فمن الملاحظ أن إحدى النتائج الكبرى لحرب الخليج الثانية اقترنت في مساع أمريكية مكثفة لاستثمار الأجواء الإيجابية العامة التي نشأت بعد عملية «تحرير الكويت» لتحقيق هدفين أولهما هو تحقيق المصالحة العربية - الإسرائيلية والتي أسفرت عن عقد مؤتمر للسلام في منطقة الشرق الأوسط والذي افتقد من الناحية الحقوقية والسياسية والعسكرية مبدأ المساواة بين الأطراف المتفاوضة مما أعطى مؤتمر السلام طابعاً احتفالياً فضفاضاً.

أما المسعى الآخر فتضمن الدعوة لبناء منظومة الأمن الإقليمي والمقصود به هو الأمن السياسي - العسكري والاقتصادي لدول المنطقة الضامنة «للمصالح الحيوية» للدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، وعلى الرغم من أن هذه المساعي الأمريكية ليست بالجديدة حيث مرت بأطوار مختلفة بدءاً من تشكيل قوات التدخل السريع، وبناء الحلف الخليجي وانتهاء بميثاق دمشق إلا أن هذه المساعي اكتسبت حماساً جديداً بعد الحرب الخليجية الثانية.

إن دراسة متأنية لطبيعة الأمن الإقليمي لابد أن تأخذ بنظر الاعتبار القوانين والأعراف التي تشق طريقها في العلاقات الدولية الجديدة ولكن الملاحظ أن الأمن الإقليمي الذي تسعى إلى إقامته الدبلوماسية الأمريكية يرتكز على الهيمنة التي اقترنت بإلغاء مبدأ التوازن العسكري بين دول المنطقة.

لقد استثمرت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية الأخرى الأجواء بعد حرب

الخليج الثانية لتطوير معاهدة التحالف الاستراتيجي المعقودة بينها وبين إسرائيل وتزويدها بمنظومة متطورة من الأسلحة الأمريكية الحديثة الصنع مصحوبة بمساعدات مالية كبيرة، وبهجرة يهودية من «الاتحاد السوفييتي» وبلدان أخرى، وبنفس الوتيرة عززت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا الحلف الخليجي بعد أن طورت علاقاتها العسكرية معه ورفعتها إلى تواجد عسكري دائم ومكثف لحماية مصالحها الحيوية، وفي هذا الإطار لابد من الإشارة إلى ظاهرة جديدة تتمثل في أن مبدأ تفوق القوى اقترن بالعمل على مراقبة صادرات السلاح إلى الدول العربية الحليفة للولايات المتحدة مع مراقبة تصديره إلى الدول المستقلة خشية أن يحدث توازن استراتيجي جديد لايتناسب والمصالح الأمريكية.

إن العودة إلى الأساليب الكولونيالية القديمة لم يقتصر على الإخلال بمبدأ موازنة القوى وحسب، بل تعداه إلى إلغاء مبدأ موازنة المصالح الذي اتسم هو الآخر في المحافظة على الأنظمة البالية والديكتاتورية التي لن تقوى على البقاء بدون المعونة الخارجية والإرهاب الداخلي الأمر الذي يتيح الفرصة للولايات المتحدة الأمريكية بالتدخل في الشؤون الداخلية للدول الخليجية وكذلك استثمار الهزيمة العسكرية والسياسية للديكتاتورية في العراق ووضعها تحت «الوصاية الدولية» لمواصلة النهب لثروات البلاد وانتهاك سيادتها الوطنية.

إن غياب مبدأ موازنة المصالح لم يقف عند هذا الحد بل اتخذ أشكالاً أخرى تجسدت في عدم تطبيق المعايير الدولية بحق إسرائيل على الرغم من تجاهلها لحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الوطنية المستقلة وكذلك استمرارها بسياسة التهويد والاستيطان ناهيك عن استغلالها لثروات الأراضي العربية المحتلة الأخرى.

وعلى الجانب الآخر تنهض تركيا بدور جديد يتمثل في تسخير أراضيها للقوات المتحالفة وانتهاجها سياسة الضغوطات تارة والتدخل تارة أخرى، من خلال محاولة تحكمها واستئثارها بمياه الفرات الذي تتزايد الخلافات الإقليمية بشأنه والتي قد تتطور إلى أزمة لايمكن التحكم بأبعادها.

لقد أدت العودة إلى سياسة الهيمنة والوصاية، والتدخل في الشؤون الداخلية إلى غياب مبدأ الأمن المتبادل بين دول المنطقة، حيث تنشط تبعاً لذلك دبلوماسية المحاور والتحالفات الحاملة لبذور انفجارات لاحقة، ويدفع بهذا وجود التناقضات السياسية بين الدول المتحالفة مع الغرب وأمريكا وبين الدول التي تحاول أن تشق لها طريقاً يتسم بالاستقلالية ورفض سياسة الاحتلال والوصاية والإذلال، ويتشكل على هذه القاعدة تياران، الأول منهما من إيران الإسلامية وسوريا ودول أخرى راغبة في بناء منظومة أمن

إقليمي مستندة إلى المبادىء الدولية، بعيدة عن التدخلات الأجنبية المباشرة، وراغبة في سحب القوات العسكرية الأمريكية المنتشرة في منطقة الخليج والتي أصبح وجودها مصدر خطر وقلق للدول المستقلة التي تخشى الهيمنة الأمريكية في المحافل الدولية وماتجره هذه الهيمنـة من استخدام لمجلس الأمن والقوانين الدولية لفرض العقوبات عليها بمختلف الحجـج والذرائع (كالإرهاب مثلاً). أما التيار الآخر فتتزعمه المملكة العربية السعودية المـدعومة بقوة عسكرية كبيرة والراغبة في بناء أمن إقليمي يستند على تفوق في القوى لحماية المصالح الحيوية للغرب الأوروبي وأمريكا وحماية أنظمة المشايخ الأخرى. إن هذين التيارين يتبادلان عدم الارتياح لنهج بعضهما الآخر ويعزز أزمة الثقة هذه عاملان الأول تفكـك «الاتحـاد السـوفييتي» ويوغسـلافيا ومـا توفـره الجمهـوريات الجديدة من فرص للتنافس على استثمار العقول العلمية والقدرات العسكرية المتواجدة لديها من جهة ومحاولة جذب سياستها لصالح أحد التيارين المتنافسين من جهة أخرى. وبهذا الصدد يجب عدم إغفال الجانب التركي وأطماعه المتزايدة بأراضي هذه الجمهوريات التي ينظر لقسم منها بعين طورانية، ويشكل انتصار المجاهدين الأفغان عاملاً ثانياً ضاغطاً في هذا التنافس وبالأخص بين السعودية وإيران الإسلامية مما يزيد من روح التوتر وعدم الاستقرار في المنطقة.

في محاولة لتلخيص سمات الأزمة العامة للاستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط والخليج من خلال توجهاتها الحالية نراها تتلخص بـ :

أولاً: التنـاقض بين محاولة الحفاظ على مصالحها وبين مصداقية شعاراتها على المستوى الإقليمي ومضمون التناقض هذا يبرز في إعاقتها لشعوب المنطقة في استثمار المـوجة العالمية الرامية إلى إشاعة الديمقراطية وحل المسألة القومية، وتبرز الأزمة هذه كانعكـاس للأزمـة العـامة الشاملة لأنظمة الإرهاب والمشايخ والعسكرة التي لم تستطع الـولايات المتحـدة إيجاد القوى الاجتماعية البديلة والقادرة على الجمع بين استخدام الديمقراطية السياسية،حتى الشكلية منها، وبين امكانية حفاظها على السلطة السياسية.

ثانياً: وتبرز أزمة الاستراتيجية الأمريكية في التناقض الحاد بين دعوتها ومناصرتها لحل المسألة القومية في «الشرق الاشتراكي» وبين محاولاتها المتكررة لاستبعاد التقارب القومي والإقليمي بين دول المنطقة من خلال تبنيها لسياسة التحالفات الدفاعية «الكويت ودول خليجية أخرى» وزرع عوامل الانفجارات اللاحقة بين الدول العربية عبر التخطيط الجديد للحدود الذي يكرس ليس توسعاً كويتياً في الأراضي العراقية فحسب بل شكلاً سافراً من أشكال النهب المتعمد لثروات العراق ومحاولة صريحة من جانب الغرب وأمريكا لإبقاء النظام الديكتاتوري في العراق «فزاعة» لإدامة التوتر في المنطقة ناهيك عن خلق

متاعب ومصاعب جدية للبديل الديمقراطي ـ الوطني القادم.

ثالثاً: ويظهر التناقض الثالث بين الدعوة إلى إقامة الأمن الإقليمي وبين العمل على تغليب مبدأ تفوق القوى على مبدأ توازنها والإخلال كذلك بمبدأ موازنة المصالح، وقد تجلى ذلك في تقوية الدور الإسرائيلي والتواجد العسكري الأمريكي، وبنفس الاتجاه تعزيز دفاعات حلف الأطلسي من خلال تزايد الدور التركي الذي بات متحكماً في المياه الإقليمية (الفرات) وإمكانية تفجيره لأزمة المياه بالوقت والظروف المناسبة للدبلوماسية الأمريكية والغربية.

أخيراً وعلى أساس المعطيات المارة الذكر أخلص إلى القول أن التعويل على العوامل الخارجية في الإطاحة بالأنظمة البالية والإرهاب ومنها النظام الديكتاتوري في العراق وبناء أنظمة ديمقراطية ـ وطنية، بدون التوافق مع الاستراتيجية الأمريكية وتطمين المصالح «الحيوية» للغرب يصبح هذا التعويل سراباً وحصاداً للريح.

١٩٩٢/٦/١

(١) يلاحظ هناك أوجه شبه للدور الذي لعبته الدبلوماسية السرية الأمريكية في التأثير الخفي على توجهات الرئيسين العراقي صدام حسين والمصري أنور السادات، فيما يتعلق بدفعهما إلى خوض حروب إقليمية بواجهات مختلفة لغرض تدمير القدرات العسكرية العربية وصولاً إلى تعديل موازين القوى الاستراتيجية لصالح إسرائيل واستثمار الهزائم العسكرية لتحقيق أهداف سياسية حيث انتهت حرب اكتوبر بإخراج مصر من الصف العربي بصلح منفرد أما الحرب الخليجية الثانية فأدت إلى مفاوضات عربية شاملة مع إسرائيل تفتقر إلى مبدأ التكافؤ والمساواة.

(٢) إن مفهوم الديمقراطية ـ الوطنية الذي استخدمه هو تعبير مكثف للتطورات الجارية في العالم وأعني به تطبيق مبدأ موازنة المصالح ليس في العلاقات الدولية بل وفي العلاقات الوطنية والذي يتضمن إقامة نظام حكم ديمقراطي تداولي يرتكز على:

أ ـ موازنة المصالح الطبقية للفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة.

ب ـ موازنة المصالح القومية بين القوميات القاطنة في وحدة سياسية ـ جغرافية محددة.

إن هذا المفهوم حسب مارآه يختلف عن مفهوم الثورة الوطنية الديمقراطية الذي اعتمدته القوى اليسارية في الحقبة الماضية ويختلف كذلك عن مفهوم الوطنية المجردة التي تنظر إلى الوطن ومصالحه بعيداً عن طبيعة الشكل السياسي للحكم.

(٣) تتزعم فرنسا وألمانيا المطالبة بتشكيل جيش أوروبي موحد يتصدى للمخاطر الناجمة عن الحروب والنزاعات القومية الناشئة عن ظهور الجمهوريات المستقلة الجديدة في أوربا ومايرافقها من مشاكل في إعادة تخطيط الحدود وبذات الوقت يكون هذا الجيش الموحد نواة لنمو ولتطور قطب دولي مستقل عن الهيمنة الأمريكية في العلاقات الدولية.

ملاحظات حول اعمار كردستان

المهندس: هاشم خداداد

ليس من باب المبالغة القول ان السجل الحافل للتدمير والخراب في كردستان متزامن مع تاريخ الشعب الكردي الذي عاش على ارض اجداده وناضل، دون انقطاع، ضد الطبيعة وضد اعدائه من اجل حياة كريمة مرفهة. ان إلقاء نظرة خاطفة على التاريخ كفيل باظهار تلك الحقيقة المروعة.

ان ما نحن بصدد تناوله هنا هو الدمار والخراب الحاصل من الاعمال الوحشية ضد الشعب، البيئة، المدن والقرى الكردستانية، والذي بدأته الانظمة الشوفينية منذ مطلع الستينات ولحد الآن، وقد تجلى في إزالة ألوف من القرى والمدن من الوجود، والتهجير والتوطين القسري لساكنيها في معسكرات اجبارية أشبه بالمعتقلات، والتشويه المقصود والمخطط للطبيعة الديموغرافية والنشاط الاقتصادي، ولاجهاض قدرة الشعب الكردستاني على الاعتماد على نفسه، وحرمانه من ملامحه وخصائصه القومية بقطع صلته بأرضه، كي يسهل في النهاية ليس السيطرة عليه فحسب، بل سجنه لصهره فيما بعد، وكل ذلك بقصد تصفية شعب واغتيال وطن بكل ما للكلمتين من معنى.

سوف لن نتطرق الى التخلف وعدم اتاحة الفرص والحرمان المقصود الذي تعرض له، والذي كان من المفروض، بعكسه، ان يُضاف الى خزينه الحضاري الكثير، بل سنقصر الحديث عن الخزين الذي كونه شعبنا بنفسه، عبر تاريخه المديد، والذي اضرم النظام الفاشي فيه ناراً هوجاء حولته رماداً وبالكيفية التي باتت جلية تماماً للجميع.

ان حجم ذلك التدمير، والمعروف لدى الكثيرين منا، لو عبّرنا عنه بلغة الارقام، قد يصدمنا بنتيجة لم نكن نتحسسها من قبل. وللاسف، لا نمتلك مصادر دقيقة لذلك، ومع انه وخلال سنة من التحرير، نشأت اكثر من منظمة لاعمار وتطوير كردستان، إلا انهم لم ينشروا ارقاماً شاملة يعتمد عليها لحد الآن، ولذلك نضطر الى التخمين

وكما هو معروف، فان أكثر من (٣٥٠٠ قرية)، كحد ادنى، قد تم ازالتها تماما، (هناك ارقام اخرى اكثر بكثير، فمنظمة حقوق الانسان في كردستان، المتشكلة حديثا، تذكر (٤٥٧٣) قرية ومدينة ـ النشرة الثانية)، ما عدا العديد من المدن والقصبات، واذا لم تكن الظروف كما هي عليه الحال الان، لاصبحت القرى والمدن القليلة المتبقية في عدادها هي الاخرى.

وحسب المعلومات المألوفة فان القرى الكردستانية تتباين في حجومها، ويتراوح عدد الوحدات السكنية فيها من (٢٠ وحدة) الى أكثر من (٣٠٠). وحسب الاحصاء السكاني العام لسنة (١٩٧٧)، فان معدل عدد افراد العائلة العراقية يبلغ (٦) افراد، واذا اخذنا بنظر الاعتبار ظروف الحياة الريفية والوضع الاجتماعي للريف الكردي، بمقدورنا اعتبار ذلك المعدل (٨) افراد. واذ نخمن معدل عدد الوحدات السكنية لكل قرية (٨٠) داراً، يصبح واضحاً ان هناك ما لا يقل عن (٢٨٠) ألف وحدة سكنية قد تم تدميرها مع خدماتها الفنية والاجتماعية، ما عدا القصبات والمدن. والمجموع السكاني الذي ذاق تدمير بنيتها العمرانية، حسب التخمينات الآنفة، كحد أدنى، يبلغ أكثر من مليوني وربع مليون شخص، يسكنون رقعة جغرافية تبلغ مساحتها اكثر من (٨٠) ألف كيلو متر مربع تشكل بمجموعها كردستان العراق، قد دمر بنيانها الحضري كلياً، وبالتالي قارب بيانها الاجتماعي الخراب. وهم الآن، اما مجهولو المصير، كالبرزانيين، أو مفقودون في عمليات الانفال البغيضة، أو هجّروا الى معسكرات قسرية أنشأت على عجل قرب المدن الكبيرة الثلاث، والتي لا يمكن اعتبارها صالحة للحياة من وجهة نظر حضارية، ناهيك عن وجهة النظر الانسانية.

عندما نقارن تلك الارقام وهذا الحجم من الخراب، يظهر ان ما دمر في كردستان يقارب احجام دول وبلدان قائمة بحد ذاتها، بل صعف بعض اعضاء في منظمة الامم المتحدة... فلتبدأ مسألة الاعمار منطلقة من هذه الحقيقة.

ان اعادة بناء الكم الهائل من البيوت ومرافق الخدمات والتي انشأها مستوطنو قرانا ومدننا عبر مئات السنين، لمهمة كبيرة ومجهود ضخم حتماً، لا يمكن، بأي حال من الاحوال، علاجها بالترقيع والترميم الذي تقوم به هذه المنظمة الخيرية أو تلك الجهة السياسية أو تلكم المنظمة الحديثة لاعادة الاعمار، لان هذه المهمة الجسيمة تحتاج، اول

ما تحتاج، الى دراسة معمقة وافية، وتحديد اهدافها العملية، ورسم خطة شاملة، انفذ على مراحل حسب ستراتيجية متفق عليها مسبقاً، وكما سنذكرها تفصيلاً فيما بعد.

ان هذه المهمة، الجليلة حقاً، لا يعتمد تنفيذها على اعمال البناء فقط، بل يتعداها الى جوانب اخرى اهم، سنحاول التطرق اليها فيما يأتي.

هناك شرط اساسي يكمن في غيابه فشل أي مجهود يبذل لهذا الغرض، ألا وهو الامن والاستقرار في كردستان، وارساء الارضية السياسية المناسبة للعملية العمرانية ليتمكن شعب كردستان من ان يقرر اموره بنفسه، في ظل نظام ديمقراطي وبرلمان بنزاهة، ان يقرر شؤونه وعلى نفسه من غيره، كائن من يكون، وأكثر دراية بكيفية مداواة جروحه. ومع ان هذا الموضوع يقربنا من مسائل سياسية ولا نقصد الحديث عنها هنا. إلا ان من المهم الاشارة الى انه في ظروف، كتلك الكردستانية، من القلق وعدم الطمأنينة والالم والعذاب نتيجة ثلاث حصارات متداخلة (اذا اضفنا حصار اللصوص والمهربين من عندنا الى الحصار الدولي والحصار الصدامي)، فان المهمة يستحيل انجازها. واذا لم تسنح اوضاع سياسية كتلك التي اشرنا اليها، تصبح المسألة حُلماً، ولا تتعدى شعارات ووعود فضفاضة لا تسمن ولا تغني عن جوع.

ان ما ذكرناه، ليس بقصد احباط المعنويات والتقليل من قيمة الجهود والمحاولات التي لاتزال تبذل، ولكنه يجب ان لا تقيّم بأكثر من حجمها. فهي في احسن الاحوال لا تتعدى حلاً مؤقتاً للجموع المشرّدة من شعبنا الجريح التي ابتلت بكل شيء. ان ما يجري في هذا المجال لا يعني الاعمار، وخاصة عند مشارف القرن الحادي والعشرين، انها اكثر من كونها علاجاً مسكناً، مع اهمية ذلك.

الجانب الآخر، والاهم، المتعلق بالاعمار، هو الجانب الاقتصادي. نبدأ بسؤال: الاعمار بأي معنى؟ هل يعني اعادة بناء القرى مثلما كانت قبل الخراب، أم بمعنى تطويرها؟ اذا كان القصد حسب الشق الثاني، فسنضطر الى التطرق لتاريخ هذه القرى بشيء من الايجاز.

لا ريب ان مجمل تلك القرى، التي تعد بالآلاف، تكوّن ثروة قومية. انها تجميع وتخزين للجهد والعمل المتواصل لفترة طويلة، أنجز تحت ظل التخلف الحضاري، في ظل العلاقات الاقطاعية بأكثر اشكالها تخلفاً: وهي ذات الطابع العشائري والمختوم بعبارة القبيلة... كان الناتج آلاف القرى الصغيرة المتناثرة، المتباعدة هنا وهناك، لسكان منقطعين عن بعضهم وعن العالم، يعتمدون على الانتاج الزراعي والحيواني في الحيازات الصغيرة الضيقة، الخاصة، في حدود العلاقات الاقطاعية الصارخة قبل ثورة تموز ١٩٥٨، وفيما بعد، في ظل علاقات شبه اقطاعية وعلاقات رأسمالية متناهية بصورة حقول شخصية،

عائلية، واشكال اخرى. وخلال العقدين المنصرمين، قبل حملات التدمير الشاملة الاخيرة، وكحصيلة لسياسة الاهمال لكردستان العراق بصورة عامة، فان اشكال ومواد البناء والخبرة والخطط المستعملة في الانشاء، ظلت بدائية، وحرم الريف من التطور الحضاري العالمي الذي شهد متائر متسارعة في الاندفاع الى امام. ذلك هو الواقع الذي عاشته قرانا قبل التدمير والذي تعيشه القلة القليلة المتبقية حالياً.

هل في النية ارجاع نفس الواقع؟ أي هل المقصود بالاعمار احياء نفس الحياة الاجتماعية ـ الاقتصادية، في ظل نفس النشاطات الانتاجية في عين الاطار الضيق للملكية الخاصة الصغيرة؟ اذا كان الامر هكذا، فان القرى، حتى اذا بنيت بمواد ومخططات حديثة، فانها، في المحتوى الاجتماعي، ستحتضن نمط الحياة والحضارة السابقة، واذا كان المقصود غير ذلك، فان اسئلة اخرى ستثار: هل سيعمد الى تغيير العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية؟ هل ملكية الارض ووسائل الانتاج ستغير من وجهتها؟ هل سيلجأ الى الانتاج الكبير والواسع؟ هل سنعتمد نشاطات اقتصادية اخرى، بجانب الزراعة، مثل الصناعة وبناء المراكز التجارية والتعدين والسياحة وغيرها؟ هذه النشاطات ليست ضرورية فحسب، بل تشكل الفقرات المحطمة من العمود الفقري للاقتصاد الكردستاني، واذا كان ذلك في النية، فكيف وأين وبأي حجم ستتحقق تلك النشاطات؟

ما هو بديهي ان أية سياسة اقتصادية لكردستان ستكون لها انعكاساتها في التخطيط الحضري والاستيطان السكاني وتوزيع القرى والمدن وخدماتها الاجتماعية والفنية. هنا، سنعرض وجهة نظر موجزة: ان الطبيعة الكردستانية وخصائصها الاقتصادية، في عالم اليوم، مناسبتان تماماً لسياسة اقتصادية مستقلة في المجال الصناعي ـ الزراعي المتداخل، أي الصناعات المعتمدة على الزراعة، واذا تمت تنميتهما بصورة متوازية وفي اطار الانتاج الكبير والواسع، وليكن بأي شكل من اشكال الملكية: رأسمالية، تابعة للدولة أو الاشخاص، أو تعاونية أو اشتراكية أو بأي شكل آخر من الملكية، ولكن في اطار الاستثمار الضخم والواسع، فانها ملائمة لحاضر كردستاننا. وعن طريق سياسة اقتصادية كهذه، نستطيع توديع الواقع المتخلف لحياتنا الريفية. ويكون بالامكان خلق المقومات المادية لانشاء قرى عصرية كبيرة ومتنامية، متطورة في مضمونها الحضاري الاجتماعي، فضلاً عن العمراني. وستتجمع وبشكل اختياري تلك القرى المتناثرة وتتوحد في مدن وقصبات صغيرة. وبالطبع فان سياسة اقتصادية كهذه، يجب ان تكون متزامنة مع سياسات لنشاطات انتاجية اقتصادية اخرى متنوعة.

اذا نظرنا نظرة متفحصة، في ضوء ما ذكرناه يظهر بان المسألة في الاساس هي سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعية، تشكل بمجملها المسألة الحضارية العمرانية.

انها مهمة ضخمة اذن، وتخرج عن اطار بناء اربعة جدران وسقف، بل ينبغي بالنظر اليها نظرة شمولية.

ما العمل اذن؟ بصورة موضوعية، كخطوة اولى، يجب اعادة القرويين المهجرين كل الى دياره بصورة اختيارية. ومع صعوبة هذه الخطوة، اذ ان هؤلاء قد تغيرت مهنهم وارتبطوا بمصالح متنوعة أخرى في اماكن استيطانهم الجديدة، يجب تشجيعهم وتمكينهم لذلك، بكل السبل، ان يعيدوا بناء قراهم بصورة مؤقتة وحسب خبراتهم منذ سنين طوال، وان يتم توفير الخدمات الفنية لهم، بأسرع وقت واقل كلفة. وبصورة متوازية، ينبغي تهيئة الارضية السياسية المناسبة عن طريق ارساء الاجواء الديمقراطية، ومعها، يتم وضع الخطط والبرامج الشمولية، من قبل الاقتصاديين والسياسيين، للتنمية الاقتصادية بدقائقها، للوقت الراهن ولعدة سنوات مقبلة. وفي ضوء تلك الخطط، يجب تفصيل مسألة الاعمار وان هي تجري على هيئة حملة وطنية شاملة: تبدأ بدراسات واسعة ومعمقة، تُحدد اهدافها من قبل الجهات المقررة، ومن ثم وضع خطة بعيدة المدى للاعمار تنفذ على مراحل، وبموجب تصاميم ومخططات معمارية وهندسية معاصرة، تستجيب للظروف الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية لمستقبل كردستان المرتقب وليس ما ضيها، وكل ذلك باشراف وتنفيذ مؤسسة فنية واسعة بمقدورها القيام بجملة ضخمة وصعبة مثل هذه، وبدون أي تدخل في شؤونها، وان تضم جميع المختصين والفنيين والمهندسين لها، وان تشرع في العمل بموجب الستراتيجيات المعدة لها مسبقاً...

ان عملية الاعمار هذه، في حقيقة الامر، عملية مستمرة على الدوام، اذ ان الاعمال التي تنجز، تستغرق فترة زمنية، والوتيرة المتسارعة للتقدم الحضاري في العالم تحتم تطوير ما تم انجازه... وهي بحد ذاتها، عملية تحتاج الى موارد طائلة، وضخمة من المهندسين والعمال، والاكثر، كميات لا متناهية من مواد البناء المتنوعة تكفي لاعادة بناء وتطوير بلد مترامي الاطراف مدمر كلياً. ولكن، ولحسن الحظ، فان توفر اغلب هذه المستلزمات في كردستان الخيرات، اذا ما تم خلق الاجواء والظروف المناسبة، سيجعل من هذه المهمة الصعبة جداً، لكن النبيلة حقاً، ميسورة الى حد كبير.

١٩٩٢/٤/٢٠

ندوة عالمية
«حول الرأسمالية والاشتراكية في عالمنا المعاصر»

د. عبد الرؤوف حسين علوان

لمناسبة صدور العدد (٥٠٠) من الزميلة «نضال الشعب» لسان حال اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، اقيمت مابين ١١ ـ ١٣ آب ١٩٩٢ في دمشق الندوة العالمية حول الرأسمالية والاشتراكية في عالمنا المعاصر وافتتحت الندوة بحضور الرفيق خالد بكداش الامين العام للحزب، والرفيق يوسف فيصل الامين العام للحزب الشيوعي السوري الموحد، والرفيق علاء الدين عابدين عضو اللجنة المركزية لحزب البعث العربي الاشتراكي، بالاضافة الى ممثلي (٣٢) حزباً وحركة شيوعية وتقدمية ودار النقاش حول المواضيع التي تضمنتها ورقة عمل الندوة وهي :

١ ـ السمات الاساسية للرأسمالية المعاصرة.
٢ ـ الرأسمالية المعاصرة والعالم الثالث.
٣ ـ الرأسمالية والثورة العلمية التكنيكية.
٤ ـ الرأسمالية العالمية والبيئة.
٥ ـ النظرية والتطبيق في التجارب الاشتراكية التي انهارت.
٦ ـ مشاكل التطبيق الاساسية في بناء الاشتراكية.
٧ ـ سمة العصر في ضوء المتغيرات الاخيرة.

وقد أوضحت المداخلات والمناقشات ان الحدود الفاصلة بين المواضيع ضيقة جداً، وتداخلها يفترض معالجتها بترابطاتها، ولهذا حملت المساهمات قضايا متنوعة يمكن التوقف عند البعض منها:

أولاً ـ الرأسمالية والاشتراكية، وسمة العصر

فكرتان برزتا بصدد «سمة العصر». الاولى ترى ان «النضال بين الرأسمالية والاشتراكية يشكل مضمون عصرنا»، وان «الصراع الطبقي هو محرك التاريخ». والثانية ترى انه لم يعد بالامكان الاخذ بمضمون العصر كما في السابق بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وبلدان اوروبا الشرقية.

وفي اطار الفكرة الاولى قدم الدكتور قدري جميل (عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري، سكرتير تحرير «نضال الشعب») تحليلاً يعتمد «الشكل» و «الجوهر» مشيراً الى انه «مع تغير اشكال تجلي الامبريالية المعاصرة يتصور البعض ان التناقض الاساسي فيها قد زال بينما الذي تغير في الواقع اشكال تجلي هذا التناقض». وللكشف عن هذه الاشكال «رجح» التركيز على ثلاثة محاور هي: الرأسمالية والعالم الثالث، والرأسمالية والطبيعة، والرأسمالية والثورة العلمية التكنيكية.

وبعد ان حلل كل محور من هذه المحاور خلص الى ان الرأسمالية ستكون بمواجهة العالم الثالث لأن «الواقع الجديد نفسه يقرب ويوحد هذه البلدان في نضالها من أجل كسر طوق الاستغلال الامبريالي بشكل جماعي»، وفي مجال الطبيعة سيكون التناحر بين الرأسمالية والبشرية لان «عدم حل التناقض التناحري بين العمل والرأسمال ضمن المنظومة الاجتماعية نفسها أدى الى ظهور التناقض التناحري بين الرأسمالية كمنظومة وبين الطبيعة، اي بكلام آخر بين الرأسمالية والبشرية كلها»، وفي مجال الثورة العلمية التكنيكية فان الرأسمالية ستدخل في تناقض مع «العمل الذهني» على اعتبار ان «تقدير قوة العمل التي كان يسود فيها العمل العضلي يجري حسب ماركس على اساس تقدير قيمة تلك المواد الضرورية لاستمرار قوة العمل في الحياة، فكيف سيتم تحديد قيمة قوة العمل التي سيسود فيها العمل الذهني؟ ان ميزة العمل الذهني تكمن في ان اعادة انتاجه تتطلب تأمين جميع المتطلبات المادية والروحية له كي يستطيع اعادة انتاج نفسه. وفي هذا خصوصيته. لذلك تدخل الرأسمالية في تناقض جديد مع نوع العمل الجديد. فهي غير قادرة على تأمين كل المتطلبات المادية والروحية لهذا النوع من العمل الذي سيصبح شيئاً فشيئاً واسع الانتشار، ذلك يعني بكل بساطة تخليها عن القيمة الزائدة.وهي غير

قادرة على فعله بسبب طبيعتها. وفي هذه الحال تصبح عائقاً امام التطور اللاحق للقوى المنتجة».

اما لجهة تحليلاته الاشتراكية فقد أشار الى «ان جذور مشكلة الاشتراكية كمرحلة انتقالية بين نمطين من الانتاج المادي، بين تشكيلتين اجتماعيتين، تكمن في القضايا الثلاث التالية التي يقوم الفكر النظري الماركسي بتعميق البحث عنها: ١ ـ التناقض الاساسي بين مساحة الانتاج البضاعي واللابضاعي، المستند تقديره الى المستوى الملموس لتطور القوى المنتجة ٢ ـ التناقض بين المركزية واللا مركزية في ادارة الاقتصاد والمجتمع ٣ ـ تحديد مستوى الديمقراطية كمعطى موضوعي وليس أرادوي، مستند الى مستوى تطور القوى المنتجة والمستوى الحضاري ـ الثقافي في المجتمع» مشيراً الى انه: «في ظل ما حدث، يصبح ارتباط وجود الحضارة البشرية مرتبطاً بتقدم الاشتراكية». وختم مداخلته بالقول ان «الرأسمالية اثبتت عجزها عن حل أية معضلة تواجهها البشرية بل اوصلتها الى طريق مسدود والبديل الوحيد هو الاشتراكية التي لابد ان تظهر من جديد وبشكل أرقى من ذي قبل. فالمعادلة اصبحت بسيطة اليوم الاشتراكية = استمرار الحضارة البشرية. ووعي البشر بهذه الحقيقة سيفتح المجال لتحقيقها. فجبهة القوى المعادية للرأسمالية موضوعياً تمتد لتشمل اليوم كل من له مصلحة باستمرار الحياة على الارض».

ثانياً ـ الانهيار ـ أسباب ونتائج

توقف المنتدون عند الاسباب التي أدت الى انهيار الاتحاد السوفييتي، موزعينها على مستويين، الاول خارجي وفي هذا المستوى جرت الاشارة الى ان الهجوم الامبريالي الاقتصادي والسياسي، والمجابهة، والحرب الباردة، والمساعدات التي كان يقدمها الاتحاد السوفييتي الى البلدان الاخرى، وتضخيم دور بعض الحركات الوطنية في دول العالم الثالث على حساب الحركات التقدمية والشيوعية، وتأزيم الصراع السوفييتي ـ الصيني، كلها أسباب أثرت على الاتحاد السوفييتي.

اما على المستوى الداخلي، فقد جرت الاشارة الى عدم التمسك بالمبادىء الرئيسية الضرورية في بناء الاشتراكية، والتبسيطية في فهم الاقتصاد السياسي، والاخلال بمبدأ التوزيع العادل، الامر الذي أدى الى نشوء اقتصاد الظل، وتخلف علم السوسيولوجيا، والسطحية في فهم الظاهرة القومية، والدور التخريبي الذي لعبه الصهاينة في الاحداث، ونشوء الاختلالات بين العلم المتقدم والتكنولوجيا المتخلفة، بين الصناعة المتقدمة

والـزراعـة المتخلفة، وبين الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسة المغيبة، بين المركز والجمهوريات، بين القيادة والقاعدة، بين تطور الانتاج العسكري وضعف الانتاج المدني، وابتعـاد الحـزب عن الجمـاهير القـريبـة للطبقـة العاملة، وطرح فكرة اللا ـ ايديولوجيا، وتقدم الانتهازية بعد المؤتمر العشرين.

وقـد ركـزت نينـا انـدرييفـا (الامنية العامة للحزب الشيوعي البلشفي لعموم الاتحاد السوفييتي) على المسألة الاخيرة. والموضوعة المبرزة من قبلها هي «معاداة الستالينية»، اذ نظرت اليها اندرييفا وكأنها الاساس لكل ماحدث في الاتحاد السوفييتي.

ومقـابـل، نظرات اندرييفا، نحت مداخلات أخرى إلى ابراز الطابع الشمولي للدولة السوفييتية، والتأكيد على مسألة الديمقراطية. وجرت الاشارة ايضاً الى الظهور التدريجي لعـواقب ديكتـاتـورية البروليتاريا، وابراز الآثار السلبية لصيغة المركزية الديمقراطية في ظروف النقل الفعلي للسلطة من الجماهير الى البيروقراطية الحزبية.

على صعيد آخر، توقف المنتدون عند النتائج وقد اجمعت المداخلات على ان انهيار الاتحاد السوفييتي وبلدان اوروبا الشرقية ادى على الصعيد الدولي الى ظهور ماسمي بـ «النـظام الدولي الجديد» بزعامة الولايات المتحدة، مؤكدين على مايتركه ذلك من آثار سلبية على البلدان النامية.

امـا مايحصـل الآن داخـل الاتحـاد السوفييتي فقد تحدث فلاديمير غوسوف (عضو اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي الروسي، وعضو منظمة روسيا الكادحة)، ونينا انـدرييفـا التي قالت: (ان ادخـال العلاقات الرأسمالية في الاقتصاد الاشتراكي بصورة تعسفية قد نسف التقـدم العلمي والتكنيكي. فقـد هدموا المجمع الانتاجي الفريد من نوعه من حيث تكامله، ويعطلون المنظومة الطاقية الموحدة، ويطفئون الافران العالية، ويوقفـون عن العمـل حتى الالف مؤسسـة شهـرياً، وتتخـرب أثمن الآليات، وكـذلـك الخـامـات النـادرة التي تتـوزع ذات اليمين وذات الشمـال، وتغـرق المناجم، وتخرج الحقول من الدورة الزراعية». ثم قالت «شملت الازمة العميقة القوة المنتجة الرئيسية، اي منتجي الخيرات المـادية والـروحية، وبدأ النمو المتسارع في نسبة البطالة. وقالت ايضـاً «تتـولـد دون آفاق وحدود مسألة الادمان على الكحول والمخدرات والدعارة التي تهلك الشبيبـة واصبـح الجـوع من نصيب الـطلبـة والمتقاعدين. وان عدد الانتحارات السنـوية يفـوق عدد الخسائر في حرب العشر سنوات في افغانستان، وان نسبة الوفيات تفوق بنسبة خطرة نسبة الولادات الأيلة الى الانخفاض». كما وتحدثت عن «الرأسمال

المحلي» الـذي ينظم احزابه السياسية ويستولي على المواقع الرئيسية في هيئات سلطة الدولة، وان النزعة القومية هي يافطته الايديولوجية».

ثالثاً: حول المركز الدولي للحركة المعادية للرأسمالية

شغلت هذه المسـألـة حيزاً هامـاً في مداخـلات ومناقشات المنتدين فقد ركزت نينا انـدرييفـا وجهة نظرها بهذا الصدد بنقاط ثلاثة: ١ - ان «العوامل الموضوعية لتحطيم الثورة المضادة بادية للعيان. وفي هذا الظرف يتخذ العامل الذاتي أهمية حاسمة وقالت: «يرى البلاشفة ان الاحزاب الماركسية اللينينية هي التي ستكون قادرة على التخلص من احد اكثر اشكال الانتهازية خطورة الا وهو معاداة الستالينية»، ٢ - «الهزيمة المؤقتة التي اصيبت بها الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي واوروبا قد غيرت نسبة القوى لصالح الامبريالية والرجعية، وشكلت بداية الازمة في الحركة العمالية والشيوعية العالمية (. . .) وادت هذه الهـزيمـة موضوعياً الى انتقال مراكز الاشتراكية العالمية والحركة الثورية الى بلدان آسيا وامـريكا اللاتينية. ويجري الانتقال من الغرب الى الشرق بفعل قوانين موضوعية مغتنياً بتجربة الشعوب»، ٣ - ان سياسة اعادة احياء الرأسمالية في الاتحاد السوفييتي التي تنتهجها قوى الـرجعية الداخلية والخارجية تعتبر الآن التوجه الرئيسي للصراع العالمي. ان الطابع العالمي للثورة المضادة للبرجوازية تجعل النضال الاممي ضدها ضرورياً جداً. وبكلمات أخرى، ان تشترك في هذا النضال الحركة الشيوعية العالمية وكل القوى التقدمية، فالخطر المتزايد على السلام والاشتراكية يتطلب طرح اقامة منظمة عالمية للشيوعيين والاعداد لاقامة مثل هذه البنية التنسيقية سيسـاعد على زيادة التضامن».

اشـارت انـدرييفـا الـى الحـاجـة الى « منـظمـة عالـمية » .بـ« بنية تنسـيقية » ، دون ان تتـعـرض الى الـمقتـرحـات الملمـوسـة . ولكن فاسـلاف بابيش (عضـو اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في التشيك وموراڤيا، رئيس المجموعة البـرلمانية الشيوعية) اشار في كلمة له الى وجود «مقترحات عملية وليست أوهام» بهذا الصـدد ورأى ان السير على طريق تشكيل لجان اعداد وتحضير، ولجان تحضيرية، لا توصلنا الى الهدف المنشود بسهولة، ربما من المفيد الاكثار من الندوات، كندوتنا هذه، ونـدوات عالمية كلمـا توفـرت لها الامكانية، او اقامة مؤتمر استشاري عالمي للاحزاب الشيوعية واليسارية، مثلاً والحزب حر في المساهمة وبدون اي الزام. وطرح ايضاً فكرة اقـامـة لجنة استشارية عالمية. ولكنه المح الى المشاكل التي يمكن ان تنشأ عند اقامة

مثل هذه اللجنة على اساس التمثيل او الانتداب. واكد على اهمية الجانب المالي في اقـامـة مثـل هذه الفعاليات، مشيراً الى ان الرفيق (فرانز موري) قال، باسم الشيوعيين النمسـاويين في لقاء للاحزاب الشيوعية في اوروبا، انهم قادرون على المساعدة لاصدار مجلة، انـه لا يقصـد احياء مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»، بل المساعدة في طباعة ونشـر مجلة بعدة لغات. وفي ختام مداخلته استدرك بابيش قائلاً: ان هذه المقترحات ليست سوى خطوط عريضة يتوجب دراستها.

أما اغاممنون ستافرو (عضو اللجنة المركزية، عضو لجنة العلاقات الخارجية، عضو المكتب الفكري لحزب اكيل القبرصي فقال ان الوضع يتطلب وحدة الطبقة العاملة لصون العدالة والامن الحقيقي، ويتطلب تبادل الآراء بين الأحزاب، ولكنه قال: «اننا لا نؤيد تكوين مركز جديد (..) اننا نؤيد حرية الحزب ان يخطط لسياساته ضمن ظروف بلده. اننا نؤيد تقوية الروابط مع جميع القوى التقدمية والديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والبيئويون».

حقوق الانسان في العراق وازمة الخليج

أصدرت المنظمة العربية لحقوق الإنسان (مركزها بالقاهرة) تقريرها لعام ١٩٩١ بعنوان «حقوق الإنسان في الوطن العربي». ويقع الجزء الخاص بالعراق في ٣٥ صفحة، . وننشر في هذا العدد المقدمة مع القسم الأول. وفي العددين التاليين سننشر القسم الثاني وعنوانه: تطور حالة حقوق الإنسان تشريعاً وممارسة».

ظل العراق طوال العام ١٩٩١ بؤرة الأحداث الرئيسية في الوطن العربي، ومصدر القلق المتجدد للضمير الإنساني. فخلال الشهرين الأولين من العام، ارتكبت قوات الاحتلال العراقي بالكويت كمّاً هائلاً من الانتهاكات، بلغ ذروته قبيل الانسحاب باعتقال آلاف من المواطنين الكويتيين عشوائياً واصطحابهم للعراق لمبادلتهم كأسرى، أو استخدامهم كوسائل ضغط، وحرق آبار النفط الكويتية، وتسريب البترول إلى الخليج مما أفضى لواحدة من أسوأ الكوارث البيئية في العالم، كما رددت ذلك وسائل الإعلام والتقارير السياسية الواردة من منطقة الخليج.

واعتباراً من السابع عشر من يناير/ كانون الثاني تعرض العراق لهجوم جوي ثم بحري وبري واسع المدى استمر ٤٣ يوماً، وفق الهدف المعلن لتحرير الكويت، والذي ترجم عملياً إلى التدمير المنظم والشامل لكافة قدرات العراق، وأسفر عن قتل عشرات الآلاف من العسكريين والمدنيين، وتدمير البنية التحتية ومصادر الطاقة والجسور وغيرها.. وأعاد العراق ـ على نحو ماصورته البعثات الميدانية للأمم المتحدة التي زارته عقب الحرب ـ إلى العصر ماقبل الصناعي.

وخلال شهري مارس وأبريل/ آذار ونيسان، شهدت البلاد حركة احتجاجات أهلية واسعة النطاق، وإجراءات قمعية صارمة لقمعها، أسفرت عن مزيد من الخراب راح ضحيته آلاف من القتلى، واعتقل خلالها عشرات الآلاف قدرها المقرر الخاص بحالة العراق في الأمم المتحدة بنحو ١٥٠ ألفاً. كما أسفرت عن أكبر حركة هجرة ونزوح «شهدها التاريخ» طبقاً لتقديرات المفوضية السامية لشؤون اللاجئين.

ولم تقتصر معاناة الشعب العراقي على ضحايا الحرب، والإجراءات القمعية فحسب، بل استمر الحصار الاقتصادي مصدراً لمزيد من المعاناة، وسقط الآلاف من الأطفال والمرضى نتيجة نقص الغذاء والدواء، ومن المؤسف أن كارثة الحصار انطوت على مفارقة كبرى. فبينما يشكو العراق متاعب الحصار ويناشد الضمير الإنساني في مساندة مطلبه الخاص برفعه، كانت قواته، ولا تزال، تفرض حصاراً قاسياً على بعض المناطق الكردية لأسباب سياسية وأمنية.

وقد ضاعف من طابع المأساة ماكشفته الأحداث العاصفة التي مر بها العراق من أوضاع ووقائع، تتعلق بأحداث جارية أو سابقة، فعبر الانسحاب المفاجيء من الكويت خلفت القوات المنسحبة وثائق تختص بالعديد من الأوامر القيادية والقرارات والإجراءات توضح الكيفية التي أدارت بها سلطات العراق الكويت. وقد اطلعت المنظمة العربية لحقوق الإنسان على بعض هذه الوثائق وتعتقد أن هذه الوثائق لم تلق ماتستحقه من عناية بعد، وتستحق أن يتم دراستها «كدراسة حالة». كذلك كشفت أحداث الجنوب والشمال في العراق عن العديد من مراكز الاحتجاز السرية تضم محتجزين في حالة غير إنسانية انقطعت صلتهم بالعالم منذ عهد الرئيس السابق أحمد حسن البكر. كما تحصلت المعارضة في المدن التي سقطت بأيديها خلال الاضطرابات على وثائق ومعلومات في المقار الرسمية والمراكز الأمنية تفصح عن واقع مؤسف. وقد تلقت المنظمة أيضاً العديد من هذه الوثائق، وتعكف على دراستها، وتعتقد أنها ـ بدورها ـ تستحق قدراً كبيراً من الاهتمام. وقد نشر المقرر الخاص لحالة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة بعضاً من هذه الوثائق في تقريره المقدم إلى لجنة حقوق الإنسان في شهر فبراير/ شباط ١٩٩٢[1].

وبالنظر إلى طبيعة التطورات التي شهدتها البلاد خلال العام، فإن هذا التقرير ينقسم إلى قسمين: الأول يعالج آثار حرب الخليج وتداعيات الحصار الاقتصادي على أوضاع حقوق الإنسان بالعراق، ويلقي الضوء على قضية الأسرى والمفقودين باعتبارها إحدى المشكلات الناجمة عن احتلال الكويت ونشوب الحرب. أما القسم الثاني فيختص بدراسة تطور حالة حقوق الإنسان خلال عام ١٩٩١ تشريعاً وممارسة من خلال التبويب التقليدي الذي درجت المنظمة على اتباعه في التقارير الأخرى.

أولاً: حقوق الإنسان في ظل أزمة وحرب الخليج

النتائج المترتبة على الحرب والعقوبات الاقتصادية:

دفع الشعب العراقي ثمناً فادحاً باندلاع حرب الخليج في السابع عشر من يناير/ كانون الثاني ومارافقها من انتهاكات للقانون الدولي الإنساني في ظل ضراوة القصف الجوي الذي شنته قوات التحالف الدولي والذي امتد إلى مواقع مدنية وأسفر عن تدمير متعمد للبنية الاقتصادية فضلاً عن مصرع آلاف المدنيين. وقد بلغت ضراوة القصف الجوي حدوداً غير مسبوقة حيث أشارت بعض التقديرات إلى أن طيران التحالف الدولي قد أسقط على كل من العراق والكويت على مدى ٤٣ يوماً مايفوق وزناً ماأسقطته الولايات المتحدة الأمريكية على فيتنام خلال ثمان سنوات ونصف من الحرب معها.

ويصعب التوصل لأرقام محددة توضح حصيلة خسائر الحرب سواء من المدنيين أو العسكريين وخاصة في ظل حرص العراق وقوات التحالف منذ بداية الحرب على التعتيم على هذه الخسائر لأغراض سياسية. وهو ماأدى في النهاية إلى تعدد التقديرات وتباينها بصورة كبيرة. ففيما أشارت بعضها إلى أن خسائر العراق من العسكريين لاتتعدى بضعة آلاف، فقد رجحت بعض المصادر أن نحو ٧٠ ـ ١٠٥ آلاف من الجنود العراقيين قد لاقوا مصرعهم، بينما وصلت بعض المصادر بأرقام القتلى من الجيش العراقي بنحو نصف مليون.

ومن الثابت أن أعداداً كبيرة من الجنود العراقيين قد قتلوا في خنادقهم أو خلال انسحابهم إلى داخل الحدود العراقية. وقد أثارت بعض التقارير الصحفية الأمريكية وقائع دفن آلاف من الجنود العراقيين أحياء خلال الموجات الأولى للهجوم البري الذي قامت به الدبابات الأمريكية. وقد اعترف المتحدث الرسمي باسم وزارة الدفاع الأمريكية بأن الدبابات الأمريكية المزودة بجرافات دفنت جنوداً عراقيين كثيرين أحياء، غير أنه أضاف إنه لايوجد نص في اتفاقية جنيف يحظر هذه العملية ولاتوجد طريقة لطيفة لقتل شخص في الحرب.

وطبقاً للمصادر العراقية الرسمية فإن ٧٠٠٠ من المدنيين قد قتلوا خلال أعمال القصف الجوي الذي شمل كافة أنحاء العراق، والذي كشفت بعض التقارير التي تجمعت لدى المنظمة، أن هذا القصف لم يقف عند حدود الأهداف العسكرية البحتة أو الأهداف التي تخدم المجهود الحربي العراقي. وسجلت التقارير العديد من أعمال القصف التي

انتهكت فيها قوات التحالف القانون الدولي الإنساني واتفاقيات جنيف التي استهدفت حماية المدنيين من آثار الحرب المدمرة. حيث تم قصف العديد من الجسور في وضح النهار وفي توقيتات تتسم بكثافة العابرين من المدنيين، بل واستهدف القصف أحياناً تجمعات مدنية لم تكن قريبة من أهداف عسكرية أو من أهداف تخدم المجهود الحربي العراقي وتستبعد التقارير أن يكون قصف مثل هذه المواقع قد جاء على سبيل الخطأ، وخاصة بالنظر للتفوق الجوي المطلق لطيران التحالف.

ومن بين ماأشارت إليه التقارير، على سبيل المثال، قصف أحد الجسور بالناصرية في جنوب العراق، في منتصف النهار، مما أدى إلى مصرع مائة شخص على الأقل، كما لقي نحو مائتين من المدنيين مصرعهم أثناء قصف أحد الجسور بالفلوجة، على نهر الفرات غرب بغداد. وقد زاد من حجم الخسائر خلال هذا القصف أن الجسر يقع بالقرب من السوق المزدحمة. كما رجحت التقارير كذلك مصرع ١٥٠ مواطناً، بينهم عدد كبير من المصريين والسودانيين، خلال القصف الذي تعرضت له منطقة السوق بمدينة الكوت التي تقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر جنوب شرق بغداد.

كما أثار سخطاً واسعاً قيام قوات التحالف بقصف ملجأ العامرية وهو ماأدى إلى مصرع مالايقل عن ٤٠٠ من المدنيين بينهم عدد كبير من الأطفال.

وفضلاً عن ذلك فقد تمخضت أعمال القصف الجوي المركز والمنظم من قبل قوات التحالف عن تدمير واسع النطاق للبنية الاقتصادية للعراق، أدى بدوره بالتضافر مع إجراءات فرض الحصار الاقتصادي إلى نكسة خطيرة على مستوى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والصحية على وجه الخصوص. وقد دمر خلال هذا القصف مالايقل عن اثنين وأربعين من الجسور والكباري والمعابر الأساسية للنقل بالعراق كما دمرت ٩٥٪ من المحطات الأساسية لتوليد الكهرباء.

وقد وصف تقرير بعثة الأمم المتحدة، برئاسة مارتي اهتساري وكيل الأمين العام[٦]، التي زارت العراق في الفترة من ١٠ ـ ١٧ مارس/ آذار ١٩٩١ لتقييم الاحتياجات الإنسانية في العراق، النتائج التي تمخضت عنها الأعمال العسكرية على الهياكل الأساسية الاقتصادية بأنها تشبه أحداث يوم القيامة، مشيراً أن معظم الوسائل الداعمة للحياة الحديثة قد دمرت أو أصبحت هزيلة وأن العراق قد أعيد إلى عصر ماقبل الثورة الصناعية وسيظل كذلك لفترة من الزمن.

ولاحظ التقرير أن غياب الحد الأدنى من الوقود الضروري لتوفير الطاقة اللازمة للحركة والنقل والري وضخ المياه والمجاري والتشغيل يرتب نتائج خطيرة، وقدر أن نحو ٩٠٪ من عمال الصناعة قد أصبحوا في مصاف العاطلين. كما أن الجزاءات التي قررها

مجلس الأمن تؤثر تأثيراً ضاراً على قدرة الحكومة على توفير الغذاء للشعب، ولايبدو أن نظام توزيع السلع الأساسية على المواطنين وفق حصص محددة قادر على توفير الحد الأدنى الضروري من احتياجات الأسر أو على كبح جماح التضخم المفرط، حيث ازدادت أسعار معظم الضروريات الأساسية بنسبة ألف في المائة أو أكثر في نفس الوقت الذي انهارت فيه دخول شرائح عديدة من المواطنين. كما رصد التقرير انخفاض نصيب المواطنين من إمدادات المياه إلى أقل من ١٠٪ مما كان عليه الحال قبل الحرب، فضلاً عن الشكوك في صلاحيتها نتيجة التلوث الشديد بمياه المجاري التي باتت تصبّ في الأنهار، والنقص الحاد في المواد الضرورية لتنقية المياه ومعالجتها وهو ماينذر بأكبر المخاطر الصحية.

وكشفت دراسة ميدانية قام بها فريق علمي من جامعة هارفارد الأمريكية[٣] بعد زيارتهم للعراق في مايو/ أيار عن النتائج الخطيرة للكارثة الصحية التي يتعرض لها الشعب العراقي، حيث أشارت إلى زيادة في وفيات الأطفال منذ نشوب الحرب بنحو ٥٥ ألف حالة. وتوقعت الدراسة وفاة ١٧٠ ألف طفل عراقي في غضون عام، فضلاً عن وفاة آلاف الراشدين. وخلصت الدراسة إلى أن الوضع الصحي العام مازال خارج السيطرة وأن الخدمات الصحية في تدهور متواصل. وسجلت الدراسة ارتفاعاً في عدد الإصابات بأمراض الالتهاب المعوي والتيفوئيد والكوليرا بمعدلات تنذر بتفشي الأوبئة وذلك لأسباب تعود إلى تلوث المياه ونقص التغذية الشديد بسبب حالة المجاعة التي بدأت تخيم على البلاد. وأوضحت الدراسة أن تدمير محطات توليد الطاقة الكهربائية خلال الحرب وماترتب عليه من تعطيل محطات تنقية المياه وشبكة تصريف المجاري هو العامل الرئيسي في انتشار الأوبئة وارتفاع عدد وفيات الأطفال بنسبة تخطت مائة بالمائة. كما لاحظت أن مايزيد على ٥٠٪ من المستشفيات والعيادات الطبية مازالت مغلقة نتيجة للحرب وأن النظام الصحي في تدهور مستمر بسبب النقص في الأدوية والمعدات. وقد دعا الفريق العلمي إلى إرسال معونات غذائية عاجلة للعراق تتضمن مواد غير قابلة للتلف. كما أكد على الحاجة الملحة إلى مختلف أنواع الأدوية، والمولدات الكهربية.

وفي يونيو/ حزيران قامت بعثة أخرى للأمم المتحدة بزيارة العراق برئاسة صدر الدين أغاخان[٤] المندوب التنفيذي للأمين العام للأمم المتحدة. وقد ركز التقرير الذي قدمته البعثة على الاحتياجات الملحة للقطاعات الأساسية المختلفة بالعراق وكلفتها. وأشار في هذا الصدد إلى أن الجزاءات الاقتصادية والمالية المفروضة على العراق، بما فيها تجميد أصوله الأجنبية والحظر على مبيعاته الدولية لنفطه، قد أحدثت أثراً كبيراً على الاقتصاد وظروف المعيشة للسكان المدنيين، وأن آخر احتياطات السلع الأساسية الغذائية

التي توزع وفقاً لحصص تموينية في طريقها إلى النفاد. وأضاف بأن الجهود الكبيرة التي قامت بها الحكومة لإعادة البلاد إلى ماكانت عليه قبل الحرب كانت نتائجها محدودة. وقد أكدت البعثة أن جانباً كبيراً من المشكلات يتصل بتمويل الواردات السلعية أكثر مما يتصل بإجراءات الحظر. . وفي هذا الصدد فقد قدرت البعثة احتياج البلاد إلى ١٣ مليار دولار لتشغيل محطات الكهرباء، و٦ مليارات دولار لقطاع النفط، و ٤٥٠ مليون دولار لشبكات المياه والصرف الصحي و ٥٠٠ مليون دولار للواردات الزراعية، و ٥٠٠ مليون دولار للواردات الدوائية لقطاع الصحة لمدة عام واحد. وقد أوصت البعثة في تقريرها بضرورة اتخاذ خطوات فورية لسد الاحتياجات ذات الأولوية التي حددتها في القطاعات الرئيسية المختلفة. واختتمت البعثة تقريرها بالقول بأنه «لاينبغي أن يكون المدنيون الأبرياء ـ وقبل كل شيء الأضعف ـ رهائن للأحداث التي تخرج عن إرادتهم. فهؤلاء الذين لحق بهم بالفعل خراب الحرب لايمكن أن يستمروا في دفع الثمن لإحلال سلم مرّ، وهو سلم سيثبت أيضاً أنه هزيل إذا ولدت الاحتياجات، التي لم تلبَّ، يأساً متزايداً».

وقد ناقشت البعثة المشتركة للمنظمتين العربية والمصرية لحقوق الإنسان هذه الأوضاع تفصيلاً مع المسؤولين العراقيين. وقد شرح وزير التجارة العراقي للبعثة الأوضاع التموينية حيث توفر الحكومة حصصاً تموينية من السلع الأساسية للمقيمين بأسعار مدعومة وإن كانت تمثل ٤٠٪ مما كان متاحاً من قبل. كما عرض وزير التجارة معوقات حصول العراق على إمدادات الغذاء والدواء في إطار قراري مجلس الأمن ٦٨٧، ٧٠٦ فذكر أن حكومات الدول الغربية ترفض إطلاق أرصدة العراق لديها لشراء الغذاء والدواء في إطار القرار الأول، بينما ينطوي القرار الثاني على انتقاص للسيادة فضلاً عما يحيط به من عراقيل عملية جمة.

كما عرض وزير الصحة على البعثة حالة الدواء وغذاء الأطفال، وزودها بقائمة تعاقدات أفاد بإبرامها مع شركات أوربية وامتنعت حكومات بلدانها عن الموافقة على تغطيتها من أرصدة العراق المجمدة في مصارف هذه الدول.

وقد سجل تقرير البعثة أنه تأكد لديها ماسبق أن عبرت عنه المنظمة العربية لحقوق الإنسان من أن تدمير دول التحالف للبنية الأساسية في العراق، وإيقاع أعداد من الضحايا من المدنيين كان يمكن تلافيها، وأن هذا الموقف قد انطوى على تجاوز صريح للهدف المعلن للحرب «تحرير الكويت» إلى الغرض الخبيث بتدمير مرتكزات الحقوق الاجتماعية والاقتصادية للشعب العراقي.

كما سجل تقرير البعثة أنها لاحظت توافراً واضحاً للسلع في أسواق العاصمة، وإن كانت بأسعار شديدة الارتفاع بالمقارنة بما كان سائداً في العراق من قبل، مما يضع

محدودي الدخل وذوي الدخول الثابتة في خطر الانتقاص من إشباع حاجاتهم الأساسية بشدة. وأن أكثر السلع ندرة في العراق هي الأدوية وأغذية الأطفال مما سيؤدي إلى وضع صحي غاية في التردي بالنسبة للأطفال والمرضى خاصة من الفئات الاجتماعية المستضعفة. وأوصت البعثة بمطالبة المجتمع الدولي بسرعة العمل على توفير هذه السلع من أرصدة العراق المجمدة لدى الدول الأوروبية في إطار قرار مجلس الأمن ٦٨٧، ونوهت بالمبادرة التي اتخذتها انجلترا بإطلاق قسم من المبالغ المجمدة لديها لشراء مواد غذائية ودوائية. بينما نُمّي إلى علم المنظمة أن ثمة دولاً أوروبية أخرى قد تكون على استعداد لإطلاق المبالغ المجمدة لديها لهذا الغرض الإنساني.وقد شددت المنظمة في بيان أصدرته في ١٩٩١/١٢/٢٦ على ضرورة تدارك الموقف الخطير الناجم عن الحصار على الأوضاع الإنسانية الصعبة في العراق وأعربت عن اعتقادها بضرورة إعادة النظر على الفور في قرار الحصار الاقتصادي على نحو شامل يكفل توفير الاحتياجات الأساسية لكافة أبناء الشعب العراقي.

هذا وقد أعلن العراق في ديسمبر / كانون الأول أن ٣٥٠ ألف مواطن توفوا من جراء الحصار الاقتصادي المفروض على العراق وأن أكثر من ١٨٠ ألفاً آخرين يتهددهم الموت مع حلول الشتاء القارس، كما أكد مندوب العراق بالجامعة العربية أن الأدوية اللازمة لعلاج مرضى السرطان قد نفدت تماماً.

والمعروف أن مجلس الأمن قد فرض في أعقاب الاجتياح العراقي للكويت مجموعة شاملة من الجزايات المالية والاقتصادية تضمنها القرار ٦٦١ لعام ١٩٩٠. وقد استثنى القرار من إجراءات الحظر الأدوية والإمدادات الصحية والمواد الغذائية، وإن ألزم العراق في هذا القرار والقرارات الأخرى المتصلة (القرار ٦٦٦ لعام ١٩٩٠ والقرار ٦٨٧ لعام ١٩٩١) بضرورة إخطار لجنة الجزايات والحصول على موافقتها المسبقة. كما وسّع القرار ٦٨٧ من دائرة الاستثناءات وأدرج بها المواد والإمدادات اللازمة لتلبية «الاحتياجات المدنية الأساسية»، المسموح باستيرادها رهناً بموافقة لجنة الجزايات في إطار إجراء «عدم الاعتراض» الخاص بها. لكن هذا القرار لم يعترف بصلة استيراد قطع الغيار والمعدات اللازمة لإصلاح محطات القوى الكهربية وشبكة المواصلات السلكية واللاسلكية بالبرنامج الذي يلبي الاحتياجات الإنسانية للعراق. وفيما يتعلق باحتمال بيع الحكومة العراقية النفط لتمويل هذه الواردات الإنسانية فقد خول القرار ٦٨٧ لجنة الجزاءات سلطة الموافقة على استثناءات من حظر استيراد السلع والمنتجات لجلب الأدوية والمواد الغذائية والإمدادات اللازمة لتلبية احتياجات مدنية أساسية. وسمح القرار ٧٠٦ لسنة ١٩٩١ للعراق ببيع حصة من نفطه في حدود ١,٦ مليار دولار يخصص عائدها لاستيراد الاحتياجات الإنسانية

الملحة لفترة ستة أشهر[٥].

على أن العراق قد أشار إلى ماينطوي عليه هذا القرار من انتقاص للسيادة العراقية حيث لم يكتف القرار بتحديد الحصة المسموح للعراق بالتصرف في بيعها من نفطه بل أناط بلجنة الجزاءات اختيار ثلاثة خبراء في مجال تجارة النفط يوكل إليهم سلطة الموافقة على عقود بيع النفط أو رفضها نيابة عن اللجنة، ويقتصر دور العراق في عملية البيع على توقيع المؤسسة العراقية العامة لتسويق النفط عقداً مع الطرف المشتري.

ورغم التعاطف الدولي مع محنة الشعب العراقي بسبب ظروف الحصار وتأكد الرأي العام العربي من أن الأبعاد الراهنة للحصار تتجاوز الشرعية الدولية، إلا أن ثمة اعتبارات تثير الجدل في هذا الشأن أهمها: أنه في الوقت الذي يشكو فيه العراق من نتائج الحصار الدولي ويعاني آثاره الخطيرة فقد قامت السلطات العراقية بنفس الدور بمحاصرة المواطنين العراقيين الأكراد في كردستان، وقد شمل ذلك حظر الأدوية والأغذية والوقود وزيوت التدفئة وذلك بتخفيض تدفق الحصص المقررة لسكان كردستان إلى ١٠٪ فقط من الحصص المقدمة للمواطنين الآخرين، كما فرضت قيوداً مماثلة على منطقة الأهوار الواقعة في جنوب البلاد.

كما تتجه بعض التحليلات إلى تحميل النظام العراقي مسؤولية استمرار الحصار الدولي والمشكلات الناجمة عنه باعتبار أن قرار مجلس الأمن رقم ٧٠٦ قد سمح للعراق بيع حصة من نفطه لتلبية الاحتياجات الإنسانية. وأن احتجاج العراق بأن القرار يخل بالسيادة العراقية مردود بما سمح به في مجالات أخرى كالتفتيش النووي، والعسكري.
كما أن الإقرار بالمشكلات الحقيقية الناجمة عن الحصار لاينبغي أن تتخذ ذريعة لتبرير انتهاكات للحقوق الأساسية للمواطنين. وقد أوجز المقرر الخاص بحالة حقوق الإنسان في العراق هذه المفارقة بتساؤل حول العلاقة بين نقص بعض قطع الغيار (بسبب الحصار) والشكوى من التعذيب؟

أسرى الحرب والمفقودون

مع توقف العمليات العسكرية في حرب الخليج قفزت إلى صدارة الاهتمامات مشكلات تسليم أسرى الحرب وبينهم بضعة آلاف من المواطنين الكويتيين وغير الكويتيين الذين قامت القوات العراقية باعتقالهم من الكويت ونقلتهم إلى بغداد قبل وقت قصير من انسحابها.

وقد نبهت المذكرة التي تقدمت بها الحكومة الكويتية إلى مجلس الأمن في يوليو/

تموز إلى أن العراق لايزال يحتجز نحو ٤٠٠٠ أسير حرب. وأنه قد عمد مؤخراً لنقل بعض الأسرى والمحتجزين إلى مواقع رفض الكشف عنها أو إعطاء معلومات بشأنها إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر، فضلاً عن منع وصول اللجنة إلى هذه المواقع. ونوهت المذكرة إلى أن العراق قد أفرج قبل سريان وقف إطلاق النار عن ٥٠٦٠ من هؤلاء الأسرى من مختلف الجنسيات بواسطة الصليب الأحمر، وأنه منذ وقف إطلاق النار رسمياً في ١١ أبريل/ نيسان وحتى ١٤ يوليو/ تموز لم يفرج سوى عن ٦٨ من هؤلاء الأسرى والمحتجزين، فيما نجح ١٤٩٨ شخصاً آخرين في الهروب من العراق بوسائل مختلفة وخاصة خلال الاضطرابات التي فقدت فيها الحكومة العراقية السيطرة على زمام الأمور في البلاد.

وقد عُنيت المنظمة العربية لحقوق الإنسان بإجراء وساطات لدى السلطات العراقية المختصة للإسهام في إيجاد حلول لتلك المشكلة التي تؤرق العديد من الأسر وقطاعات واسعة من الرأي العام، وخاطبت السلطات في ضوء ماتلقته من شكاوى وتقارير بهذا الصدد. وقد وجهت نداء في ٣/٧/ ١٩٩١ للإفراج الفوري عن الدكتور غانم النجار أحد أعضائها البارزين في الكويت، والذي كان من بين من اعتقلوا من الكويتيين ونقلوا إلى بغداد. وقد تلقت المنظمة بارتياح أنباء الإفراج عنه في غضون أيام قلائل من النداء الذي وجهته، كما خاطبت السيد وزير الداخلية العراقي بالعديد من الشكاوى التي تلقتها لإجلاء حقيقة مصير العديد من المواطنين العرب الذين انقطعت صلاتهم بذويهم.

وقد تلقت المنظمة في أغسطس/ آب خطاباً من السفير الدكتور نبيل النجم مندوب العراق الدائم لدى جامعة الدول العربية عرض فيه وجهة نظر العراق إزاء الادعاءات المثارة بشأن الكويتيين المحتجزين في العراق، وأكد في هذا الصدد أن العراق ليس له أية مصلحة في احتجاز أو منع أي كويتي موجود بالعراق من مغادرته والعودة إلى الكويت بمحض إرادته، وأن العراق قد أعاد حتى ١٤/٧/ ١٩٩١ تحت إشراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر ٦٣٣٣ كويتياً. وأضاف إلى ذلك أن لدى السلطات الكويتية قوائم سلمت إليها عبر الصليب الأحمر تضم ٣٤٠٠ كويتي، وأن الوثائق التي قدمها أولئك الأشخاص للجنة الدولية للصليب الأحمر تثبت كونهم كويتيين، غير أن السلطات الكويتية لم توافق إلا على إعادة ١٥٦ شخصاً فقط من بين هذه الحالات، وأن اللجنة الدولية للصليب الأحمر لديها حالات مثبتة أعادت فيها السلطات الكويتية أشخاصاً من نقطة العبور في عرعر كانت قد وافقت على تسلمهم. وأكد المسؤول العراقي على تعاون بلاده الكامل مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر وأن المسؤولية تقع على الجانب الكويتي في عرقلة عودة من يعتبرهم

مواطنيه.

وقد حظيت مشكلات الأسرى والمحتجزين باهتمام بالغ خلال زيارة بعثة المنظمتين العربية والمصرية لحقوق الإنسان للكويت والعراق. ففي الكويت عنيت البعثة بمحورين لهذه المشكلة وهما المعلومات المدققة، وآلية تحريك الموقف وصولاً لحل مُرْضٍ.

وفيما يتعلق بالمعلومات، فقد ناقشت البعثة مع اللجنة الوطنية لشؤون الأسرى والمفقودين القائمة الرسمية الكويتية التي ضمت وقت الزيارة ٢١٠١ حالة ومايشوب مصداقية هذه القائمة وماسبقها من قوائم رسمية من وجود بعض حالات الوفاة أو العودة. وطلبت البعثة تدقيق القائمة، كما طلبت معلومات «الاستدلال» التي توفرت عن بعض الحالات المدرجة بالقائمة وشوهدت في سجون أو معتقلات عراقية. وقد زودت اللجنة البعثة باستمارات استدلال لحوالي ثمانين حالة، وبملفين يتضمنان معلومات وصوراً شخصية لمائة وعشرين حالة. كما بحثت البعثة مع الجمعية الكويتية للدفاع عن ضحايا الحرب المعلومات التي جمعتها بشكل مستقل واجتهدت في تدقيقها عن طريق بحث ميداني لأسر المفقودين المسجلين لدى الجمعية في سبتمبر/ أيلول ١٩٩١، وتوصلت بذلك إلى قائمة تضم حوالي ١٢٠٠ مفقود. كما زودت الجمعية البعثة بقائمة تضم ٣٥٠ حالة توفرت معلومات عن مشاهدتهم في السجون والمعتقلات العراقية. وفيما يتعلق بآلية تحريك الموقف فقد عرضت البعثة على المسؤولين الكويتيين اقتراحاً عراقياً بتشكيل لجنة مشتركة من عراقيين وكويتيين وممثلين لمنظمات شعبية عربية ودولية لمتابعة المشكلة بما في ذلك التفتيش في السجون والمعتقلات العرافية. وقد عبرت الحكومة الكويتية عن التزامها بالعمل في إطار دول التحالف على أساس القائمة الرسمية الكويتية وعن عدم رغبتها في تشكيل لجان للمتابعة إلا في إطار ولاية عربية (الجامعة العربية) أو دولية (الأمم المتحدة).

وقد استقر موقف البعثة على تمحيص المعلومات المقدمة وحث الحكومة العراقية على توفير أقصى حد ممكن من المعلومات عن المفقودين الكويتيين على أساس قائمة حد أدنى ممن شوهدوا في سجون أو أماكن احتجاز عراقية دون إهدار للقائمة الرسمية. وخلال زيارتها للعراق تبنت البعثة منظور أن تعاون الحكومة العراقية في التوصل لحل مرض لهذه المشكلة من شأنه أن يقوي من فرص رفع الحصار الاقتصادي على العراق. وقدمت البعثة للسلطات العراقية في هذا الصدد قائمة تضم مائة وثمانين شخصاً توفرت معلومات عن مشاهدتهم في أماكن الاحتجاز بالعراق، مما يضمن توافر معلومات عنهم لدى السلطات، وطلبت البعثة توفير المعلومات عن هؤلاء الأشخاص. كما طلبت من الحكومة العراقية قوائم بأوضاع المقيمين في الكويت قبل ٢ أغسطس/ آب ١٩٩٠ الذين احتجزوا في

الكويت أو العراق أو صدرت بحقهم أحكام سواء قضوها أو مازالوا أو توفوا أو صدرت لهم شهادات وفاة . وقد وعد المسؤولون العراقيون بتوفير هذه المعلومات على وجه السرعة ، ولم يفعلوا .

وقد أكد ممثلو الحكومة العراقية أن بلادهم قد دللت على حسن نواياها من خلال إعادة المحتجزين من آل الصباح وتسليم مايزيد على ستة آلاف فرد إلى السلطات الكويتية ، وأن السلطات العراقية بسبيل التعاون مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر، طبقاً لقرارات اللجنة المشتركة بين دول التحالف والحكومة العراقية ، في السعي للحصول على معلومات عن المفقودين وتمكين اللجنة الدولية للصليب الأحمرمن التفتيش غير المقيد على السجون وأماكن الاعتقال . وشكا ممثلو الحكومة العراقية من استخدام مسألة المفقودين من الكويتيين كأداة ضغط سياسية ، وذكروا أمثلة على قلة مصداقية القائمة الكويتية الرسمية من جانب ووجود عشرات من الحالات المتضمنة بهذه القائمة رفضت السلطات الكويتية تسلمهم ، وقد وعدوا بتوفير قائمة بهذه الحالات على وجه السرعة ، ولم يفعلوا .

كنا أثار ممثلو الحكومة العراقية مسألة وجود عراقيين مختفين بالكويت غير معروف مصيرهم ، وطالبوا بتعاون الحكومة الكويتية للتوصل لمعلومات عنهم . وقد التقت البعثة خلال زيارتها بممثلي اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالعراق الذين أكدوا بصورة ملحة على ضرورة أن يوفر الجانب الكويتي ملفاً فردياً لكل حالة من المفقودين بالمعلومات المتاحة والصور الشخصية . وأشاروا إلى وجود كويتيين مقيمين بالعراق لم يكونوا على علم بأنهم مدرجون بالقائمة الرسمية للمفقودين من الكويت ، وبأن ما يزيد على مائة من الكويتيين الموجودين بالعراق ـ وبعضهم بالسجون ـ قد عبروا للجنة الدولية عن عدم رغبتهم في العودة للكويت ، وأوضحوا أن قواعد العمل باللجنة الدولية للصليب الأحمر تمنع توفير معلومات عن هؤلاء حتى لحكومتهم . كما أشار ممثلو اللجنة الدولية إلى أن السلطات الكويتية لاتزال تنظر في حالات لم الشمل لمن سجلوا أسماءهم لدى اللجنة رغبة في العودة إلى الكويت ، وبأن اللجنة الدولية لاتستطيع تدقيق الوثائق التي قدمها هؤلاء .

ومن ناحية أخرى فقد أفاد ممثلو اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن أعداداً كبيرة من العراقيين المحتجزين بالمملكة السعودية والذين يقدر عددهم بنحو ١٣٠٠٠ فرد قد رفضوا العودة إلى العراق ، وأنهم قد فقدوا بذلك صفة أسرى الحرب وأصبحوا بمثابة لاجئين وبالتالي خارج ولاية اللجنة الدولية ، بينما عبر ممثلو الحكومة العراقية بهذا الشأن عن أن قرارات العفو العام التي أعلنتها السلطات تشمل هؤلاء الأشخاص وأن العراق يرحب بعودتهم .

وقد أعربت البعثة في تقريرها ـ الأولي الذي أصدرته ـ عن أن حالة الفوضى التي رافقت الأحداث الجسام التي مرت بالكويت والعراق قد تحول، نهاية، دون حسم بعض حالات المفقودين من الجانبين. وأكدت في هذا الصدد على أهمية توفر النوايا الحسنة والجهد الصادق من الجانبين للتوصل إلى حل مُرضٍ لجميع الأطراف المعنية، وتقليل المعاناة الإنسانية إلى أقل حد ممكن.

* * *

(١) تقرير المقرر الخاص بدراسة انتهاكات حقوق الإنسان في العراق، السيد ماكس فان ديرشتوتل، وثيقة رقم E/ CN.4/ 1992/ 31.

(٢) ضمت البعثة ممثلين عن الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة، ومكتب مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين، وبرنامج الأغذية العالمي، ومكتب الأمم المتحدة لتنسيق عمليات الإغاثة في حالات الكوارث.

(٣) ضم الفريق عدداً من الأطباء بكلية الصحة العامة وعدداً من الخبراء القانونيين بكلية الحقوق بجامعة هارفارد وشملت الدراسة الميدانية عشر مدن عراقية.

(٤) تألفت البعثة من خبراء من برامج ووكالات الأمم المتحدة المعنية فضلاً عن مستشارين وأخصائيين وشخصيات بارزة من خارج منظومة الأمم المتحدة. وقد بدأت البعثة زيارتها في ٢٩ يونيو/ حزيران، وقسمت إلى أربع فرق قامت بزيارة مواقع عديدة في ١٦ محافظة عراقية.

(٥) الواقع أن القرار المذكور يخصص حوالي ثلث العائد لدفع تعويضات المتضررين بالغزو ولسد نفقات الأمم المتحدة ولجانها في العراق.

العمل الاقتصادي العربي المشترك

من المفترض ان يقتصر هذا التقرير على منجزات واحداث عام ١٩٩٠ الاقتصادية. حيث جرت العادة ان يقدم التقرير لقرائه التطورات والمستجدات في العمل الاقتصادي العربي المشترك سلباً وايجاباً، إلا انه للاسف، في هذه المرة لا بد من تخطي عام ١٩٩٠ إلى الجزء الاول من عام ١٩٩١ بسبب الاحداث الاليمة التي ألمت بالوطن العربي بوجه عام والاقتصاد القومي العربي بصورة خاصة، واثرت عليه سلباً من حيث الآثار المدمرة التي لحقت بالثروة، ومن ناحية تعريض مستقبل العمل الاقتصادي العربي لمخاطر جسيمة.

فلقد بدأ عام ١٩٩٠ عادياً وعقدت في شهر فبراير منه دورة اعتيادية للمجلس الاقتصادي والاجتماعي عالج خلالها إلى جانب المواضيع المعتادة موضوع المحور الذي يشغل بال كل عربي تحت عنوان «التكامل الاقتصادي العربي وتجربة اوروبا الموحدة»، كما قامت بعض المنظمات والصناديق العربية المشتركة بعقد اجتماعاتها السنوية المعتادة في مواعيدها وكان آخرها قبل الاحداث اجتماع لجنة التنسيق بين جامعة الدول العربية والمنظمات العربية المتخصصة في اواخر شهر يونيو. وكان لهذا الاجتماع شأن خاص إذ انه جمع شمل المنظمات تحت مظلة الجامعة بعد ان كانت تعمل متفرقة، بحد ادنى فقط من التنسيق بين بعضها البعض وفيما بينها وبين جامعة الدول العربية.

هذه فقط امثلة للتقدم الذي كان حاصلاً بين اجهزة العمل العربي المشترك وهناك أيضاً امثلة اخرى كانت سائدة في اجواء الوطن العربي، إذ كان هناك معدل نمو اقتصادي

في المتوسط في الدول العربية لا يقل عن ٥ في المائة وكانت بعض الدول العربية تتحدث عن تحسين مستوى الحياة للمواطن وذلك ببذل اهتمام اكبر بنوعية التعليم والصحة وتنقية البيئة من التلوث وتحسين اوضاع المرأة والطفل وغير ذلك. وكان العديد من الدول العربية يفتخر بقوته الصناعية والعسكرية، وانجازاته وبنيته الاقتصادية الاساسية.

كان كل هذا سائداً الى ان بدأت ازمة الخليج باحتلال القوات العراقية للكويت. واستمرت الازمة اكثر من سبعة شهور ارتبكت خلالها كل هذه الكيانات وتبدد معظم تلك المكاسب. وتحول الحديث عن معدل النمو الاقتصادي بمتوسط ٥ بالمائة الى انخفاض في مستويات الانتاج والدخول والاستهلاك مع نهاية ١٩٩٠ بمعدل يزيد عن ٥ بالمائة. وتحول الحديث عن تحسين نوعية الحياة الى اعادة البناء ورهن دخل جيل المستقبل لهذا الغرض، حيث ان جزءاً كبيراً من الثروة الاقتصادية القومية من مصانع وطرق وجسور وآبار بترول قد تدمرت وتحتاج الى أكثر من عقد من الزمان لاعادة بنائها. هذا بالاضافة الى كارثة التلوث البيئي الخطير الذي لا يعلم إلا الله مدى آثاره السلبية على الوطن العربي وأجياله القادمة.

وبالرغم من صعوبة تقديم تقديرات دقيقة عن مدى الدمار الذي حل باقتصادات الدول العربية ووسائل انتاجها في هذه المرحلة، إلا ان في الامكان تحديد الملامح الرئيسة لحجم هذا الدمار والخسائر التي نجمت عنه.

الخسائر المادية أثناء الازمة

تقدر الثروة العربية المدمرة من منشآت مدنية وعسكرية وبنيته الاساسية وآبار بترول ومحطات كهرباء وغيرها بأكثر من ٤٥٠ مليار دولار ولا يمكن تحديد ذلك بدقة اكبر قبل ان يتضح مدى الدمار الذي لحق بالآبار والمنشآت وما ستكلفه عمليات تعميرها واعادة انشائها وتشغيلها. وبالاضافة لما حاق بالمنشآت العامة هناك خسائر القطاع الخاص، حيث ادى كل ذلك الى انخفاض الانتاج السنوي المتجدد وهو امر يختلف عن تدمير الثروة التي هي حصيلة العديد من سنوات التكوين والبناء، فقد انخفض الانتاج في جميع البلدان العربية تقريباً عن مستواه الماضي وانحسر النشاط الاقتصادي المحلي وزادت البطالة بنوعيها المقنعة والواضحة. وباضطرار الحكومات الى زيادة الانفاق على الامن الداخلي وغيره ازدادت الاسعار وارتفعت معدلات التضخم بشكل ملحوظ ادى بالتالي الى انخفاض مستوى الاستهلاك وخصوصاً بين الطبقات الفقيرة ذات الدخول المحدودة والمتناقصة بسبب البطالة.

أما على الصعيد الخارجي فقد ازدادت عجوزات موازين مدفوعات معظم الدول العربية وموازينها التجارية لاسباب عديدة، من بينها انخفاض التصدير والسياحة وما يتبعها من خدمات الطيران وما شابهها، بالاضافة الى انخفاض تحويلات العاملين في الخارج وزيادة الحاجة الى الاستيراد السريع للاسلحة ووسائل الدفاع والغذاء. يضاف الى كل هذا الاموال الضخمة التي هربت من الوطن العربي الى الخارج لانعدام الامان والثقة محلياً والبحث عنهما في الخارج.

وقد قامت محاولات عربية ودولية لمساعدة عدة دول عربية متضررة من الحرب وذلك بالمساهمة في تمويل العجوزات الناتجة عنها. اما الدول العربية التي كانت تحتفظ باحتياطيات مالية فقد استنفذت معظمها لمواجهة تلك العجوزات وتمويل المجهود الحربي وبالاضافة الى فقدان الاحتياطيات المالية وقعت عدة دول عربية في ديون والتزامات مالية عندما وجدت ان كل الاحتياطيات التي ادخرتها لتمويل مسيرة التنمية الاقتصادية والبناء لم تكف لمواجهة خسائر الحرب مما اضطرها الى الاقتراض ورهن المستقبل الاقتصادي لاجيالها القادمة.

والى جانب الخسائر المادية الظاهرة هناك ايضاً خسائر ضمنية وكامنة بفعل ما يسمى «بالمضاعف» في علم الاقتصاد والتي يمكن ان تكون سلبية وايجابية. ويأتي في مقدمتها آثار التضخم على اصحاب الدخول المحدودة. وكذلك آثار انخفاض قيمة العملات الوطنية على حجم المستوردات اللازمة لتشغيل المصانع والمواد الاستهلاكية المؤثرة في المستوى المعيشي.

فانخفاض الانتاج والدخل يتسارع بفعل «المضاعف» تماماً كما يتزايد في حالة الارتفاع. فمع تدمير المصانع والمرافق وزيادة البطالة ينخفض دخل عدد كبير من الافراد وينخفض بالتالي دخل من كان يعتمد على انفاقهم ودخل من كان يعتمد على هذا الانفاق بعدهم وهكذا. وهذا يعني ان حجم الانخفاض المبدئي قد ينتهي الى اربعة اضعافه مثلاً اذا كان حجم المضاعف يساوي اربعة. ولهذا يصعب تقدير الآثار الاقتصادية الكاملة لأزمة الخليج في هذه المرحلة، إذ ان آثار «المضاعف» تحتاج الى فترة زمنية تحددها سرعة تداول النقد لتمويل حركة النشاط الاقتصادي والتي تؤثر على الانتاج والاستهلاك سلباً وايجاباً حسب تقديرات حجم «المضاعف» نفسه وطول الفترة الداخلة في الاحتساب.

أما مؤثرات التضخم فتتضح عندما تخسر فئات وطبقات الدخل المحدود في الوطن العربي جزءاً من دخلها الحقيقي بسبب ارتفاع الاسعار لصالح الفئات والطبقات التي تنجح في زيادة دخولها من التضخم سواء كانت هذه الفئات وطنية أو أجنبية. وزيادة دخول هذه الفئات تساعدها على زيادة مدخراتها. والتأثير النهائي يعتمد على ما اذا احتفظت هذه

الفئات بكل أو بعض مدخراتها داخل الوطن العربي. وعلى افتراض ان هذه المدخرات الاضافية ستذهب لتمويل الاستثمار المنتج محلياً بدلاً من الاستهلاك، فان هذا في النهاية سيساعد على زيادة الانتاج والدخول بصفة عامة. اما اذا اتجه جل أو معظم هذه المدخرات الى الخارج هروباً من عدم الاستقرار فان هذا سيؤدي الى تخفيض مستويات الانتاج والدخول مستقبلاً.

والمثل الثالث وهو ضعف العملة فانه يؤدي بالطبع الى زيادة تكاليف الاستيراد بالعملة الوطنية والذي يعني في النهاية الاضطرار للحد من الاستيراد بنوعيه الاستثماري، الذي يؤثر سلباً على حجم ونوعية الانتاج أو الاستهلاكي، الذي يؤثر سلباً على مستوى المعيشة.

كل هذه العوامل وغيرها تجعل دقة تقدير الانخفاض في الانتاج والدخل صعبة في هذه المرحلة، إلا انه لا بد من اخذها في الحسبان.

الخسائر المعنوية

اذا كان تقدير الخسائر المادية صعباً كما رأينا فان تقدير الخسائر المعنوية لا بد ان يكون اصعب. فاذا امكن القول بانه، قبل ازمة الخليج كان هناك وفاق بين الدول العربية، فانه يمكن القول بان هذا الوفاق قد هبط الى درجة منخفضة من جراء الحرب. وهذا بالطبع يشكل مصدراً كبيراً للقلق على مستقبل العمل العربي المشترك. ومن وجهة النظر الاقتصادية فان الخسارة المعنوية المهمة هي ليست فقط في فقدان الثقة بين المسؤولين العرب بل وفي انخفاض مستوى ثقة المواطن العربي وبالذات المستثمر العربي في وطنه. ولا شك ان وجود مثل هذه الظاهرة له ابعاد اقتصادية متشعبة تؤدي في النهاية الى ضعف الالتزام والترابط الاقتصادي بين الوطن العربي والمواطنين.

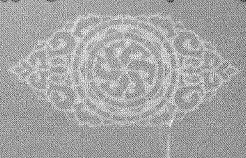
والخسارة المعنوية الثانية هي انخفاض درجة احترام الكتلة العربية من قبل التكتلات الاخرى في العالم. فمن المعروف ان العرب متجمعين وفرادى قد حققوا تقدماً لا بأس به لكسب ثقة دول العالم وتجمعاته التي يتعاملون معها اقتصادياً وسياسياً وذلك عن طريق الحوار والاتفاقيات ومعاهدات التعاون والتنسيق. ولقد جاء وقت (وخصوصاً اثناء الطفرة النفطية) اكتسب الوطن العربي فيه وضعاً مرموقاً بين الامم، ولكننا نجد الآن ـ ولسوء الحظ ـ ان الثقة والاحترام الدولي للوطن العربي قد تراجعا بشكل ملحوظ. وسيكون اثر ذلك ملموساً بعد حين عندما تتعرقل مسيرة المحادثات والحوار مع هذه الكتل ويتعثر التعامل معها. ولم تقتصر موجة انحسار الثقة على الوطن العربي ومواطنيه، بل امتدت

لتشمل البترول القادم من منطقة الخليج ومدى امكانية الاعتماد على امدادات آمنة، وعاد الحديث الآن عن تشجيع مصادر الطاقة الاخرى وبالذات النووية التي مرت بفترة عدم ثقة بعد حادثتي «تشرنوبيل» في الاتحاد السوفييتي و«جزيرة الاميال الثلاثة» في الولايات المتحدة. ويمكن تعداد امثلة اخرى تبين الخسائر المعنوية الحالية التي قد تترجم مستقبلاً الى خسائر مادية. والشيء المؤسف حقاً ان انخفاض الثقة بالعرب وبترولهم يقابله ازدياد الثقة باسرائيل واهميتها وامكانياتها التي تقدم لهذه الكتل بديلاً عن العرب في منطقة الشرق الاوسط.

إعداد : الامانة العامة لجامعة الدول العربية.
: الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي.
: صندوق النفط العربي.
: منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول.

سلسلة المائة كتاب . الثانية .

المسائل النظرية في الآداب الشرقية



ترجمة

الدكتور عز الدين مصطفى رسول

مراجعة

الدكتور ضياء نافع

دار الشؤون الثقافية العامة


أدب وفن

هذه النصوص!

مرة سئل (فؤاد التكرلي) مبدع (الرجع البعيد) لم هذا الإصرار على كتابة حوار هذه الرواية باللهجة العامية العراقية، فأجاب الكاتب مستبقاً محاوره بالاستنتاج، قائلاً مامعناه: أعرف أن هذا سيحجّم جمهور قرائي العرب، ولكنني لاأستطيع تصور ذلك الحوار بغير تلك اللهجة!

من هنا نقول ـ ولسنا لصالح اللهجة على حساب اللغة ـ إن اللغة هي اصطلاح اجتماعي يأخذ مجراه من مجرى حياة الناس، ومن حياتهم ومجراها يستمد معناه وإيقاعه ومضامينه... واللهجة واقع، كما هي اللغة.. ونحن لانستطيع، ولن نستطيع أن نعرض البدائل في هذا السياق، بل إن الحياة هي التي تفرز صالحها، حتى وإن بدا في نظر البعض طالحاً في البانوراما التاريخية الحضارية.

القصائد التالية ليس ملفاً خاصاً، ولكننا أردنا لها فسحة هنا، لأن لها فسحة في حياتنا.

أما النص النثري باللهجة الشعبية العراقية الذي ننشره هنا فهو (سهرة كاس عراقية) للشاعر والكاتب (محمد سعيد الصكار) الذي يقول في الرسالة المرفقة مع النص: «ولاأخفي عليك أنه النص الأول الذي أحاول نشره من كتاباتي بهذه اللهجة، على الرغم من الشعر الشعبي الذي أكتبه منذ أكثر من أربعين عاماً، فأنا لستُ من دعاة العامية، ولكنني من ناحية أخرى لم أشأ أن ألغي حضوره بزيِّها، وأنا الآن كما قال الشاعر القديم عن الحرب:

لم أكن من دعاتها، علم الله، وإني بحرِّها اليومَ صالي..»

ونحن نقول أيضاً: إننا نضم صوتنا إلى صوت الصكّار، اصطفافاً مع تنوّع القول والإبداع.

(أدب وفن)

نهر المحبه

عزيز السماوي

الى الدكتورة النبيلة سونيا روبنسن

وين الچبير اليعرف اسرار النهر شيريد
حزين وماگدر يوگف.. يصد روحه لوين اتريد
يرعد.. ياخد الجرفين بالظلمة.. رعيد
يدوي...
أو ما برد..
كل العمر..
خايف.. عنيد..
هايم.. ياخد الموت..
ابليالي الموت..
يمكن..
يجيس الفرح..
نار الفرح..
زرگه

او تظل تضرب على الخاطر بعيد
يغبش للحزن خوف أو مواعيد
يمر بين الگهاوي فرح للصدگان بالعيد
يفك . . كل القميص . .
« اشراع » . .
بالگمره . . .
حلم أخضر . . .
اناشيد
حزين أو ماگدر يلگه الفرح بين المواعيد
يعاند بالبچي
كلش
هجر مهجور.
يفز گبل الصبح . . ياس وشمع ونذور
هايم ياخذ الجرفين بالظلمه . . اغاني ونور
يمشي . . او يلتفت
كل العمر مذعور
شاعر . . عنيد الطبع
يحزن گبل رف الضلع
لاطفه روحه الدمع
لا . . .
ولا . . نار التجافي امن الحنين اتهيد
حزين او ما گدر يلگه الفرح بين المواعيد
صافن ياخذ شموعه نذر بالليل
يحزن لو لمض دمع الزلم والخيل . . .
توج اخدوده بچفوفه
دموع . .
أمن الحزن . .
والويل

ينام اعله الرصيف . .
او موته
سيف الينبض إبروحه
جروح . .
-امن السفر . .
تغبش سفن . .
تمشي . .
او تميل .
غَيّم الليل اعله طوله
ـ يخاف سكته ـ
والنفس
كلش
ثگيل . . . !!

يهيم . .
إو يرتفع صدره . . هموم التاخذ الجرفين ترديد
موج وحنين ايرد حنين . . ابعيد
حزين او جمرة اسراره توج ماي الحزن گُمره ونشيد
حزين او يكسر الخاطر وحيد . .
يتيم او مالبس ثوب الفرح بالعيد
يتگلب عالجرفين خوف امن الحنين ايزيد
« گَمر »
يشعل حنينه
او ماگدر . .
يوگف يجيس الگمر بالايد
يوج الروح موش ابعيد
خايف . .
يظن الگمر . .
وردة حزن بالعيد . .

يهيم امن الغضب مذعور. .
كَمريه الحنين
او ماگدر. .
يوگف. . ولا مره. .
يجيس . . انت الكَمر . . بالايد
الحيرة. . حيرة عمر موت ودوار. . اجديد
يهيم الموج من يمشي غنج ترديد. .
حزين الطول بالكَمرة نشيد
حزين او يضرب الجرفين دايخ ماعرف روحه : شهيد
وأنت بعيد
انت الكَمر بالروح. .
انت التاخذ اجروحي سفن وتروح. . .
اصلي او شَعري المذعور يلمض ابليل الهجر. . ويلوح
حيل اسهر عليك. .
او اوصل البيتك
فرح ياخذ فرح بالروح. .
او كل ليله. .
ارد منك ـ حزين الطول ـ
بالكَمرة

«ظلام». . ينوح
اخرس حتى أصابيعي تأشر والرمز مبحوح
أحلف ابعزة شبابك
واگولن : لا . . .
ابد ماروح. .
او كل ليله ارد منك. . ذبح مذبوح. .
وين الچبير اليحتوي الگمره ولك سري گمر مفضوح
وانت ابعيد

ردتك حنين اتوج اصابيعي ورد بالعيد
ردتك عراقِ اتمر على اشفافي.. نشيد..
اچفوفي سيف او غبش
اچفوفي مهره وعطش
اچفوفي كوخ ونعش..
اروح اوياك وچفوفي وميض اسرار بالظلمه.. او رعيد
لوين الطول ياخذني عليك او ياك ليليه.. بعيد
كلش..
اجيس الروح بالروح...
گمريه الخصر هايم عليّ.. ايلوح
نارك تاخذ اچفوفي وأگولن يافرح بعدك بعيد
اويلي الخوف ياخذني عليك ابعيد
اويلي اظنوني وظنونك توج اويه النفس تنهيد
حمام امن اللهب
هايم..
لوين ايريد
يدور اعله الخصر دوار..
كل شبگه جمر واسرار..
گمريه الخصر.. ليّن.. عنيد..
حزينه اچفوفي الك ذله.. او عبيد
يرد ايلين يتغنج عنيد..
رافض حنين الجمر
رايد حنين الجمر..
چم موته اموت ابهل مسافه اتريد
يعاند حيل..
يتلون..
على اچفوفي
اغاني من الفرح.. تهديد..

يوج وينطفي او يلمض على اشفافي . . او يعيد
عذبني . . واكَلك : زيد . .
صدكَ كل جرح منك : شهيد

درويش . .
شيبي ارتفع . .
مذعور . .
وين اتريد . . ؟
أوج كَمره وحنين او خوف . .
بچفوفك . . .
وأكَولن : لا . .
بعد . . وصلك . بعيد
عليك الروح مذعوره . .
تصلي وترعد وتنزل . .
حنين امن الدمع عالجيد . . .
اخافن لو شفت شيبي وميض اسرار بعيونك . . بعيد
اصلي وأحلف ابطولك
واكَولن : لا . . تبت
لكن . .
وحكَ طولك . .
ابد . . ذاك الحلف . . مايفيد
عذبني واكَلك زيد
الك هيه الدفوف شموس
بالظلمه . .
اغاني . . او عيد
اهتز الشعر بالدمع . . غنى وبچه الدرويش
وصلك يزيد الهجر . . هجرك جمر درويش
لو غنى طولك فرح . . طولي ركَص درويش
وأنت ابعيد

اتذكرك للموت وأنت ابعيد

ناعم حرير الگمر خايف حزين ابعيد

اخذني الخوف بعيونك بعيد

او يلي الجيد من يلمض فرح للجيد

او يلي انت على اجفوفي واگولن انت حيل بعيد

اوج..

خيل وبيارغ..

تاخد الظلمه.. بعيد

كلما اوج وانطفي..

بعدك..

عليّ.. ابعيد

اوج وانطفي

خايف اوج او انطفي..

اوج خايف عليك او انطفي..

اخذ صدري.. الحزين..

ايهيم بچفوفك

حنيني النار..

بالظلمه..

اوج حيل..

وارد..

ذله..

انطفي...

ذلة الخوف..

بچفوفك..

ولك ذله..

واگولن اي وحگ طولك..

وحگ طولك

الف مره..

أوج كلي حنين او عيب ابد ماانطفي
گمر اخضر
على اچفوفك
بعد . . .
عيب انطفي . .

عليك انت
او يلي انت
بعيد الخوف ياخذني بعيد
عليك او ياك بالظلمة اهيم ابعيد
مذعور چفي مهر . . وج الظلام . . ابعيد
اخذ روحي . .
ونزف روحي . .
صهيل . .
اعله الوطن . .
گمره . . وشهيد ! !

لندن : آذار ١٩٩٢

هذا الليل
من بعدك، عذابه يْطول!

كامل الركابي

مجنون
بأصابيعي العذاب
هواي مجنون
من تلمس أصابيعك
عطش...
وتفيض بيها.. عْيون
اغركَ بالمحبه
احتركَ مفتون..
يلهب روحي برد الليل
يطفى ابروحي جمر الليل
وتحاصرني لِظْنون
تعصرني.. وجه مسلول
خايف من عذابه.. ايطول،
وتطول المسافه
البينك وبيني..

ويظل مخمور
طيفك يلعب ابعيني . .
احبك،
لاتخلّيني
شجر اصفر خريفي
وانتَ أخضر دوم
بحنيني اشراع
وبروحك سفر لليوم
تعال، وزيح الهموم
حطْ ايدك على اعيوني
تشوف اشگد لذيذ النوم،
وانتَ وياي
احس كل العطش بالروح
ينبع ماي،
اضم اجناحي لجناحك
واطير شما تطير . . هواي.
يلضمّيت بگليبي جرح
شتگول؟
هذا الليل من بعدَكْ
عذابه ايطولِ،
وتسامرني لِظنون
باصابيعي، عشگ مجنون
واصابيعك تخاف اتمر شمسها
بليل العيون؟
لا تسهر ، ولا تخدر ، ولا اتنام . .
يلضوّيت بيك العام
من ماشوفك اشگد وحشه الايام؟
خذ گلبي إلك محتام

خِذْ گلبي الك رايح
يحبك حتى من اتصير
مُر، ماصخ، حلو، مالح . .
واحبك
حتى من اتغيض روحي
وعينك اتواكح !
تعال ،
ولا تخليني انتظر دوم
دايخ ،
يل بگِت من عين گلبي النوم
تميل بلا نسيم اغصان روحي
تريد مره اتبوس غصنك
يوم
آه. . . اشكَد بعيد أنتَ
ومحبتك . . لوم
آه. . اشگد قريب أنتَ
ومحبتك. . طيْبْ،
يل خبّيت ندبه ابعمري
من اتغيب. . ،
تكبر جرح لاينزف ولا ايطيب!
واظل مكسور بغيابك
اظل مكسور
تسكن وجهي وحشة ليل
ويموت ابعيوني النور
اعمى امن العشك للماي
يمشي بلا درب. . مسحور
دليني، ضِعتْ بيك
اعمى وحوبة العميان تاذيك

دليني، غميك انتَ
واخاف.. الگيش
فص اعيوني حبة لوز بچفوفك
اشوفك بيش؟
اموت اروحلي باسراري
ومحبة افديك هاي الروح
وأنت اتعيش!

كردستان ـ كافيا
شتاء ١٩٨٨

بيك نشوف

سعد الشريفي

شِفتْ ماي الفرات
يشيلك أسرار
طفل نام اعلى فَيّ ورده
حبيبه اتلم حزنها أشعار
الكمره اتغيب
النجوم اتلم ضواها ابليل
اللحن ينشد بلا قيثار
وطن مجروح
يصحه ابكل صبح للثار

* * *

شِفتْ ماي الفرات
ايشيلك أنوار
كل خطوه تضويلي
يهتز الفرح بيً
روحي إنت

العطش منك يجيني انهار

ݣلبي اهناك ݣمره ايطيح فوݣ الدم

ابضميري انت

افرح من اشوفك واشتعل نار

* * *

شِفِتْ طولك ابدجله

نهر وطيوف

تفرح لليشيل اسيوف

تبچي . . . لو وكف مشحوف

بيك انشوف . . بيك انشوف

تعاند بيك حتى الموت

لو لملم علينه الخوف

مجنون هذا الݣلب

مجنون ݣلبي يحب

كافر بحب الموت

لاتخليني بچي

ينكسر بيَّ الصوت

أصلي اوياك لأيام القيامه

وأضويلك ابكل الليل

وأغنيلك مواويل

بس . . كونك تظل النار

لاترجف حزن

بالك تكَف وتملّ

النار الهه ظل

وللثلج مامش ظل

* * *

أهيمن بيك يالون الثلج. . .
يازهرة الرمان
ينام ابفيك التعبان
ياعطر الكَصيبه
ياغصن صفصاف
ألمك بيدي ماتنشاف
أضيعن بيك
أدور عيني. . . ألگاك
دمع ماتقبل اتطيح
جرح يتلمس أسراري
ينام ابگلبي وايصيح
أنه ابلياك طيف ايعارج الريح

* * *

عذبني المشي والخوف
والغربه أهيسها ثگل بيدي
أهيسها ثگل بالراس
حنيني الطوگ أهلنه
البنخل ينباس
ماابيعك يطوكي
والملگح على روس النخل نوماس
ماابيعك. . .
لَوِن كلْ العشيره شالت الوهواس

* * *

أغني من الحزن سكته وعذاب
فايض ابروحي الحنين
واركَص ولوني عذاب

أغمض . . أحلم ابجيتك تدك الباب
بالسفن تنگلني يم أمي
الچفها اعلى الجرح عطاب
أحلم ياوطن تنفتح بيك الباب
وأشوفك كربلا ودجله وفرات أحباب

* * *

چم مره شفت حزني ابزواية الغربه ياليل
تعب بيَّ النبض والحيل
جته امشي واسولف للرصيف
يارصيف . . يارصيف
لاني ضيف ابگاع غيري
ولاني بالغربه مضيف

* * *

اخذني ياوطن . . چفي شمس عالگاع
اصابيعي فرح لومايلك انباع
بذنوبي أجيك . . . ولوني من لونك
حليب امي ندهني
الثوره دم ارجال
أرجف بالحلم
والثوره كل الراي
لابد يوم بالنهران يجري الماي
لابد يوم بالنهران يجري الماي

عيبّ.. السدّه مو زينه

محمد المنصور

يمته يشوف . . .
بالمنخلْ
المامش ضُوَه بعيونه
ويمته . . . ؟
البردي يحمِل تين
ويمته . . .
تستوي التينهْ
يعمّي الدنيه غدّاره
وك إصحهْ
وإمْش بينهْ
فوانيس السَّلَفْ
ركَدنْ . . .
وْ مِسَتْ ظلمه
لياليِنهْ
إجاها الزود

طفّاها
وهذا الماي
غاطينهْ
نظلْ احنه بنزيزتنهْ
ويظل الماي
يغطينهْ
ولك ياما ركضنه اسنين
نرد الماي
مابينْه
هذاك يگولْ
هو يرد
وهذا يگولْ
شغْلينهْ
وعُكبْ مانفحط من الغَطّ
نگول: السده مو زينهْ
ولك عمّي
الدّغش بينه
عيب السدّه مو زينهْ
نغط ويه الهوى
امجاذيف
سكرانه
وتِمنْينهْ
ونظلْ
جذوع ياوسفهْ
وتمرنهْ
بحلك واشينهْ

موطباعك

منصور العقابي

(لأنه التقاه من جديد كان عتابه . . .)

همَّ تنسه البيك شمعاته
علگه
وكحل عيونه بنهارك؟
همَّ تنسه العاف داره
وعاش رحّال اعله شانك؟
وهمَّ تنسه الضاع جِدمه
بلا جِدَم يمشي اعله تارك؟
ماظن بيك الطباع الموش زينه!
ولا اظن كَطعو ذراعك
وماتمدهه صوب ادينه!
ولا اظن شلو لسانك،
وما حچه يوم الأجينه!

ﭼاﮔلت ضيف وإجانَه
يوفي ماإلنه وعلينه!

... ...

تدري وحشه ليلنه،
وحشه النهار؟
تدري بابك ماانچهب،
وصار ملعب للزغار؟
وتدري بالچانون خامد
وظل رماده بلايه نار

... ...

تدري... تدري،
اشصار بينه؟
لو تظن احنه الجفينه وماوفينه!؟
لاتظن انسى هواك،
وانسه طيبك!
روحي ذابت بالصبر
بس ويه روحك،
لاتظن كحلّت عيني
وغنت شفافي الأغاني،
ولا تظنّ لغير اسمك،
دندن وغنى لساني.

... ...

انت نار وأنت نور،
وأنت للعاشك رسايل،
وين مادار البريد،
انت عنوان ويدور..

قصيدتان

حسن بابيونه

اعيونچ الحلوه

سِمه. . . !
طير بجناحين اتطير بيَّه عيونچ الحلوه سِمه
تنثرني ضحكه، وليله شتويه وبرد
. . وبنادم يهزه الضمير، مبتلي ابريحة اليحبهم
. . وين ماتاهو يتيه ومايرد
. . اوين ماحطوا يحط روحه نذر
وعيونچ الحلوه دهر أتمايز اشلون يگضي. . ؟!
دخان، ودموع، وسوالف
اتخاف ماتلگه اليحط ـ آخه ـ عله ـ آخ ـ الغير ويمد الجسر
جسر، اتمايز الصوبين مِنّه
وين مادير البصَر. . . ملگه نهر
نهر مضموم ابكل كتر
امتاني بوسات السلام اطير بجناح الحمام

وعيونچ الحلوه حمام
تنثرني سمه من بعيد وترفرف الجنحان مني ابكل مده
[ضميني حمامة ـ دوح ـ معگودة اجناح]
[ابيوم لو زَخ المطر . . !]
أشهك للسِمه ليفوگ، يامكثر ابيوت اوخلك
. . اويامكثر اوجوه النحب
وعيونچ الحلوه وجه
وجه تركّص بيه روضة أطفال او مدارس
وجه تذكر أيام الرصاص
واطفال مگّطوعة ادين
وعيون مخنوگه
بخردل الغاز اليصد كل الهوى الصافي او يبلعه
اشگد أغاني، شگد سوالف
شگد رصاص، شگد مدن
وعيونچ الحلوه مدن . .
مرّه أذكر ـ البصره ـ ومره أذكر هلي
ومره أذكر حلبچه . . . چم حلبچه . . . !
والمدن كلهه حلبچه ! . .
ومره ياخذني الحنين
الهور محبوس النفس بيه السمچ طول السنين
وعيونچ الحلوه سمچ تنشد ـ سلام
ايشيل من عِدهه الونين
. . تتلاعب ابماي گلبي وين مارادت لعب
لا فاله ـ تنبت بالظهر
او لاشبچه بيّه اتسد نهر
إوين مارادت تِصدتلگه حبيب
وبس شمس . . ماي وشمس
وعيونچ الحلوه شمس

ماتطفه بيَّه ولا تغيب
.. طير وسمه وماي، وشمس...
اعيونچ الحلوه

١٩٩١/١٢/١

ومضه

اوكَلتي اهوايه
... كَلتي احچايه
ـ « ليمته اتظل اطوير الطاير
وليمته اتظل إودومك حاير».. !؟
ـ حتى اتوكر فوك إشفافچ كل الناس
ضحكات وبوسات او «ياس»! ..

١٩٩١/١٢/١٠

سهرة كاس عراقية

محمد سعيد الصكار

- والله وقبر النبي، وداعت عيالي.
- نعم!
- كل ماأكَوله صحيح وراسچ الغالي.
- حلو!
- كَلبي كَبل ماشفت وجهچ تره خالي.
- ليش هوَّ من هَسَّه خالي؟ من يوم الشِفته وشافني عل هالحَطَّه.
- دِسمغ.
- تفضل.
- أشرقتِ كالفجر فِي دَيجور آمالي.
- هاي وين رِحتْ، أشو صارتْ قَريض؟
- دِسمغ، هذا مْلَمَّغْ.
- يا ملمَّغْ، هذا مْزَنْجِر للكَشِر.
- دخلّيني أكمّلْ، وبعدينْ علَّقْ.
- بعدين أعلّقْ، وين أعلّق؟

«ولتُعَلِّقْ أنت ياطيراً مهاجرْ»، كلهمْ علّقوا، بس آني وهالوجه الماصخ ظلينه بهالزاغور.

«هَـلَكْ وين يـو الـلگـوْ أخـذوا الـچـتـري وعـلّكـو»

ـ هَسّه إنت وين ودّيتنه بهالتداعيات مالتك. تْريد تِسمع لو لا؟
ـ أسمَعْ أسمَعْ. هاك شويّه لبلبي، أشو إنت مَدَ تاكل؟
ـ آكل، مو ممنوع عليّ... ها يابه:

أشرقتِ كالفجر في ديجور آمالي
وصرت وحيي الذي يهتاج أفكاري

ـ صدگ هالحچي يحتاج تلميعْ... متْگلّي هالجواهر إلمَنْ؟
ـ هاي لفيلسوف البصرة.
ـ لا!
ـ إي وداعْتَكْ.
ـ منو، الخليل؟
ـ يا خليل أبو سمير، ليش الخليل فيلسوف؟!
ـ لَعَدْ مِنو، الجاحظ؟
ـ لا يابه لا. هذا فيلسوف معاصر.
ـ عابتْ هالمعاصرْ.. والله لو ألْگَفه أعُصْره عَصْره أطلّع دِهْنه... هلـ... معاصر.
مِتْگَلّي إنتَ ليش إتْدَرْمُك أشعارك الحلوه بهالَمَلْخيّاتْ؟!
ـ كل شي بْوَكْته... نوبه هيج ونوبه هيج.. خو مو كلها جديّاتْ..
ـ جديات، بيبيّات...

بيبيتي الله يرحمها ويرحم والديك، جانتْ تِتْوَرْشَعْ جِدي، وتّنْصُبله جُمْبُشْ إلى أن تْلعَبْ نفسه، فياخذ عباته ويشلعْ للگهوه. بس رِجله تصير عالعِتْبه، تِرجعْ هيَّ ادگ اصبعْتين، وتْهِزْ چِتِف.
ـ إنتَ هم رِحِتْ خط مائل. متگلي إنتَ ليش ضايج... تريد أكمّل لو أگُلُب صفحة؟
ـ لالا، كمِّلْ، دَنْشوف النتيجة.
ـ أفْتَرْ چِنِتْ بالمحطّة، وأشربْ بهالتِتِنْ.

ـ حلو! دخـــن جگـــارة غازي في وقـفـةٍ واجـتـيازِ
وجـازِ نصحـي بشـكـرٍ إن كنـت ممـن يجـازي

ـ ومن كُثُر قهري تره افّادي غِده هالمتِنْ.
ـ أجاد.. أجاد.. عِيده بالله عِيده.
ـ ومنْ كُثُر قهري تره افّادي غِده هالمِتِنْ.

- إي؟
- تالي سألِتْ الكَلْب، ثاري الكَلُب مِفْتِتِنْ
- لا على بَخْتَك، هاي من يَمْته مِفْتِتِنْ؟ لِعِدْ ليش متكَلّي إذا جنابك واكَعْ بالحِب؟
- وكنتُ قبلَ اللقا أرنو لصادحةً
- أوهووو، هم رِجَعْنه.
- تعطّر اللحنَ في أنغام قيثاري.
- أسألكْ بالله هذا حچي مال فيلسوف؟
- لَعَدْ إحنه ليش دَنْكرّمه، ونْخمِّسها إله؟
- وهذا منين عْرفته؟
- ما أعرفه.
- عجايبْ ! لعَدْ ليش مدوّخ راسك بيه؟
- آني سامع عنّه. چان بوكْته ماخِذْنه شراع ومجداف، من قِريت له هالمُعلّقة بالجريدة كلت والله هاذي مَتِتْفَوّتْ، خرطْ من هالنمونه موكل وكت يوگَع بالايدْ، حتى أخونا ناظم كَيطان ميطلعْ هالطلعات.
أف... أف... أف... هذا شجابه ببالك؟ صدَقه لهلبچم لاتنغّصْ علينه هالكَعده الحلوه. ناوشني الجدّاحه من يَمّك، تره افّادي غِده هالمِتِنْ.
- تفضّلْ... هَسّه فِكرك، نكمّل لو لع؟
- بعد بيها؟
- قُفُل واحدْ.
- جيبه!
- لما شِفِتْ چاره ماكو والاجدام تْعِبَنْ
ورجعتْ ويدربي شفتيچ كَلت إي والحَسَنْ
- أنه اخوك... لِكَفها!
- هاذي التسَلّي الكَلُبْ منْ ضِيجته والمِحَنْ
- كافي.. فدوه اروح لك.. لترجع عالفيلسوف.
- مو لازم... كاسك!
- چيرزْ!
- اليوم أعوف الفلسفة، واشربْ عرك عصريه
وانعلْ أبو الويسكي، وابو مْسَيّحْ، وابو اللاطيّه

ـ اللاطيّه منين هاذي؟
ـ ماسامع بيها؟
ـ لا وداعْتِكْ . شنو هاذي هَمْ عَرَكْ؟
ـ لا ، هذي چَرَزات من انتاج ضرورات القافية.
ـ نعله على وجدانكْ . . يعني إنتَ، والله العظيم، مِنْ يِتْفِلْ بْحَلْكك شيطان الشعر، تخلّي الفرزدق بجيبك.
ـ يَمْعَوّدْ هاذي كلها سفاهات ، من تجي نسوكَها بْتِبنها، المهم مانعطّل اللعِب.
ـ لا أبـو علاء، حَشـاك، إنتَ متْعـطّل اللعِب، هذا صحيح، بس سْوالفَك موزونه، وحچايتك نابته مثل البسمار.
ـ بسمار حُبَكْ زرفْ چَبْد الولِفْ وامْعَطه
ـ أويلي ياب!
ـ مِنْ بَعَدْ عِزّه غِده يسأل الوادم عطا
ـ مع الأسف.
ـ يا حيف صرنا سوالف لام حسن وام عطا
ـ مالَك أبو علاء، مالَك. هذا الحچي.
ـ هذا الحچي يِگوْل تاج الراس ابو سمره
ـ تسلم ياورِد. هاي عليها مَصّه، بصحتك!
ـ تِسلمْ . . . ها يابه.
ـ نعم.

نخل السّماوة صِرت منْ طَرّته سمره
ظلّيت اصيح بوراها التفتي ياسمره

ـ أحسنتْ، لافُضَّ فوك. بس القُفُل منين راح تجيبه؟
ـ القُفُل موجود، والمفتاح ظل يَمْ عطا
ـ نعله على نجابته لعطا. . . لك هذا شلون قفل حَيدري؟!

■

ـ شاهدنا ياأبو علاء، الونسه مو بالعَرَك، ولا بالبارات الجميله، ولا بالحدائق الغنّاء، الونسْه بالنديم. إحنه كلنا كاتلنَا القَهرْ، لكن ذاك من ذاك اللي وكته يِساعده وينطيه صديق مثلَك. أدب ومعشر وأريحيّه. والله كل كَعده وياك تسوه مُلك الدنيه. . . بصحتك.
ـ تِسلمْ أبو سمير. تره آني هَمْ مزاجي نجِسْ. مو عبالك وين ما أكَعد انسجم. مرات أشرب

ويه جماعة يسوون العرگ زَقّومْ. يعني هُمّه مو موخوش ناس، لا، بس ماعندهم شَمْرة شَمَر.
- على راسي . . . حچايتك هاي على راسي. شمره. . فعلاً شمره:
شـــمره. . . . . شـــمره. . .
حبيبي ماخِذْ من الريم شمره
- مالَك، ابو سمير، مالَك.
شمره. . .
شُمرني وكل عذول اشْتِمتْ. . . يايابه. . . بيـ. . . . ـيـه. . .
إحِمْ. . . إحم. . . إحمْ. . . لا ماكو فايده، أشو حِسّي طَبَّگ. . . عبالَك بالعْ خاولي.
- لا تاكل جاجيك.
- الجاجيك شَعْليه ، آني صاير قراضه.
- هَمْ يْأَثِّر، الخيار طبيعته باردة، وإنتَ عَرْگان.
- يمعوّد هذا العرگ ينفض الأكو والماكو.
- تمام. بس يسوّي شحطه بالزردوم.
- يوسف عمر ماچان يْبَدّعْ إلا لما يْقَنْدِل.
- بس هوّچان يشرب حتى يقندِل مثل متكَول، مو حتى يصفّي صوته.
- تره يوسف عمر ماكو منّه.
- ليش الكَبّنجي قليل؟
- حاشا. . . . هذا أستاذ. آني من أسمعه يقره أتعلّم، ومن أسمع يوسف عمر أبچي.
- صوته بيه حِنّييّه أكثر. .
- رحم الله والديك. . .
آه. . . . . .

«ألقاه بالشكوى وأسكت هيبةً
وأقول إن عدنا فسوف أقولُ»

مو هاذي تِسْلِتْ خيوط الگلب سَلِتْ. وشرف محمد ماسمعتها إلاّ حَسّيت بگلبي يِدمي. لو أگدر ابچي، چان نْصَبتْ چاينه، بس الدمعه متنزِلْ. عَلَوّا لو تنزل وتْنَفّه عني.
- دمعي صعبْ ولسفاهات النذلْ ماجرى
- إي والله.

- والنار جوّه الحشا ياخِلّتي ماجره

- موَجّره. . . نعم.

- الجسم عندي، وروحي عندهم ماجره

- إيجار دائمي.

- ودموع عيني بتصاريف الزمن ماجن

- شلون موج يابه!

- أيام جنْت انتظر أفراحهن ماجن

- إمـــمـــمـــم.

- يالتِسألْ شلون هذا المبتلي ماجنّ

- إيييي.

- لابد يجيني وكت وأحچيلكم ماجرى

- أحسنتْ. . . أحسنت. . لمن هذه الجواهر؟

- للمنبر.

- تعيش يابو علاء، كَدها ونِّعِمْ.

كَلِّي خو مو يظل على خاطرك إذا كَلت لك المسجل مفتوح؟

- بشرفك؟

- وعيونك ابو علاء. . تره انتَ متدري شگد آني متولّع بأشعارك، واعرف من نگعد سوه تطلع منّك فلتات تسوه الكون. أگعد ثاني يوم أسمعها وأنقلها بدفتر، لان أدري بيك ترتجل وتنسه. وهاك هذا الدفتر وشوف جنابك شمبَدّع!

- صدك چذب. . لك هذا بي أشعار تكسر الظهر. .

- شفت مولانا، هذا ضمير الناس الشرفاء. مو حرام ينّسي.

- بس هذا يودّيني سبعه گاصر.

- أخذه، ضُمّه عندك، آني حافظه على صدري. حتى الأشرطة ضاململك اياها، وتگدر تاخذها.

- لا على بختك ابو سمير، سرّي سرّك، وانتَ سرّك غميج، خليها يَمَّك.

- والله آني محافظ عليها مثل مَيْ عيني. لأن هاذي مو مُلكي وملكك، ولو انتَ صاحبها، لكن هاذي ملك الناس، تراثهم، شاهدهم. يجي يوم الناس تعرف قيمتها، وقيمتنا من خلالها. أما هالزمن الوصخ فباچر يصير سوالف، ومايبقه منّه غير هالآثار الجميلة. بصحتك. .

ـ بصحتك. لكن فعلاً هاذي التفاتة حضارية! معقوله كل هالحچي مالي؟ هذا يطلع ديوان.
ـ مو هيَّ هاي المشكلة. تعرف شگد أكو أشعار حلوه نايمه عليها الطابوگه، لو تجمعها تصير مجلدات، تكشف لك الأكو والماكو. بس احنه طايح حظنه، تاركين هالتراث الثمين وملتهين بالطگطوگيات.
ـ الناس هَمْ حقها ياابو سمير، هذي ينراد الها خلگ. ليش عبالك واحد يكفي. ينراد الها متفرغين، وهذوله منين تجيبهم؟
ـ أويلاخ لو بيّه حيل. . . لو أرجع شباب. . . أنذر حياتي لجمع هالشوارد. . ما عليَّ بالأشعار المعروفة، أدوّر وين ماكو فلته. بس احنه مثل ماگال ابو العلاء:

كم أردنا ذاك الزمان بمدح — فشُغلنا بذم هذا الزمان
أشكو إليك ياأخي من زمن — صرنا به نُحكم بالقنادر
من سارقٍ من فمنا لقمتنا — وخارج من جزمة العساكر

ـ لَكْ. . لَكْ. . لَكْ. . . شفت مولانا، هذا مو حرام يضيع. إلمنْ بالله هذا؟
ـ هذا لشاعر معاصر من صدگ، مو مثل صاحبنه الفيلسوف.
ـ منو بالله؟
ـ . . . .
ـ ما معقوله. .
ـ ليش مامعقوله؟
ـ لأن هذا شاعر جاد.
ـ هذا منتهى الجد. . هذا مو هزل، هاذي سخرية تفطر الكَلب.
ـ مو هذا الـ دنگوله. . لك ياأخي والله العظيم آني براسي فكرة، تريد تصَدگ تريد تچَذّب. هذا العراق بلد حضاره، ماطالع من بير نفط، ولا مْدَندل بهليوكوبتر، هاذي حضاره راسخه، لو تمر عليها كل زوابع الدنيه متشلعها من الگاع. إنتَ عبالك هالحرب راح تمسح العراق. ليش هو مكتوب بالطباشير. گول تمسح جيل، تمسح جيلين. فدوه. . باجر يطلع مثل الثيّل، هذا عرگ توث. هاذي حضاره.
ـ أشو هَم خشّيت بالحداد خانه، ورجّعتنه عالسياسه!
ـ أنعل أبو السياسه، إحنه دنحچي عالحضارة. بلد هاذي حضارته، ماينخاف عليه. خاف على ذوله الجايين هَبي بياض.
ـ عَفيه عراقيين، ماعندكم غير هالسالفة. گعدة سُكُر تصير سياسه، گعدة شعر تتحول إلى

سياسه، حتى إذا واحدهم ركَص هجَعْ، هَمْ لازم على إيقاع سياسي، مو ييزي عاد.
ـ داكَول لك هاذي مو سياسه، هاذي هموم حضاريه.
ـ مو كافي هموم ياابو سمير. أشو من فكَينه عيونّه إلى أن الله راح ياخذ أمانته، ماعدنه غير هالهموم. .
ـ هذا الموجود. . . هذا طبع. إنتَ تكُدر تغيّر طبعك. أشو إنتَ دتفلسف براسي، عبالك إنتَ مو من هالنمونه. ليش متبدّل طبعك وتخلّصنا؟
ـ والله لو أكدر ماچان قصّرت، بس شواكَع بيدي.
ـ ليش متكدر، أحد جابرك؟
ـ لع!
ـ لعد شدنحجي. مو هالكعك من هالعجين. صحتك!

المدينة التي تهاجمني
لن ترى فجرا اخر في حياتها

شاكر الأنباري

سرى الخبر بأقنية المدينة سريان مياه نهرية غير مرئية، تسرب عبر شوارعها نافذاً نحو الأزقة الضيقة غير المتناسقة ليوغل في بيوتها الواطئات. تناقلته أفواه سرية وأذرع ملحية محروقة بهجير الأصياف الوهاجة ونسوة ناعسات أفقن على ضوضاء الصباح بمزاج رائق.. كن يلكنه في الأبواب كلبّان، يتبادلنه مع نساء أخر خرجن لدلق مياه الغسيل أو لملء حقائب خوصية بالطماطم ورؤوس الفجل ووذرات اللحم. وشى به الطلبة المتسكعون بأروقة العطلة الصيفية وعمال النظافة وسواق الجرارات الزراعية والأعراب ومرضى المستشفى الوحيد. باعة الحليب، المكاريون الوافدون بسلال فواكههم وخضارهم من القرى، عرفوا بالأمر أيضاً دون أن يكتشفوا من أين نبع وكيف اجتاح المدينة بأمواجه الشاسعة. وعندما انطبق مؤشر الساعة على الثامنة صباحاً، كانت المدينة كلها على علم بأن الرئيس في طريقه لزيارة المدينة.

ومع أن الخبر أذهل الجميع وانقض على الرؤوس مثل صاعقة إلا أن الوجوه ظلت مغلقة على مساماتها وتجاعيدها، واتخذت الأفكار الواضحة مساربها نحو الداخل، إلى أبعد متاهات الصدور غوراً، وكانت العيون ضاجة بترقب أخرس ليس له سمات، ليس له أشكال تلمس، حار فيه رجال الشرطة السرية وبلبل تقاريرهم التي ينبغي أن ترفع إلى المدير المتمترس وراء جدران دائرته. إذ أنهم وجدوا صعوبة في فهم مايدب بذهن مصلّح الدراجات مثلاً عن الزيارة المفاجئة، وشاهدوه يدور أمام دكانه ببنطاله الملطخ بالزيوت.

زبائن المطاعم الثلاثة، التي تقدم الكباب والمعاليق وقطع اللحم المشوية، من فلاحي القـرى وغـرباء المدينة وعمال السوق، ألفوهم يتناولون وجباتهم بطقسهم المعروف من تمطق ومصمصة وتلمض لأمارة فيهم يمكن التكهن بسوئها. باعة الخضار أصواتهم مموسقة ضابحة، النساء متدثرات بعباءاتهن السود متجهات إلى قلب المدينة، لاتعابير غريبة ولاإيحاءات تجلب دفق الظنون. لذلك استنتجوا، بخبرتهم العميقة باصطياد الإشاعات وجس النبض وقراءة العيون وتشمم أريج الخطر من أيما زهرة هب، استنتجوا أن الخبر لاقى ارتياحاً شعبياً عاماً، وليس في الجو حياكة نسجها غريب. وزاد من قناعتهم ومد جذورها بتربة الرضا أن الحوارات التي سمعوها حول الخبر أجمعت على الدهشة أكثر مما أجمعت على الاستياء والريبة. إذاً، أبرقت التقارير ووثقت في صفحاتها السرية أن المدينة مهيأة للزيارة ومنتظرة لزينتها التي ينبغي أن يراها عليها الرئيس.

كان جسد المدينة قائماً على صفحتي شارع عام يربطها بالمدن الشمالية، امتيازها الذي أنقذها من أن تكون مدينة لاقرية كالقرى المحيطة بها. قدرها الذي عاشه سكانها منذ بداية تعبيد الطرق وتسليكها إبان العهود الملكية. أما امتيازها الآخر فمجاورتها للنهر، حيث يمر جنبها هادئاً رزيناً يروي عشرات البساتين المزروعة بالخوخ والرمان والعنب. وقيل أن النهر هو الذي دفع الرئيس لزيارتها. صفحته الزرقاء وأسماكه الذهبية وشواطئه المعبأة بالألوان وأجرافه الطينية الحائمة على زهورها فراشات صيف قزحية الأجنحة. إلا أن طائفة من الناس تحتج على ذلك قائلة أنه لايوفر أية صفة سياحية. فالصيف لايحتمل وموجات الغبار تضرب بأصابعها الخشنة إحياء المدينة كل أصيل، ولكن، لتمتين محبة شعبي، كما ذكر البعض نقلاً عن مدير مكتبه الذي رتب الزيارة.

الأعراب حين ترجلوا من باصات هذا الصباح وبعد أن دخلوا السوق الشعبي وتجولوا بين تلال العنب وأكوام الباميا، وفي غمرة رائحة البطيخ الأصفر التقطوا الخبر وارتسمت على لحاهم الشعثاء ألوان من التأملات. الأعين منهم خالطتها كثافة خوف غير معهودة وضربت على قلوبهم سحب من الهواجس، وظلت الدهشة، مجاراة لأهل المدينة، التعبير الطاغي على ماعداه، دهشة أنهم لايرون داعياً لزيارة شخص مهم مثل سيادته. كيف والمدينة بيوت صغيرة وشوارع وسخة يملأ أقنيتها الروث والطماطم الفاسدة وقشور البطيخ، ويسري فيها غبار أحمر مكروه على شكل موجات هوائية تجلبه الريح من صحارى البدو. ورغم ذلك فإن ماسيحدث مادة دسمة للسهر، يقصونه هذا المساء على أسرهم وشيوخهم. وبأصوات حذرة فرضتها شائعات مضادة عن قسوة الرئيس بحق أشخاص آخرين، يقولون لبعضهم البعض، هذا اليوم سيخلد في حياة المدينة إلى أبد الآبدين. تتحدث به الركبان وتتناقله الكتب ويتسامر به الرجال في مضافاتهم ومخادعهم.

وهكذا ظل الخبر يحفر مساربه بجسد المدينة حتى تواثب الزمن متجاوزاً العاشرة. ظل يتغلغل بنسيج لحمها إلى أن أوقفته أوامر تزيين المدينة وأجلسته على طبقة صلبة من الصدق. أوامر حملها رجال لايعرف عملهم بالضبط، مع أنهم يثبتون حضورهم في حياة المدينة عبر لهجتهم الصارمة ووجوههم الحجرية وشواربهم الرجولية. أوامر حملت أصحاب الدكاكين وعمال المحلات وقطنة الدور إلى الامتثال لها وتنفيذها، فعليها يعتمد شرف المدينة وولاؤها، وبواسطتها نثبت شدة الحب.

أما الزينات الواجب وضعها، فلم ينطق أولئك الرجال عنها بحرف. ستعرفونها في حينها قالوا، وبذلك أغرقوا الناس الموجودين تحت شمس الصباح بمستنقع انتظار دائم ممل خلق وشوشات وهمسات بين الأزقة والحدائق حتى ساحة المستشفى. وفي الوقت نفسه، صدرت أوامر أخرى إلى كل امرىء تابع للدولة، من موظفين وكتبة وشرطة سرية وعلنية ووكلاء شرطة ومسلّكي مجارٍ وبنائين، للقيام بما يجب القيام به فوراً. عمال البلدية حملوا مقشاتهم بهمة وجرجروا عرباتهم اليدوية وراحوا يكنسون. ابتدؤوا بالشوارع الكبيرة حيث جرفوا الأوراق وبقايا الخشب وعيدان الذرة المتساقطة من المكارية، ثم نفذوا إلى الأزقة الفرعية لكنس قشور الرمان وأغلفة الكتب والقناني الفارغة المتخفية في مياه آسنة ترسبت على أعقاب سجائر وروث حمير. قشطوا الطين عن حافات الأرصفة ولمعوا القير، رشوا مساحيق الدي ـ دي ـ تي ومبيدات الحشرات، وقبل أن تغيب قرقعة أدواتهم من الأزقة، أعقبهم مجموعة من البنائين لترميم الأرصفة المتآكلة والسياجات المطلة على الشوراع والواجهات. ولتنفيذ التعاليم بحذافيرها، منعت فرقة من الشرطة العلنية جميع المكاريين من الاقتراب حول المكان الذي يعتقد أن الزائر سيمر به وجمعوهم على شكل جيش رعوي في ساحات خلف المدينة، وسط الغربان المتسكعة وبراميل القمامة وجثث الحيوانات النافقة، فصاروا يفرغون أحمالهم على الأرض السبخة وينشّون عنها الذباب والغربان، وكانوا يشكون ويتذمرون بأنين خافت.

وساعة أن أتمت الأرض زينتها من كنس وترميم وتعطير، وفدت ثلة من الشباب تحمل على الأكتاف عشرات اللافتات مكتوبة بحبر أحمر أو أسود على خلفية بيضاء، كانوا يسطونها على واجهات المحلات وأعمدة الكهرباء وشرفات المنازل. حمل بعضها جملاً وأقوال مقتطفة من خطب سابقة ألقاها الرئيس بأماكن أخرى، وكان حصاد عملهم أنهم وضعوا الرئيس وأقواله في كل مكان: في الأزقة، وعلى صندوق محولة كهربائية يرتكز أمام مصلّح الدراجات نشروا لافتة تقول: شعبي يدي التي أضرب بها. وأكبر اللافتات علقت على بوابة المستشفى العريضة، إذ ترددت إشاعة مفادها أنه سيزوره لتفقد المرضى والحديث مع الأطباء.

أكثر الخبز في المخابز، غصت المحلات بالبضاعة، أصلحت الطرق، جددت أنابيب المياه، صبغت الجدران، وحلق طير الدهشة في العيون وهي تشهد جلد المدينة الجديد، وأثناء تحليقه في الحارات والأحياء، وفدت سيارة حمل ضخمة مليئة بسعف أخضر كانت تقف أمام المحلات وتلقي سعفة أو سعفتين حسبما تقتضيه سعة المحل وحجم معروضاته. هكذا حصل مصلح الدراجات وأصحاب المطاعم والمكتبة وبقالو السوق وصاغة الذهب وتجار البهارات على حصصهم من السعف، وغادرت الشاحنة إلى أحشاء المدينة متابعة نفس مهمتها جارة خلفها سحابة غبراء من الأطفال.

وتزيين أحشاء المدينة فكرة من أفكار مدير البلدية، همس بها لمدير الشرطة السرية عبر الهاتف الذي لم يتوقف بينهما: قد يدخل سيادته أزقة مدينتنا الخلفية، لهذا فلا بد من تزيينها، والتماعة ذهن المدير بفكرة مثل هذه رغبة إثبات ولاء أكثر مما هي خطوة ود حقيقية.

بمثل هذه المناسبات كل امرىء يعرف واجبه، فسرعان مالف أصحاب المحلات السعف النضر حول الدرفات والشبابيك وأطر الأبواب، شكلوا قباباً وأهلة ومنائر تترابط فيما بينها بشرائط قماشية وخيوط ملونة وقصاصات الورق الخاص بالاحتفالات كما أن أشرطة طويلة أدليت من الشرفات ولامست الأرض مؤلفة سرادقات ترجفها النسائم الهابة من سطوح البيوت وأبراج الحمام وفضاءات الطرق. كرنفال لوني هو الأول من نوعه في المدينة. ووحدهم فلاحو القرى كانوا في عجب منه. فالفخامة أكثر من اللازم، والزائر كما شاهدوه في تلفزيوناتهم متواضع لاتهمه الطقوس والاحتفالات. تغنيه أهزوجة أو موال أو تصفيق جماعي عن كل هذا البذخ. ثم هذه الأغصان السعفية بخوصها الهدبي، يفكرون أيضاً، هل هي حقاً علامات احتفاء جدير بفخامته؟ السعف وقود للتنانير، حظائر للبقر، عصي للتوكؤ، مطارق لندف الصوف، لاأدوات زينة لرئيس يزور المدينة للمرة الأولى.

* * *

عندما شبحت الشمس في السماء الدرية، وبعد تعب الاستعدادات على الوجوه، كانت المدينة قد جهزت نفسها لاستقباله مرافقاً من ثلثمائة جندي من حرسه الخاص وسرب طائرات مروحية ومدير مكتبه وثلاثة وزراء ومحافظ المنطقة التي تتبعها المدينة إدارياً. أما اللمسات الأخيرة، كما وصفها مدير الشرطة السرية، فقد سويت بصرامة وإحكام. فمن جهتها جمعت الشرطة السرية عشرين طفلاً بين الخامسة والعاشرة، وألبستهم ملابس موحدة دفع ثمنها أرستقراطيو المدينة وهم سيرددون النشيد الوطني لسيادته تتقدمهم فرقة موسيقية وفد أعضاؤها من مدن قريبة، مؤلفة من عازفي الطبول وضاربي الصناجات والمبوقين وقارعي الدرابك. ووضعت الفرقة مع الأطفال قدام الأهالي المتجمعين في بداية

الشارع المؤدي إلى قلب المدينة.

كان بين الحشد مكاريون وفلاحون ودلالون وعمال نظافة بأطقم زرق مع كامل أفراد الشرطة السرية الذين انطلى على البشر تمويههم، لولا مسدساتهم الموضوعة تحت القمصان المبللة بالعرق. المحلات أغلقت، الحمامات أوقفت نشاطها، المطاعم فرغت، الجامع الوحيد خلا من المصلين، وظل حارسه وحيداً بين منمنماته وثرياته وحروفه الكوفية. المدينة نظفت أمعاءها وعطلت طرقها سيارات خاصة أشرف عليها رجال وفدوا من العاصمة. بينما، وخلف ذلك الضجيج، خلف رفرفات العيون من قساوة الحر وهجسات القلوب، كانت ثمة ترتيبات سرية لم يطلع عليها سوى مدير مكتب الرئيس ومدير الشرطة السرية، ترتيبات تصب في مجرى الصالح العام، وتمتن الثقة بالدولة، وتتواكب مع اللمسات الأخيرة للاستقبال. ابتدأت أول ماابتدأت بالمستشفى، حيث استبدل الأطباء والممرضون بأشخاص لم يرهم أحد من قبل، ألبسوا مرايل بيضاً، وعلقوا سماعات في رقابهم، ووقفوا في الممرات وقاعات الانتظار، متأهبين لاستقبال الرئيس، الذي أجمع الكل أنه سيبدأ زيارته للمستشفى وينهيها بدارين من دور المواطنين. ومهمة الدارين أشرف عليها حرس الرئيس خطوة خطوة، وهما داران متواضعان بواجهتين من الطابوق الأصفر، باباهما مطليان بالأزرق ويقعان في نفس الزقاق. الزقاق نظف بعناية ورشت المطهرات النازة لروائح مستساغة في الأماكن المهملة وأفواه المجاري وبرك الغسيل. براميل الأوساخ أبدلت بغيرها وغطيت بأغطية حديدية ملونة، وزينت بداية الزقاق ونهايته صورتان للرئيس. ضوعفت الأغصان، وكثفت ألوان الشرائط، ورُقشت بمصابيح صغيرة ستضاء إذا ماحل الليل بوجوده، وأحيط الزقاق بكواكب وأفواج مسلحين تقرفص بعضهم على السطوح وختل الآخرون في الزوايا. وفي الداخل، داخل البيتين، تم استبدال كل شيء. الثلاجات الطباخات، المرايا، الكراسي، الأسرة، طلاء الجدران، روائح البيت والقاطنون. في الثلاجتين الواسعتين نضدت اللحوم والدجاج والأجبان والفواكه بوفرة لامثيل لها، فعادته التفتيش بكل خبايا البيت، والثلاجة رمز المستوى المعيشي للمواطن. عائلتا البيتين كانتا قد رُحِّلتا بأمر من مدير المكتب إلى أماكن مجهولة، ووفدت محلهما عائلتان تتألفان من الزوج والزوجة. المرأة ألبست لباساً بلدياً والزوج كذلك وافهما بساعة الزيارة، أما سبل التصرف ومايبنغي قوله تحت أشعة الكامرات التلفزيونية فأمور معروفة ومختبرة قبل الساعة ولاحاجة لتكرارها.

وعندما حلت الظهيرة بأبر أشعتها النافذة، وتصاعد أذان الجامع بنبرات إلهية مسكرة، كانت الطيور كالغربان والصقور واليمام، وحدها القادرة على عبور أفق المدينة. فالحصار مضروب بإحكام، وكأنما المدينة تغوص في تيارات أوبئة فاجرة محجورة فيها

بناسها وحيواناتها وسياراتها.

عرق الأجساد يسيح متغلغلاً بين الشعر والانحناءات الجسدية، والعيون يشدها هجسها إلى الأفق البعيد علها تلمح شارة لطلعته. الفرقة الموسيقية تقف متأهبة فيما دب الملل في الأطفال وكسروا وقفتهم النظامية، وراح الأعراب وهم مدفوعين بأمواج ضجر لايقاوم، يعثرون أجسادهم في أفياء الجدران والشجر ومظلات الدكاكين.

في حمأة الانتظار الطويل وغيوم الملل بزغت علائم الرئيس.

شاهدت الجموع خمس طائرات مروحية متجهة صوب المدينة، تمييزها عن الصقور والسنونو صعب لولا طنينها المتصاعد قليلاً قليلاً كلما اقتربت نحوهم. شاهدوها وهي تلف وتدور في سماء زرقاء، دويها يطغى على الهمس ونباح الكلاب ونهيق الحمير. في جولان متواصل يرتفع مرة حتى أعمق نقطة يراها الباصر أو ينخفض أخرى كي يلامس الرؤوس، يهز عصف هوائه ذبالات الشجر وملابس الغسيل المنشورة فوق الأسطح، ظلت تحوم بلا انقطاع، حارسة بمراصدها مساحات شاسعة من تخوم المدينة. كانت ترصد الطرق والبساتين، الأجراف النهرية ومنحدرات السواقي، غبرات الصحارى وحركات البشر المتجمعين، ناقلة بشفرات خاصة وعبر أجهزة لاسلكية تقارير برقية إلى العاصمة، بينما ظلت آلاف العيون تتابع تحليقها ولم تكف حتى حين وفدت طلائع الموكب.

كانت طليعة الموكب ثلاث سيارات ضخمة مليئة برجال مسلحين أمطروا الحشد لحظة وصولهم بنظرات حادة عدائية، وبعد أن لفظتهم الشاحنات شكلوا حاجزاً على جانبي الشارع، وكانوا يبعثرون الأوامر يميناً وشمالاً. ثم جاءت بضع سيارات سود ذات زجاج معتم لايمكّن الرؤية، جلب مرآها حماس الفرقة فبدأت عزفها بالطبول والصناجات والأبواق، جارة خلفها أصوات الصبية الناعمة بنشيد مرخم لم يلبث أن ذاب في عاصفة التصفيق والهتاف وزغاريد النساء. ثم أعقب السيارات السود أعداد لاتحصى من السيارات: جيب، رانجروفر، تويوتا، بونتياك، زيلات عسكرية، دراجات نارية مزودة بأجهزة مخاطبة وواقيات رصاص ومصابيح عملاقة تسهّل المطاردات الليلية.

حسب الجمهور الرئيس بواحدة من السيارات الفخمة ففاجأهم بنزوله من سيارة تويوتا زرقاء كان يقودها بنفسه، مرت تميس في نهاية الموكب. وحين ترجل منها أحاطته دائرة من حرسه الشخصي، ثم طوق الدائرة حلقة من الحرس الرئاسي، ولف حول الكل شرطيون مدنيون شرعوا يقتحمون الناس ليفتحوا ممراً لموكب الرئيس. وفيما ذكر الأعراب بعد ذلك اليوم المشهود، أنهم لم يروا سوى يده السمراء المزينة بساعة فضية. ظلوا يروون ذلك المشهد الصغير أمام حظائرهم ونسائهم وفي الباصات الخشبية حتى منعتهم السلطات بعد الأوامر الصادرة بحذف ذلك اليوم من التاريخ بأحداثه ومواليده وأمواته وشهوده.

بعد جولة في قلب المدينة، لم يخالط أحد الشك بأن الرئيس ماض إلى المستشفى. في لحظة كان الحشد فيها عجينة سائحة تغلفها طبقة من الزغاريد والموالات، لها آلاف الأذرع، آلاف الرؤوس، تكتسح بجريانها أزقة المدينة وحاراتها وملاعبها، دفق مجنون يتخذ من المستشفى وجهة له ونقطة وصول.

على بعد أمتار من السور وقف أفراد الحرس الشخصي سداً أمام جنود الحماية، ووقف هؤلاء سداً أمام الشرطة، ثم وقف الأخيرون متراصين بمواجهة الجماهير. فتحت البوابة العريضة، وبانت حديقة الثيل الفاصلة بين المدخل وباب المستشفى، وقد انتشر فيها فريق من الجند، احتلوا الزوايا، ووقفوا نسقاً على حافتي الممشى التي ولجها الحشد الرئاسي. هو الآن لايمكن تمييزه مطلقاً وسط سلة الألبسة الكاكية والملامح المتشابهة. بؤرة وهمية تجر وراءها دوائر بشرية منفعلة غامضة. وكان الشيء الوحيد البارز في فورة السيل البشري هو أطباء المستشفى الواقفين أمام الباب الزجاجي فوق دكة وصلها الزائر بدرجات أربع، وهم يصفقون بانفعال كبير. وبحركة مسرحية غير منتظرة من الجمهور، تقدم أحد الأطباء بباقة ورد كبيرة ناولها الرئيس فتلقفها فرد من أفراد الحرس، ثم ولج الموكب إلى الداخل.

خيم الصمت على الحشد والمكان وتحولت العيون إلى مجسات للترصد والترقب. تحولت إلى لوامس تخترق الحجب والجدران كي تلتقط مايدور في الداخل. وفي الفضاء برزت صقور ناشرة الأجنحة غير هيابة من الطائرات. من النهر تبخر وغر ثقيل لزج، راح يدرج فوق الطرق وعذوق النخيل، ومظلات الدكاكين، وأنشأ اليمام ينشد بآهات حزينة أنغام يوم خاسر. آهات ترددت بلا انقطاع حتى ظهور الرئيس.

ظهر على عتبة الباب، وحلت الهنيهة التي لاتنسى في عمر المدينة.

لن تنسى وجهه الخشن، ونظراته الملتهبة، والتماعة ساعته الفضية، ونقلة خطواته الوئيدة المتريثة على الدكة، كما لو كانت مرتهنة إلى يد سحرية. ففي تلك اللحظة السرمدية حدثت الكارثة. حدثت بشكل لم يتوقعه أحد. فالطلقات التي انهمرت وروعت الرئيس لم تستغرق أي وقت يذكر. هل انطلقت من الحشد، من نوافذ المستشفى، من الجو، من أجراف النهر، من الحماية، لاأحد يدري. فقد أفاق الناس على الضوضاء المروعة ترادفت مع الزخة الأولى من الرصاص، الزخة التي مسحت مثل فرشاة ناعمة مسحوق الثقة بصدره. عندئذ، وبطرفة عين شكل جدار من الأجساد حوله، طرفة عين أشعلت الضوء لكل من يحمل بندقية للإطلاق. المهم أن يطلق المرء رصاصه، وجهة التصويب لم تعد بالأمر المهم. على الحشد، نحو الأشجار، على أعمدة الهاتف، إلى الأرض، فالطلقات أينما تصوب تبلغ هدفها، تذب الخطر عن جسد الرئيس.

لم يكن ذعراً ما استولى على البشر، كلا، شلل لم يفيقوا من بخاره المخدر إلا حين وجدوا أقدامهم تقودهم لأكثر الأماكن غرابة. وجدوات أنفسهم بأزقة معتكرة بظلام المساء، تحت قناطر متآكلة، في زوايا جدران معتمة، معلقين على أسطح لم يعرفوا كيف استدلوا إليها، تحت سيارات حمل تقطر زيتاً أسود على وجوههم المصبوغة بدماء ا الذعر. وقبل أن تستفيق المدينة من هول الحدث، وعند مسائها الذي عانقته البيوت بمقرنصاتها ومزاغلها وأسوارها، فوجئت بأرتال جيوش غير معقولة لمدينة بهذا الصغر، فوجئوا بها تتوغل بين الأزقة وتدخل الدوائر الحكومية وتطوق الطرق. تنفذ إلى مخابىء البيوت، تقيم نقاط تفتيش سريعة باحثة عن أعداء لامرئيين. وبعجالة غير معهودة قبض على كل مشتبه به، وغصت السيارات بمعارضين وفلاحين ورجال دين وطلاب وعمال نظافة ونساء كن يخرجن إلى الأماكن العامة سافرات الوجوه. وقد ظنت المدينة أنها ستساق بنفوسها أجمع إلى العاصمة.

ومع انبثاق النجيمات الأولى في سماء الليل، وبعد وقت قصير من غياب الطائرات المروحية التي التقطت الرئيس، أبرق إلى العاصمة بأن العملية رقم واحد قد تمت بنجاح وكل المشتبه بهم في طريقهم إلى السجون. وبإتمام العملية رقم واحد، بدأت العملية رقم اثنين: جُمع من تبقى من السكان وزج بهم في بطون سيارات عسكرية ضخمة صعدوها دون مقاومة. وحين تأكد الجنود من خلو المدينة أشاروا للسيارات بالانطلاق. فتحركت برتل جرجر ذيوله صوب الخلاء البعيد، إلى أماكن لم يسمع بها أحد. ثم حطت العملية رقم ثلاثة على المدينة مثل رخمة عملاقة، أعضاؤها أربع كلمات سود فقط: حولوا المدينة إلى مزرعة. كانت الرخمة العملاقة أمر الرئيس الذي لامرد عنه.

* * *

بين طيات الظلام وتعاريجه البضة غابت النساء والأطفال والرجال. ودعهم الغبار والخفافيش وعيون الجند التي لاتعابير فيها. ودعتهم الشبابيك وأسماك النهر واسفلت الشوارع. يمموا صوب فجر سيطلع بلا طعم، بينما كانت في الطريق نفسه، وفي اتجاه معاكس، قافلة من البلدوزرات والشفلات والقلابات والجرافات وثقالات الهدم متجهة إلى قلب المدينة.

بعد وصول الآلات، وما أن فهم السائقون التعليمات بدقة، ابتدؤوا باتخاذ مواقع ملائمة للانقضاض على المدينة. السكاكين أشرعت، المطارق علّقت، المثاقب أبرزت مناقيرها والقلابات فتحت أذرعها الحديدية لاستقبال الرفات. وفي تابوت هذا الليل الوخم بدأت الجدران تتهاوى أمام السكاكين ببرود، تثير بتمزقها وانهدامها زوبعة من الغبار شرع يدرج بأقدام رخية فوق القير وأزهار البيوت ويشكل على مرايا النساء طبقة عفنة الرائحة.

دقائق ناعمة تصير عند الفجر تربة للملفوف أو نسغاً لشتلة قطن أو وريداً لفسيلة نخل. إنه التراب الذي سيكون مزرعة حين تصعد الشمس من بيتها الرطب.

الأسمـاك في النهـر فجعتها الضجة فراحت تبقبق وسط المياه وتدور على نفسها راسمة مويجات صغيرة سرعان مايبتلعها التيار. الدعالج فرت نحو متاهات غير مسكونة، تضمها عليقة جافة أو جذر طرفاء، وتبعت الخفافيش التي أعشتها شدة الإضاءة ذبذباتها، مفتشـة عن أركـان أكثـر عزلة. فرار جماعي لعالم حيواني دهمته غزوة بني البشر بأشد انفعالاتهم قسوة.

بقسوة كانت الآلات تبقر أحشاء المدينة، تبعثر حديدها وخشبها وطابوقها وبصمات قاطنيها العالقات بسقوف الغرف ومقاعد الحدائق وطاولات الانتظار. كتل الخرسانةتتمزق بانقصاف مريع مرسلة شرراً ينطفي حالما يمسه الليل. أبواب البيوت تتخلع بأنين وتنشطر إلى جذاذات وعيدان ورقـائق. وتحت ثقل الجنازير تتفتت الصخور متحولة إلى معادن وأتربة ونثار من تكلسات عتيقة المنشأ تشف عن أصول مرجانية وغرانيتية وكاربونية. وبحركة بهلوانية يجتمع الخليط ليلقي في أجواف قلابات عملاقة تأخذه إلى مشارف الصحراء بعجل.

نعم، أمر سهل تحويلها إلى مزرعة. فهي الآن جثة تخترمها الوحوش من جميع الجهات. من النهر والسوق الشعبي، من جهة القرى والشارع العام، من فوق ومن تحت، فكـل الجهات منابع خطر دائم. لاتبقوا حجراً على حجر، حولوها إلى خرائب يسكنها البوم، فالمدينة التي تتطاول عليَّ لن ترى فجراً آخر من حياتها. أزيلها من الخرائط كما أزيل قلامة أظفري، أمحق اسمها من سجلات الوطن، أشعل هواءها بجبروتي وأحرق هدوؤها بنفثات غضبي. وهكذا كان.

ففيما كانت الوحوش تنهش الضحية وتجترها، كان ثمة أوامر أخرى لاتقل ضراوة توجه إلى دوائر خفية تطالبها بشطب سجلات المواليد وتغيير عناوين السكان وحذف اسم تلك البقعـة المشؤومة من كل الخرائط. فليس لنا حاجة لمدينة مثل هذه. لسنا بحاجة لمدينة تتطاول عليَّ.

ومع مضي الليل إلى تخومه الأرجوان خلف البساتين، ومع دوران النجوم في هباء كون أجرد، كانت المدينة تتناقص جزءاً فجزءاً، تنقضم حارة بعد حارة. غابت دكانة مصلح الـدراجـات والـمطاعم الثـلاثة وتشوه مبنى الشرطة السرية، ومافتئت ثلاثة دور من دور المواطنين تقاوم بإرادة مهزومة هجمات بلدوزر لاينفك يغوص في الأحشاء. أما البيتان اللذان أوشكا أن يكونا محط أنظار ملايين المشاهدين، فقد تبخرا مع كل الأبهة المستجلبة والـروائـح المستخلصـة من النـرجس والقرنفل. المدينة تتسطح داراً فداراً، وتشيع في

تسطحها روائح نفاذة ثقيلة، وكلما تقدم الهدم والتسطيح تسري الأخبار طائرة بأجنحة من الذبذبات إلى مكتب الرئيس: أزيلت خمسة أبنية، مسحت ثلاثة شوارع، حطمت روضة الأطفال، أحرقت كتب المكتبة، مهدت حديقة البلدية بأزهارها وثيلها وياسمينها، وتردّ عليها أوامر صارمة لاتقبل التأويل: لن يطلع عليها فجر آخر، فتؤكد الأفواه الواثقة من جبروت آلاتها: لم يتبق من عمرها إلا سويعات.

سويعات فاصلة عن الفجر القادم من الشرق، سويعات ويجثم يوم جديد خشن على أرض لن تسمع بعدها نداءات باعة الخبز والمكارية وقهقهات الأعراب. سويعات كان الغبار فيها يتسلل تحت جنح الظلام ليحط على أوراق ليمون بعيد وسعف نخيل وتويجات لفت تنتظر غزو نحل بري.

هلّ الصباح على الأرض وعمّ السكون بعد أن أطفأت الآلات محركاتها، ومن الأفق نهضت شمس مذهبة تحف بها أصابع الهواء غير المنظورة. شمس تضاحك أشعتها، ديدان التراب والدعالج المختبئة في جوف عليقة لم تلبث أن عانقتها صقور ونوارس زاعقة تجمعت فوق تربة غضة بكر. كانت تحط بين فينة وأخرى على ديدان رخوة وصراصير وحشرات كسولة أخرجتها المكائن من الظلمات إلى النور. تحط غير هيابة من العمال المتوسدين حديد آلاتهم، فالنوم عميق والجهد بالغ والأحلام طائشة.

كان العمال النائمون يسمعون من فج عميق وآفاق لامحسوسة أصواتاً غير مفهومة مختلطة الإيقاعات: صياح ديوك، ونداءات باعة، ولغط نساء، ودمدمة مكاريين، وأبواق سيارات زاعقة، أصواتاً تطلقها أرض رخوة مرقشة بديدان أعماق عمياء، أيقنوا من بين هفهفة أحلامهم ونعاسهم أن ذلك كله لايعدو أن يكون شبح المدينة التي اختفت. شبحها الذي لايود مفارقة المكان.

في الذكرى الثانية لرحيل رشدي العامل

شاعر في الحدود القصوى من الحب

فاضل السلطاني

ذات فجر بعيد، فجر الثالث من أيلول ١٩٧٧، أي قبل موته بثلاث عشرة سنة، وستة عشر يوماً، رأيت أبا علي لآخر مرة، وكان قد سافر معي إلى مدينتي، مساء اليوم السابق، في محاولة لإقناعي بعدم السفر الذي كان يسميه هروباً، وقد كان كذلك كما اكتشفت فيما بعد، ولكن هذا موضوع آخر.

في تلك الأيام المضطربة اختلفنا كثيراً حول الموضوع ذاته ـ وهل كان يوجد موضوع سواه؟ ـ الجبهة. ارتفعت نبرة رشدي، وتوعد باصبعه الصغير، وحين يغضب رشدي يصبح أكثر جمالاً: يرتعش جسمه كله ويرتفع من مكانه، وتشعر حينها أن كلّ دمه قد تجمع في وجهه النحيل الصغير كوجه طفل. ولكن لاأحد يغضب من غضب رشدي، لأنه الغضب الذي يفجره الحب لك، والخوف عليك، حقاً أم باطلاً، ولأنه لايستمر سوى لدقائق معدودة. لايمكن أن تختفي بسمة رشدي طويلاً، فأزماته لاتسحب ظلالها إلى شفتيه إلا نادراً. إنها تذهب بعيداً.. بعيداً جداً لتستقرّ هناك في الأعماق مشكّلة جراحاً لاتُنسى.

افعل كل شيء أمام رشدي، ولكن لاتسيء إلى الحزب بكلمة واحدة (مايعتبره هو إساءة). هذا الرجل الذي افترق عن الحزب منذ الستينات، كما أعرف، كان أكثر شيوعية من العشرات من جملة البطاقات الحزبية، وكل أفعال حياته، وخاصة في السنوات الصعبة الأخيرة، تؤكد ذلك.

قد يفهم من هذا الكلام أن رشدي كان «حنبلياً» كما اعتدنا أن نقول. العكس هو الصحيح، فقد كان يتمتع برؤية واضحة، وإحساس صادق، وكره شديد للقتلة الذين تحالفنا معهم، وكان يتألم أشد الألم من بعض توجهات الحزب وسياسته، ولكن على طريقته الخاصة: كان يتعامل مع ذلك كما يتعامل مع أزماته الشخصية: سحبها إلى الأعماق، والإقفال عليها هناك، وتسريبها، بين الحين والآخر، على شكل نكات لاذعة، سوداء، ولكن الأمر لم يصل أبداً إلى تكوين وجهة نظر تقود إلى القطيعة التامة.

قلة من الناس يحبون بهذا الشكل.. هذا الحب الذي يشكل الوجدان، ويصوغ الضمير ويؤكسد الدم، حتى لتكاد تراه من خلل العروق، ويكاد ينضح من العيون. إنه الحب الذي يغذي الشهداء بتلك القوة الهائلة الغامضة التي يحار أمامها الجلادون. وهذا الحب لايمكن تقطيره: قطرة هنا، وقطرتان هناك. إنه يتوزع بالقسطاس على الناس، والوطن، والحزب، والمرأة، والأصدقاء، والحرف. حب واحد يتجلى بأشكال مختلفة، ويكذب من يقول أن هناك نوعاً آخر من الحب.

قال لي في ذلك المساء البعيد ونحن على ضفة الفرات الجليل:

ـ ستعود... هل ترى إلى هذا الرمل؟ لن تجد أشرف منه مهما غرّبت وشرّقت.. وحسم الأمر بهذا القول القاطع: ستعود بعد أسبوعين.. وها هي خمس عشرة سنة تمر يا أبا علي، ولكن هذا، مرة أخرى، موضوعٌ آخر.

كان رشدي من نمط الشعراء الذين ينطبق عليهم قول ناظم حكمت: «وضعوا الشاعر في الجنة فصاح:

آه ياوطني ومات..»

بعد اعتقاله في حملة السبعين، بوشاية من أحد شعراء النظام المعروفين، خرج رشدي برجل شبه معطوبة، وظل يعاني من ذلك حتى رحيله. وكان الحزب آنذاك قد قرر إرساله للعلاج، ولكن لم تنفع كل المحاولات «الجبهوية» في رفع قرار الحظر. أي وطن هذا؟ورغم ذلك أي حب منحه رشدي لهذا الوطن:

هل أنت النار ؟ وقلبي حطبٌ يغمره الزيتُ
ولايحترق
أم أنت المصلوبُ؟ ومسمار الصلبِ؟
وأنت العافية الكبرى والداءُ

نحن لانطلب للحب ثمن
إننا نرضى من الأرض بشبر وكفن
ومن العالم خبزاً وسلاماً ووطن!

●

يقـول في إحدى رسائله الأخيرة: «لعله يسرّك أن تعلم أني أكتب باستمرار، وأن الغضب البارد يجد منفذاً طيباً خلال هذه الكوة العالية: الشعر». . ويقول في آخر رسالة وصلتني بعـد أن جابت كل المحيطات: «لاأفعـل شيئـاً الآن، أكتب الشعـر، وأسمـع الموسيقى، وأفكر فيكم». .

إن موقف رشدي، وغيره من كتابنا الشرفاء، الذين نعرفهم والذين لانعرفهم حال، إلى حد كبير، دون تحويل «ثقافة» النظام إلى ثقافة سائدة، وحال دون امتدادها شعبياً في العمق، إنهم هم حملة تقاليد ثقافتنا الوطنية العريقة بأبعادها الإنسانية. وكان رشدي يعي ذلك تماماً، فحين سمع أن هناك «مفاوضات» تدار، كتب محذراً:

«سمعت أنك ستعود. . لماذا تعود؟» وهو يعني: لماذا تعودون. . ؟

لايوجد هناك تناقض بين موقفه هذا، وموقفه الذي ذكرته في البداية، وإنما هما، في الحقيقة، موقف واحد. فإذا كان خروجنا خطأ منذ البداية، فإن عودتنا هي خطأ أيضاً، لأن هذه العودة لم تعد تعني شيئاً، ولن تكون سوى عودة التائب، وإقراراً بسلطة القاتل، وامحاء للحدود بين الجلاد والضحية.

يقول رشدي هذا وهو العصيّ على السفر، إذ لم يغادر العراق سوى لفترتين قصيرتين (دراسة أكاديمية في القاهرة سرعان ماقطعت ليعود إلى العراق بعد ثورة ٥٨، ودورة صحفية في هنغاريا لستة أشهر). . أي حبّ هذا؟ وأي وطن هذا؟

كم أحببتك ياوطني
أنت لي الضوء وأنت العتمه
أنت الفجر وأنت الليلْ
وأنت العاشق والمعشوق
وحبال الجلاد على عنقي والمشنوق
ياوطني. . .

في السنوات الأربع الأخيرة من حياته، بدأ اليأس، للمرة الأولى، يتسرب إلى حياة ونص رشدي الإبداعي، خاصة في ديوانه الأخير الذي صدر بعد وفاته(*) ورغم أن هناك واقعة كبيرة واحدة في هذا الديوان، كما في الدواوين السابقة، هي واقعة الوطن التي تتفرع منها كل الواقعات الأخرى: المرأة، الولد، الانتماء وأخيراً واقعة المرض والموت. إلا أن الخطاب الموجّه لهذا الوطن قد اختلفت نبرته الآن.. إنه خطاب مليء بالأسى والقلق والخوف على ضياع هذا الوطن الذي كان مليئاً بالوعود. لم نعد نلاحظ أن هناك تبشيرا «بالمستقبل الوضاء»، بل رثاء مفجعاً للماضي والحاضر. لهذه البلاد التي لم تترك له سوى الوحدة، وسرير المرض والجلاد الذي «لا يعرف بغداد».

إنه اليأس الذي يستولي على الإنسان وهو يعيش هذه التراجيديا الفريدة في تاريخنا القديم والمعاصر، اليأس الذي يتسرب إلينا، شيئاً فشيئاً، بعد هذه المسيرة الطويلة من الانكسارات الوطنية والشخصية - يبدو النضال، في لحظات كهذه، وكأنه بلا معنى لشاعر ومواطن هو: «في الحدود القصوى من الالتزام، تلمس مارافق شعبه من عنت وجهل وعبودية وتعسف واستعمار»:

مرحباً أيهذا الخيال الذي لايمرّ بعيني
ويا أيها الصوت يدنو
ويا أيها الوجه يُخفي عيونه
إن درب المفازة ملحٌ وشوك،
وأقدامنا تعبت ومدانا بعيد
قد أضعنا مع الليل راياتنا

(*) كما هو معروف نشرت مجلة الثقافة الجديدة - العدد ٢٣٥/ ١٩٩١ - مجموعة قصائد لرشدي كان قد بعثها الشاعر إلى أحد أصدقائه المغاربة لطبعها هناك، ولم تُطبع حينها. وكان الشاعر قد بعث لي برسالة قبل حوالي أربع سنوات، عبر فيها عن رغبته بطبع مجموعة جديدة له في بيروت أو تونس ويبدو أن ديوان «الطريق الحجري» هو المقصود بذلك. ويضم هذا الديوان - الذي صدر بعد وفاة رشدي عن مديرية الشؤون الثقافية العامة، وزارة الإعلام العراقية ١٩٩١ (٤٥) قصيدة كتبت في الأعوام ١٩٨٥ (١٤ قصيدة)، و ٨٦ (١٤ قصيدة) و ٨٧ (٦ قصائد) و ٨٨ (٥ قصائد) وكتبت باقي القصائد في الأعوام: ٦٤ (قصيدة واحدة)، و ٧٦ (قصيدة واحدة) و ٨٠ (قصيدة واحدة) و ٨٣ (قصيدة واحدة) و ٨٤ (قصيدتان).

ومع ذلك لايمكن ليأس الشاعر الحق إلا أن يكون يأساً خلاقاً، يأساً إنسانياً يطالب، وهو يعلن عن نفسه، بالنقيض، ويربو على الحياة أن تكون بهذا الحجم من القسوة والدناءة والقبح، ويستحث الإنسان أن يكون جديراً باسمه فوق الأرض:

علّها تستفيق
ذات يوم، لعل البريق
يعود إليها ويرقص بين عيون المرايا
ولعل الحريق
لم يكن غير رعشة برق تلألأ فوق الزوايا

يستمر رشدي بهذا الغناء الحزين، والغناء لايعيبه، ومايعتبره البعض نقيصة عنده يعتبره هو ميزة له: نعم أنا شاعر رومانسي، فهو لايعبأ، كما يقول، أن يقوم نفسه ـ شعرياً ـ مُفكراً أو مثقفاً يلوك معارفه ولابد أنه قصد بكلامه هذا أسماء معينة حلت عندها المغامرة اللغوية المفتعلة، والجمل الذهنية الباردة، والغموض المصطنع، والتجريب الذي لاتقتضيه ضرورة فنية، محل حرارة الشعر التي تصيب كل الجسد بالحمى. فرشدي يدرك جيداً أن الشاعر الحقيقي يعرف كيف يدخل فكره أو معرفته في نسيج القصيدة، ويخلق مايسميه هيغل بالصورة المفكِّرة. حقاً لم تعرف قصيدة رشدي ماعرفته القصيدة عند مجايليه من تطور كبير، عند سعدي يوسف مثلاً ـ ولكنه تميّز بغنائه العذب، الخاص، المنسجم تمام الانسجام مع إيقاع الحياة التي يعيش.

نحو نظرية للثقافة*

تأليف: د. سمير أمين
مراجعة: كامل شياع

يهيىء هذا الكتاب قارئه لمهمة التعامل مع الثقافات العالمية من زاوية اشتراكها بمكونات واشكالات ونظرات ووظائف محددة وعامة، ولكن هذا التركيز على عناصر الوحدة في الثقافات، وليس على عناصر الاختلاف، لا يأخذ سوى شكل ملاحظات منهجية، تقوم على تقدير المكانة المهمة للثقافة في تطور المجتمعات الانسانية. ان تأويل الثقافة وفق هذا المنظور يجعل منها تعبيراً عن «قوانين» شاملة للفكر الانساني، وهذا ينطوي بشكل بديهي على اقصاء تلك التعبيرات الثقافية الشاذة والعصية على التأويل من دائرة البحث، وهذا يعني ان ارضية التأويل المفترضة تأخذ شكل نظرة تركيبية تتجاوز حدود فهم وتقييم الثقافة من داخلها، أو انطلاقاً من مفهوم احادي من خارجها لصالح تلمس تلك التجليات الراقية لها، كالدين والفلسفة والعلم. وهذا الاهتمام بكشف البنى العامة للفكر يجد تحققه في الولع التقليدي لتاريخ الافكار بتشخيص انتقالات الفكر من مرحلة الاسطورة، مثلاً، الى مرحلة الفلسفة، أو من مرحلة الدين الى مرحلة العلم. وهلم جرا. وضمن هذا المنحى لتوصيف تاريخ الفكر (أو الايديولوجيا) يقترح د. سمير أمين ثلاث مراحل مرت بها منطقة حوض البحر المتوسط والتي تشمل العالم العربي واوربا. وهذه المراحل هي مرحلة العصر القديم والوسيط والحديث، وهي ترتبط ببعضها بعلاقة تطورية تتوجت بسيادة الفكر العلمي في العصر الحديث، ولكنها ايضاً اشتركت، وبالتحديد

* نحو نظرية للثقافة: نقد التمركز الاوربي والتمركز الاوربي المعكوس (معهد الانماء العربي) ١٩٨٩.

مرحلتا العصر الوسيط، والحديث، في الطموح الى تقديم مشروع انساني عالمي. وهنا بوسعنا الاشارة الى ملاحظتين بصدد تحقيب د. سمير امين لتاريخ الفكر، الاولى، هي انه لا يبدو متماسكاً تماماً في فهمه لعملية التطور من العصر الوسيط الى العصر الحديث بحيث انه يوحي احياناً بانها عملية حتمية (ص ١٤٤) في حين انه يعتبرها في مكان آخر عملية غير حتمية الحدوث (ص ١٥٣) أما الملاحظة الثانية فهي ان تحقيب د. سمير امين يعيد الى الذهن ما ذهب اليه عالم الاجتماع الوضعي اوغست كونت بان تاريخ الفكر هو حركة تصاعدية من التفكير الاسطوري الى التفكير العلمي عبر التفكير الميتافيزيقي. ولكن قبل الذهاب بعيداً في هذا الاحتمال ينبغي عدم اغفال حقيقة ان د. أمين هو مفكر اقتصادي يأخذ بالنظرة التاريخية بالدرجة التي تمكنه من ايجاد ترابطات بين مراحل الفكر وما يقابلها من تكوينات سياسية واقتصادية. فالفكر (أو الثقافة) يحمل غاية أو وظيفة تستجيب لعمليات عميقة متفاوتة التأثير، وهذا وما يمكن التدليل عليه في تعريف المؤلف لطبقة المثقفين (الانتيلجنسيا) كطبقة منتجة للمشروع «المجتمعي في مجال معين من مجالات احتياجات هذا المشروع» (ص ١٧١).

يقترح المؤلف ثلاث مراحل ممكنة لترابطات الثقافة والواقع، الاولى هي مرحلة العصر القديم، التي خلت فيها الثقافة من أي نزعة نحو التمحور حول فكرة مركزية شاملة لكونها ثقافة مجتمعات منعزلة أو شبه منعزلة عن بعضها. وكان ابرز ما امتازت به هو تجاور الممارسة العملية القائمة على التجربة مع المعتقدات الميثولوجية المحلية (فميثولوجيا اليونان القديم هي غير ميثولوجيا البابليين، وميثولوجيا مصر القديمة هي غير ميثولوجيا الفينيقيين). ووفق هذه المواصفات فان ثقافة العصر القديم قد أصبحت مؤشراً لتبعية الانسان للطبيعة (ضمن شروط محلية) ولضعف نفوذ الدولة، بحيث اعطى تأثيراً حاسماً لعلاقات القرابة في حياة الجماعة.

أما المرحلة الثانية، مرحلة العصر الوسيط فقد امتازت الثقافة بهيمنة الميتافيزيقيا التي ببحثها عن الاسباب الاولى والمعاني القصوى للوجود، أخذت بمنطق الاستنباط العقلي على حساب منطق الاستقراء التجريبي. ان غلبة التفكير بمسائل مجردة كأزلية النفس، والسببية، وعلاقة العالم الطبيعي بالعالم ما فوق الطبيعي، وغيرها قد تطابق مع حاجات المجتمعات الزراعية، ومع الميل لتشكيل امبراطوريات كبرى (كامبراطورية الاسكندر الكبير والرومانية والاسلامية والمسيحية).

وأخيراً فقد دشنت المرحلة الثالثة، مرحلة العصر الحديث، بداية نهاية هيمنة الميتافيزيقيا العقلانية للعصر الوسيط، وترسخ المنهج التجريبي الاستقرائي في العلوم الطبيعية. وقد اوجدت العقلانية الاداتية (العلمية) الناتجة تحققها الاقصى في مجال

الاقتصاد (انتاج الثروة وتنظيم العمل).

ان مجال هذه العقلانية تجاوز القارات ليصبح ظاهرة عالمية اثرت بشكل مُخل على انماط الحياة الطبيعية لغالبية شعوب الارض. فبجانب انجازات العقلانية الغربية من النواحي السياسية (الاعتراف باستقلالية المجتمع المدني والديمقراطية والعلمانية) فانها جلبت معها ظاهرة الاستعمار بكل آثارها المخربة.

ان تعرضنا للحقب الثقافية الثلاث اعلاه، لم يتم بدافع تكرار ما ورد في الكتاب، بل لاظهار ان وراء التبسيطات والتعميمات التي انطوى عليها تكمن فرصة مهمة لمراجعة ما هو متداول بخصوص تاريخ العرب والاوربيين. ان ما يستحق الاشارة اليه في هذا الصدد هو اجتهادات المؤلف من قبيل: ان الوحدة والاتصال الفعليين بين الثقافة المصرية القديمة واليونانية هما اكبر واعمق من الاختلاف المنسوب اليهما؛ ان كل من الفلسفة الهيلينية والمسيحية والاسلام تقوم على بنية ذهنية متماثلة هي بنية العلاقة بين العالم العلوي والعالم الدنيوي؛ ان الافلاطونية الجديدة، التي ولدت في مصر وعبرت عن فكر الخاصة، لم تتمكن في نهاية الامر من جعل صيغتها للتوفيق بين العقل والوحي صيغة مقبولة على مستوى فهم عامة الناس لماهية الدين، أخيراً فانه من خلال نموذج المركز والاطراف يمكن تفسير تطورات أو تراجعات ثقافة هذا المجتمع أو ذاك. فعند تطبيق هذا النموذج على الثقافة العربية الاسلامية، وجد المؤلف ان هذه الاخيرة قد لعبت، في فترة العصر الوسيط، دور المركز الذي تبلورت فيه اجابات كاملة ـ ضمن شروطها ـ عن مسائل علاقة الفلسفة بالدين، العقل (أو التأويل المجازي) بالنص (أو التأويل الحرفي)، وأزلية النفس الانسانية. مقابل هذا فان النزعة المدرسية في اوربا العصر الوسيط لم تبرز الى العيان إلا في بداية القرن الثاني عشر ولكن دون ان تكون قادرة على تمثل جميع الثمار الفكرية الراقية والعالية التجريد التي راكمتها الميتافيزيقيا العربية الاسلامية (ص ٦٣). ومع ذلك فان ما ترتب على علاقة اللاتكافؤ المعرفي هذه هو المثير حقاً، لان الثقافة الاقل تطوراً في العصر الوسيط (الثقافة المسيحية الاوربية) قد امتلكت قصب السبق في تدشين النزوع العلمي التجريبي للعصر الحديث، وفي النبذ التام للمنطق الارسطي للتفكير. أن العلاقة بين ثقافة مركزية مكتملة، ولكن ذات ميل للتكرار والجمود، وبين ثقافة طرفية غير مكتملة وقابلة لاختراق حدود عصرها، ليست حالة استثنائية بنظر المؤلف، بل هي ملاحظة قابلة للتعميم الى حد ما. وهذا ما يفعله تحديداً حين يقارن مصير علاقة المركز والاطراف ضمن ثقافات البحر المتوسط في العصر الوسيط وبين مصيرها في الشرق الاقصى، كما تجلت في العلاقة بين الصين (المركز) واليابان (الطرف). ان المثال الاخير ايضاً يرسخ الاعتقاد بان الثقافة الطرفية قد امتلكت حظوظاً اكبر لدخول العصر الحديث. ان هذين المثالين

يحرضان على التساؤل حول دور الثقافة والدين في تطور المجتمعات. ان رأي (سمير أمين) ازاء هذه المسألة يختلف عن رأي عالم الاجتماع (ماكس فيبر) الذي قرن تطور الرأسمالية في اوربا بالمذهب البروتستانتي، معتبراً بعض اديان الشرق كعوامل معيقة للتطور. فالمؤلف يرفض من حيث الاساس أي تصنيف مسبق للثقافات على اساس كونها معيقة، أو غير معجلة للتطور التاريخي.

ان فهم الثقافات ضمن سياقاتها الملموسة، وبالتالي رفض الاحكام الخارجية (السلبية أو الايجابية) التي تستند اليها يشكل مدخلاً مناسباً لتحليل ونقد نزعة المركزية الاوربية في الثقافة، فنقد (سمير أمين) للتمركز الاوربي يحظى بقيمة عالية، ليس لانه كشف الخلفيات المادية، بل لانه بسبب تركيزه على عناصر الوحدة في الثقافة، لا على عناصر الاختلاف، قد اقترح افكاراً نظرية لتخطي قدر لا بأس به من التحيزات والاحكام المسبقة التي تكتنف عادة نظرات الثقافات المختلفة الى بعضها البعض. بالطبع فانه ليس كل الاحكام والمفاهيم الخاطئة في نظرة الثقافة الاوربية (والمسيحية) الى الثقافة العربية (الاسلامية) يمكن عزوه الى نزعة المركزية الاوربية. ذلك ابتداءً من عصر النهضة الاوربية (عصر نشوء الرأسمالية) فقط، نشأت نظرية التمركز الاوربي، من حيث كونها عملية «تشويه منظومي مركب، تتناسق عناصره تناسقاً متكامل الاجزاء» (ص ٧٧).

اقترنت هذه النظرة بادراك الغرب لتفوقه على الحضارات المتجاورة فيما تحققت عملياً بهيمنته التدريجية، ولكن الاستثنائية في شموليتها، على العالم. ومن هذا الموقع المتميز عمد الغرب الى تصوير ثقافته على انها تنطوي على جملة من الخصائص الجوهرية الايجابية (كالتفكير العقلي، والموضوعية العلمية، والرسالة التمدينية)، وبالمقابل على تصوير الثقافات الاخرى بكل ما هو خلاف هذه الخصائص (كالتفكير الحدسي، والخرافي والمتوحش). وفي حقيقة الامر فان وعي الغرب لنفسه، بالشكل الذي قاده الى الانغلاق ضمن المنظور الضيق للمركزية الاوربية هو ما ينبغي تعريته ونقده. فادعاء الغرب بهوية ثقافية ثابتة، وباستمرارية تاريخية متسقة، منذ اقدم العصور وحتى الوقت الراهن، ينطوي على جملة مغالطات كبيرة. من هذه المغالطات التاريخية والفكرية فصل الثقافة اليونانية عن مجالها الثقافي الفعلي (حضارة البحر المتوسط) وإلحاقها بمجال وهمي هو المجال الغربي. وهذا قاد الى تجاهل التأثير الكبير لثقافات «الشرق»، قبل الاسلام وبعده، على ثقافة الغرب اليوناني، ومن ثم المسيحي. أما المغالطة الاخرى، فهي الانجذاب الى حجج غير علمية، عن تفوق العنصر الاوربي (الهند واوربي)، أو عن السببية الجغرافية التي منحت سكان المناطق الباردة في غرب اوربا طاقة انتاج لا تضاهى. واخيراً فان الغرب من موقعه المتميز كقوة مهيمنة قد انتج الصورة التي تناسبه، رغم لا

صدقها، عن الشرق. وهنا يشيد المؤلف بكتاب «الاستشراق» لـ (د. ادوارد سعيد) لاسهامه في تحليل النظرة الايديولوجية في الثقافة الغربية للشرق كحامل لسمات سلبية ثابتة هي النقيض المباشر للسمات الايجابية للغرب، ولكنه، من الجانب الآخر، لا يشاطر (د. سعيد) في الوقوف عند حدود النقد السلبي للمركزية الاوربية، وما انتجته من «معرفة» استشراقية، ويعتبر ان هناك ضرورة لامتلاك «فهم ايجابي للعالم بكليته» (ص ١٠١)، أي لامتلاك قدر من النظرة الموضوعية المجردة التي بامكانها تجاوز محدودية المنظورات الاحادية لهذه أو تلك من الثقافات، ولهذا يبدو للمؤلف ان العيب ليس في الاستشراق بذاته ـ لانه يظل دائماً محاولة مشروعة للغرب في فهم الشرق ـ بل في جملة النظرات والاحكام الزائفة التي فرضها على موضوعه (الشرق). فخلافاً لوجهة نظر (د. سعيد)، يعتبر المؤلف ان هذه النظرات الاوربية المشوهة عن الشرق والاسلام هي، كما اشرنا سابقاً، حديثة نسبياً وترافقت مع نشوء الرأسمالية والاستعمار الاوربي بشكل اكثر دقة، ولهذا فانه ليس كل التمثيلات المفهومية للغرب عن الشرق هي متحيزة وغير موضوعية بالمرة. ان رؤية الثقافات من منظور عالمي للتاريخ، كما يطمح (د. أمين)، سيتيح تجاوز مواقف التشكك والانغلاق في علاقة الثقافات ببعضها.

ندوة عن ادب أبو گاطع

ادب الشهيد شمران الياسري الذي عرفه العراقيون باسم «ابو كاطع» كان موضوع ندوة اقيمت يوم السبت ١٩٩٢/٨/١٥ في قاعة بلدية هامر سمث في لندن.. في هذه الندوة التي نظمها المنتدى العراقي شارك ثلاثة كتاب عراقيون:

تحدث الروائي زهير الجزائري عن الريف في روايات ابو كاطع وبالتحديد عن رباعيته. وتحدث الشاعر عبد الكريم كاصد عن ادب ابو كاطع في نظر القارىء والناقد العراقي. اما كتابات ابو كاطع الصحفية وطبيعة عموده الشعبي اليومي فكان الموضوع الذي تحدث عنه الشاعر عزيز السماوي (ستنشر المداخلات في عدد قادم).

قبل رباعية ابو كاطع كتب العديد من الروائيين العراقيين عن الريف، وليس من الريف. وقد ظهر الريف منذ العشرينات في كتابات (محمود احمد السيد وجعفر الخليلي وذو النون أيوب) وقد لاحظ الجزائري في مداخلته ان معظم هذه الكتابات اتسمت بالتعاطف الخارجي مع الفلاح أكثر من المعرفة القائمة على المعايشة، ولذلك كانت تنظر للريف كموقع للبراءة وتنظر للفلاح باطلاقية وأحياناً كرمز.. رباعية ابو كاطع هي اول عمل مكتوب من داخل الريف وبلغته وبوعيه عن نفسه. وقد ارتبطت براءة الريف وطيبة الفلاح في روايته بمرحلة محددة، هي مرحلة المشاعة القبلية التي سبقت الاقطاع. ولكن مع دخول الانكليز وظهور الاقطاع، لم يعد هناك فلاح بالمطلق.. لقد انقسم الفلاحون.. كل حسب موقعه ورواية ابو كماطع ترينا بانوراما واسعة من فلاحين مختلفين.. شجعان، ثوريين، بسطاء، مداهنين، متملقين.. بل ترينا صفات متناقضة داخل الفلاح الواحد، حسب اللحظة والموقف... وينتهي الجزائري إلى ان تداخل الشخصيات ومصائرها يشكل تاريخاً نفسياً للريف العراقي من فترة ما بعد العشرينات حتى انقلاب شباط ١٩٦٣.

ولاحظ عبد الكريم كاصد في مداخلته ان النقد العربي والعراقي بالذات قصر بحق ابو كاطع، وان الكثير من الادباء العراقيين لم يقرأوا رباعيته أو لم يكملوها. وان الفقيد الناقد مصطفى عبود هو الوحيد الذي درس رعاية ابو كاطع دراسة جادة..

وقد ناقشت المداخلة فهم الناقد للروائي.. فنظرة مصطفى عبود لابو كاطع تتسم باشكالات نظرة مثقف المدينة إلى روائي الريف... وقد انطلق الناقد نفسه من المسلمات العقائدية التي يتهم بها ادب ابو كاطع. ولاحظ كاصد ان الرواية بنزعتها الواقعية السافرة كانت ابعد ما تكون عن العقائدية المسبقة. على العكس، كانت المسلمات العقائدية واحدة من مواضيع سخرية فلاحي ابو كاطع. وقد انتقد المحاضر ظاهرة تذكر مبدعينا في المناسبات فقط. وقال! ان ذلك اكثر دلالة على النسيان.. فتذكر ادب ابو كاطع والوفاء له ينبغي ان يصبح موضوعاً ادبياً وتواصلاً مع الخط الذي سار عليه.

ما هي اصول الحكاية في عمود ابو كاطع الصحفي.. هذا السؤال طرحته مداخلة الشاعر عزيز السماوي الذي القى الضوء على اهمية اللغة المحكية الشعبية في تاريخ الادب العربي مذكراً بكتابات ابن خلدون وابن المقفع ومقامات الحريري وأغاني ابي الفرج الاصبهاني. ولاحظ ان المصدر الاقرب الى ادب ابو كاطع هو المقامات، لانها تعتمد على المصادر المحكية، وتستخدم الامثال والاغاني والقصص المتداولة بين الناس. واكد على ضرورة النظرة الجدية لادب ابو كاطع الذي يجعل الادب الشعبي المتداول جزءاً اساسياً في الادب المكتوب.

فيصل لعيبي

معرض جديد

في السادس من حزيران الماضي، افتتح في قاعة (غاليري ٤) في لندن، المعرض الشخصي الجديد للفنان فيصل لعيبي، متضمناً ٢٥ لوحة، يواصل فيها بحثه الفني المتميز، ومتابعته للموضوع العراقي، بالأدوات والتقنيات التي عرف بها الفنان فيصل، وقد أقيمت ندوة حول المعرض، ساهم فيها، إضافة الى الفنان كل من الشاعر الفنان صادق الصائغ الذي أدار الندوة، والفنان ضياء العزاوي، والشاعر بلند الحيدري، والدكتور محمد مكية، والدكتور محمد صادق رحيم.

تابعت الصحافة الثقافية المعرض المذكور في حينه، فقد كتب هاني مظهر مقالة في جريدة الحياة (١١/٦/ ١٩٩٢) جاء فيها:

«وللدخول في اللوحة نقترح قبل

الوقوف عند الزاوية المناسبة للنظر أن تتقصى العوامل المؤثرة في رؤية الفنان وهي تكشف عن الكثير من خصوصيتها بما عرف عن لعيبي من وضوح وابتعاد عن التكلف والتعمية:

الإنسان أولاً... حتى أننا نتحسس الألم الإنساني ينز من شقوق الجدار الآشوري، في أعماله الأولى تعرفنا إليه في المشهد الشعبي، المرأة التي تكالبت عليها الهموم، رجال المحلة الذين اختار لهم التعب أسماءهم وملامحهم، في ذاك المشهد حيث تتداخل تفاصيل الحياة حتى يصير الإنسان من موجودات المكان ويتقاسم النهر والشجرة والإنسان والشرفة زمانهم.. هناك بدأ الفنان يرسم بخطوطه الهادئة الواثقة أشكاله ووضع لها مسمياتها الجديدة. في ملامح الإنسان شيء من كرسي قديم أو باب مخلوع، وفي رائحته خليط من روائح سوق شعبي، فالبيئة حاضرة بأحكامها وشروطها والفنان ـ بحسه الإنساني وبقدر كبير من الوعي السياسي ـ يحترم هذه الشروط ولايتردد أحياناً عن التصرف لصالحها وهو يشكل صورة الإنسان الذي بدأ به همه الفني، فصورة الإنسان تتجمع من صور وحالات ومشاهد وتواريخ منتقاة بعناية من البيئة العراقية، تكتسب أهميتها من ميلها إلى تأكيد الحالة الإنسانية، من دون الانسياق وراء مغريات الشكل الفولكلوري».

أما الشاعر بلند الحيدري فقد كتب في مجلة (المجلة) صفحة (كلمات) (العدد ١٧ ـ ٢٣ حزيران) قال فيها:

«وتتميز خطوط فيصل لعيبي بديناميكية أخاذة، بانفلاتاتها القوية وعفويتها، وبتكورها وتنوعها وانطلاقاتها وتمحورها، لتقوم حيناً بدور وصفي درامي لرجل يُنفذ فيه حكم الإعدام، أو لآخرين يتكومون على بعضهم البعض على مثل ما احتفظت به ذاكرتنا عن الانتفاضة في كردستان العراق وجنوب العراق. وحيناً لتفجير ما وراء تلك الاشكال من الاحاسيس وكأنه يفتح في ذاكرتنا كوى جديدة لاستقراءة تلك الانتفاضة في بعد آخر، أكثر عمقاً، ومن خلال إيقاعات خطوطه المتداخلة والمتعاضلة والتي لاتنفك تتواصل وتتواصل في حوار يبدأ من حيث ينتهي وينتهي من حيث يبدأ.

ونجده في تجارب خطية أخرى، يداخل مابين الخطوط ويكثفها في كتل لولبية تشريحية وعبر مداخلة مابين الواقع في جزئيات سائبة

كجذور الأشجار وتلافيف المخ وأشكال دودية، وأجزاء من وجه إنساني، وبين تجريدها من كل تلك الصفات الجزئية لتتحول بكليتها الدرامية إلى صراخ ذي نبرة مرتفعة جداً».

أمسيتان للرابطة

افتتاحاً لموسمها الثقافي الجديد، نظمت رابطة المثقفين الديمقراطيين العراقيين في سورية، أمسية شعرية لقصائد مهربة من العراق المحاصر، وأخرى من صحراء رفحا، في (البيت العراقي) في دمشق مساء ١٨/٧/ ١٩٩٢.

أقيمت الأمسية في إطار التضامن مع أولئك الشعراء القابعين تحت التسلط الدكتاتوري، وأولئك المنتظرين في بطن الصحراء. تلا القصائد القادمة من الوطن الشاعر فاضل السلطاني، أما القصائد القادمة من رفحا فقد تلاها الشاعر مهدى محمد علي.... وقدم للنصوص المقروءة الشاعر باسم المرعبي.

(نذكر قراءنا بأن قصائد الوطن هي التي تضمنها الملف الشعري لأدب وفن عدد آذار ١٩٩٢، وقصائد الصحراء تضمنها عدد الثقافة الجديدة لشهر تموز الماضي).

أما النشاط الثاني للرابطة فهو أمسية غنائية شعرية، قدمها الفنان (سامي كمال) والشاعران الشعبيان كامل الركابي، وسعد الشريفي، وقدمهم الشاعر فايز العراقي.

عرف المقدم بالشاعر سعد الشريفي بأنه بدأ كتابة الشعر في منتصف الستينات، ونشر العديد من قصائده في المجلات والصحف العراقية والعربية، ويعد حالياً مجموعته الشعرية الأولى تحت عنوان (حبينـاك)، شارك في العديد من المهرجانات الشعرية في العراق، وقرأ له المرحوم (أبو ضاري) العديد من القصائد في الإذاعة العراقية، في (ركن الشعر الشعبي).

استهل الشاعر قراءته بالمقطع التالي:

عشتار غِسْلَتْ من دمعها دروبها
والموت يركض بالشوارع والمدنْ
ياخذ كَلب محبوبها
وعشتار يازخ المطر
مثل الربيع الشجر طرَّز ثوبها
وعشتار مابين العيون تْنام
تصعد بالنفس

واحنا نظل بذنوبها

ثم قرأ قصائد أخرى من بينها القصيدة المنشورة في هذا العدد.

بعده قدم (العراقي) الشاعر كامل الركابي، مشيراً إلى أنه بدأ كتابة الشعر في أواخر الستينات، ونشر قصائده في الصحف والمجلات العراقية.. صدرت مجموعته الشعرية الأولى في البصرة عام ١٩٧٥ تحت عنوان (الگمرة وسواليف النهر)، أما المجموعة الثانية فقد صدرت في كردستان تحت عنوان (سورات الدم والنار).. لُحِّنَ العديد من قصائده وغُنّي من قبل عدد من المطربين العراقيين، منهم: فؤاد سالم، سامي كمال، حميد البصري، جعفر حسن ورعد خلف.

افتتح الشاعر قراءاته بالمقطع التالي:

اللهب بالتنور
والدم بالحَمِلْ
والشمس بالبيت
والفيّ مشتعلْ
ورجعت الأم بْطُبكَّها
عَشِرْ خبزات وطفلْ

وترنَّم (الركابي) بقصائد أخرى من بينها القصيدة المنشورة في هذا العدد.

أما الفنان (سامي كمال) فقد كان مسك ختام الأمسية، فمضى بجمهوره الجالس والواقف في جولة غنائية تراوحت بين الأغنية الوطنية والأطوار الفولكلورية على أنغام العود ووقع الآهة العراقية. انسجم الجمهور معه بالترديد والتصفيق الإيقاعي، وطلب منه أغنيته الشهيرة (يابحر صبري صبر سفينة).. وكان الجمهور كورساً.

حضر الأمسيتين جمهور واسع من العراقيين المتواجدين في الشام بينهم شاعرنا الكبير سعدي يوسف، وطائفة من المثقفين والكتاب والشعراء والمتابعين.

نتمنى للمرابطة مزيداً من النشاط المتميز، ومزيداً من التوفيق لخدمة الثقافة الوطنية العراقية.

النخيل

مجلة للفتيان

صدرت في السويد، اعتباراً من حزيران الماضي، الأعداد الثلاثة الأولى من مجلة (النخيل)، وهي مجلة شهرية موجهة للفتيان العراقيين



تعنى (النخيل) التي تصدر عن النادي العربي في بيتيو، بتعريف الفتيان ببلدهم العراق والوطن العربي ، وتتضمن أناشيد وحكايات وصفحات للتسلية. . لم يكن العدد الأول بالمستوى المطلوب لمجلة متخصصة، إلا أن العددين الثاني والثالث يبشران بتطور من جهة الغلاف والمحتوى.

نتمنى للنخيل قامة سامقة، **وخضرة دائمة، ورطباً جنياً. . !**

في المنفى، مديرها: جاسم هداد، وأمين تحريرها: عبد الواحد الموسوي.

المناطق الآمنة في جنوب العراق
«شر لابد منه»

عادل رؤوف

المناطق الآمنة في جنوب العراق كانت مطلباً مشتركاً وجماعياً لفصائل المعارضة العراقية.. وهي الآن تحولت إلى محور من محاور حركة المعارضة السياسية ومحور من محاور الإعلام العربي والدولي.. فبعض هذا الإعلام ـ وهو قليل ـ لايرى فيها أكثر من مفردة من مفردات الحدث العراقي المرتبط بمجازر النظام في جنوب العراق.. والبعض الآخر رأى فيها ما لايراه في أية قضية عربية كبرى أو صغرى من مظاهر الخطر الذي يتهدد العراق بالتقسيم والتجزئة والتفكك.. ورأى فيها على أنها ظاهرة شاذة تدل على «شذوذ» المعارضة العراقية «العاجزة» عن مقارعة صدام حسين ميدانياً فذهبت إلى الخارج تستنجده لتفصيل العراق على مزاجها!! وهذا ماطرحته صحيفة «السفير» البيروتية في أكثر من مقال ولأكثر من كاتب «قومي عروبي» وبالتأكيد فإن هؤلاء الكتاب يدفعهم الحرص على العراق والخوف من التقسيم الذي راح البعض من العراقيين والإقليميين يطالب به. ولا نعتقد أيضاً أن أحداً من العراقيين الشرفاء يرضى للعراق أن ينحني للغرباء أو يمد يده إليهم طالباً النجدة.. لا أحد يرضى لشماله قبل جنوبه أن ينام تحت خيمة الآخرين وتحت حراستهم.. حتى وإن كان الآخرون هم «الشرعية الدولية» أو الأمم المتحدة أو أي اسم آخر.. وكان مفروضاً للعراق أن لاينتهي هذه النهاية، كان مفروضاً لشماله أن يبقى كجنوبه يقاتل الطاغية ويواصل الانتفاضة بالممكن كما هو حال «ممكن» الجنوب.. أهواره التي بقيت تواصل الثورة وتحتضن الثوار وتسطر قصة المستحيل في عالم قلّت فيه المستحيلات.. أما وإن الشمال أريد له أن يرفع يديه وأريد له أن يفاوض النظام وأريد له أن ينام تحت خيمة الحماية الدولية.. فكان المفروض بالجنوب أن يلتحق بأي شيء.. أن يلتحق بهيمنة النظام أو بالأحرى أن يستسلم لحرابه، أو أن يموت بطائراته ودباباته ومدافعه.. الجنوب بقي ينزف ذاته ويقاتل بدماء أطفاله وجوع نسائه ويقف بشرف أمام عشرات الهجمات المخططة التي يشنها النظام عليه بلا هوادة.

وليس معقولاً أن يبقى الجنوب هكذا كما أنه ليس قادراً على مواجهة طاغية كطاغية العراق.. في ظل انعدام وسائل وأدوات القتال.. وفي ظل ظروف الحصار التي

يعيشها. . . وانعدام المواد الغذائية. . وحتى المياه، هي إما سُممت أو قطعت من خلال السدود التي نصبها الطاغية على الأنهار الواصلة إلى منطقة الأهوار. . والجنوب مع هذا لايريد الحماية الدولية مختاراً. . إنما لكي يحمي نفسه من إرهاب النظام، فأهل الجنوب والوسط الذين هم من المسلمين الشيعة يشكلون أكثرية الشعب العراقي وعليه فهم بعيدون عن فيروس التقسيم. . كما أن ثقافتهم وأفكارهم التاريخية خالية من الطموحات التي تصب في نهاية المطاف بالتقسيم وبخلاف ذلك فهم وحدويون تكامليون سواء على صعيد خطابهم التاريخي أو على صعيد مشكلتهم السياسية. لا بل أفكارهم تعتبر التقسيم واحداً من المؤامرات التي تستهدفهم. . وهم بالتالي لايسمحون لأحد أن يجزىء بلادهم. . وربما أن انضواءهم تحت الحماية الدولية يؤدي في واحد من إفرازاته إلى الاطمئنان بأن هذه الحماية لايُراد من خلالها تقسيم العراق. . فإبقاء الشمال وحيداً في ظل الحماية الدولية يُدلل ربما على سوء في النوايا باعتبار أن بعض الشماليين يطمحون إلى التقسيم في ضوء الأفكار القومية التي يؤمنون بها. . والتحاق الجنوب بهذه الحماية يُخفف من هاجس أفراد الشمال بها. . فإذا كان هنالك من مخطط يستهدف تقسيم العراق كما تُعبر عن ذلك بعض الأقلام العربية. . فهذا المخطط لايأتي عبر تعميم الحماية فقط على مناطق العراق. . إنما يمكن أن يأتي وبشكل أوضح عبر إبقاء الحماية مقصورة على شمال العراق وذلك بفعل دلالات الهاجس المذكور. وبمعنى آخر إن عدم انضواء الجنوب تحت الحماية الدولية لايحول دون تقسيم العراق إذا كان يراد لهذا التقسيم أن يتحقق. . إذ أن مؤامرة تستهدف وحدة العراق في الظروف الراهنة لايمكن أن يتصدى لها وحيداً الشعب العراقي فضلاً عن جنوبه. . بل إن مهمة التصدي تقع على عاتق العالم العربي والإسلامي أجمع ليس بسبب الدفاع عن العراق العربي ـ الإسلامي فحسب إنما كون تلك المؤامرة إذا ماتحققت يراد لها أن تبدأ بالعراق وتستهدف كل المنطقة بالتفكيك والتجزئة. . فأي بلد عربي وإسلامي لايشبه نسيجه البشري ـ الاجتماعي للعراق؟ وأي بلد من بلدان المنطقة غير مصاب بالتعدد القومي والمذهبي كما هو الحال في المجتمع العراقي؟ ومن هنا فإننا نُسطح المشكلة كثيراً إذا مااعتبرنا أن المطالبة بالمناطق الآمنة لجنوب العراق ستؤدي إلى تقسيمه. . لايختلف اثنان في أن المناطق الآمنة ظاهرة خطيرة. . ولايختلف اثنان أياً في أن عراق مستقبلي في ظل الحماية الخارجية في شماله وجنوبه، هو عراق ذو صورة يكتنفها الغموض. ولا ريب في أن المناطق الآمنة في الجنوب سوف لاتتحقق وفق ما يطمح أهل الجنوب، ولكن مع كل ذلك لابد من القول بأن المناطق الآمنة في الجنوب هو شر لابد منه. . فعندما يوجد «العالم» في العراق ظاهرة كظاهرة صدام حسين وتكوّن كل عناصرها الطاغوتية

والإرهابية. . وعندما تستفحل هذه الظاهرة لتعزز أساليب من الدموية والقتل والإبادة خارجة حتى على توقعات الذين كونوها وعندما يعارض الشمال هذه الظاهرة خوفاً منها. . وعندما لاتجد الأهوار من يسمع نداءها وصراخها لأكثر من سنة ونصف وهي تخوض القتال وحيدة ضد النظام الدموي. . ولا تجد من يمد يد العون والمساندة لها. . وعندما ينقسم العالم العربي على نفسه في مواقفه إزاء صدام حسين ويحول هذا الانقسام دون اتخاذ إجراءات رادعة بحقه ندما يحصل كل ذلك لابد أن تأخذ الصرخات حول المناطق الآمنة في الجنوب مشروعيتها من باب أنها شر لابد منه، شر يمس القيم المعنوية ولكنه يأخذ مشروعيته من هامش القانون الإنساني الدولي الذي غالباً مايُفعل بفعل مصالح طارئة أو أساليب مساومة أو جرّاء الإحراج، شرّ لم يختره الجنوب الذي وصمت ثورته بالشغب عندما اندلعت في أيامها الأولى إنما فرض عليه، وهل لأحد أن يختار الشر؟

عن «نداء الرافدين» ٢٠/٨

تعبر عادة عن مواقف المجلس الأعلى للثورة الإسلامية.

لن نرضى بجزء من العراق

أصدرت دول التحالف الغربي إعلاناً لإنشاء منطقة حظر جوي على طيران النظام العراقي في مناطق الجنوب العراقي من أجل حماية «الشيعة» من قمع النظام وإرهابه، وهذا مايثير التساؤلات والشكوك. فهذه الدول كانت إلى وقت قريب تلتزم الصمت إزاء هذا القمع إن لم تكن قد تواطئت فعلاً مع النظام العراقي في قمع الشيعة من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسلمين الشيعة ليسوا بأقليّة محصورة في الجنوب ليتم حمايتها عبر منطقة «آمنة» أو منطقة حظر جوي، فماذا نقول عن الشيعة في كربلاء غير المشمولة بالحظر الجوي والتي نالها كثير من الدمار والخراب إبّان انتفاضة شعبان ١٤٤١هـ؟ وماذا نقول عن شيعة بغداد الذي يشكلون اكثر من ٨٠٪ من سكان العاصمة وضاحيها؟

وقد اثارت الخطوة الغربية ردود فعل عربية اتسمت بالتحفظ والحرص على وحدة العراق أرضاً وشعباً، ونحن إذ نشاركهم هذا التحفظ والحرص ونؤكد رفضنا لي مخطط يستهدف تقسيم العراق مع التنويه إلى ضرورة حماية الناس الذي يتعرضون للإبادة الجماعية، فإن المواقف العربيّة تدعو إلى مزيد من التساؤلات، فهذه الدول سبق وأن التزمت الصمت المطبق إزاء ما عاناه ويعانيه الشيعة من حرب إبادة وتدمير ولم تتحرك النخوة العربية لحماية هؤلاء العرب والتنديد بالقمع الذي يواجهونه، كما اننا لم نلمس هذا الحرص العربي على وحدة العراق وشعبه إزاء ما حصل في شمال العراق.

إن الشيعة في العراق ليسوا أقلية تبحث عن انفصال أو حماية دولية مريبة ومشبوهة، وإنما الشيعة هم شعب العراق الممتد من الفا وجنوب البصرة وحتى تلعفر شمال الموصل مروراً بديالي وكركوك وبغداد فضلاً عن محافظات الجنوب والوسط.

وقد حمل الشيعة أماني العراق في استقلاله ووحدته وحريته بكل فئاته وقومياته ابتداءً من مطلع هذا القرن حيث ثورة العشرين الشهيرة وحتى الآن حيث المواجهة المحتدمة مع النظام القمعي، اليت قادتها طلائع الحركة الإسلامية وكبار علماء ومراجع الشيعة ابتداءً من المرجع الشهيد الصدر وانتهاءً بالمرجع الأعلى السيد أبو القاسم الخوئي (قدس سره) الذي وافته المنية تحت الإقامة الجبرية.

ولن يقبل الشيعة أبداً بديلاً عن العراق الموحد من الفاو إلى زاخو، ولن تحل مشكلتهم إلّا عبر الإطاحة بالنظام الدكتاتوري الذي فرّط بالعراق وسيادته ووحدة أرضه وشعبه.

وعلى الحريصين على العراق وشعبه، إن باسم حقوق الإنسان أو بأسم الإسلام والعروبة، أن يمدوا يد العون والدعم لهذا الشعب ـ كل الشعب ـ وجميع فصائله المعارضة دون شروط أو قيود أو استثناءات ـ لتمكينه من الإطاحة بالطاغوت الذي لن تتوقف مخاطر بقائه عند حدود العراق وشعبه.●

عن (الموقف) ٨/٢٧

تعبر عادة عن موقف حزب الدعوة الإسلامية

تصريح صحفي

صرح السيد عباس البياتي الأمين العام للاتحاد الإسلامي لتركمان العراق، تعليقاً على مسألة المناطق الآمنة في العراق مايلي :

ـ تعتـزم دول التحالف الغربية أمريكا وبريطانيا وفرنسا على توفير الحماية الجوية لأجزاء من جنوب العراق ومنطقة الأهوار وفي خطوة سابقة كانت قد أقدمت تلك الدول على إنشاء المناطق الآمنة للاخوة الكرد في كردستان العراق بناء على قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٨٨.

صحيح أن مايتعرض له الشعب العراقي في الجنوب ومناطق الأهوار من حرب إبادة واضطهاد وتصفيات دموية على يد القوات الحكومية ضد الشعب الثائر في تلك المناطق، وأن ذلك يتطلب المساعدة العاجلة وحماية السكان المدنيين من صواريخ وطائرات القوات الصدامية وتقديم كل أشكال العون والدعم لأبناء الجنوب والوقوف إلى جانبهم في محنتهم

هذه، وإن جاءت هذه الخطوة متأخرة بعض الشيء عن سابقتها في الشمال، إلا أنه ينبغي أن لاتتحول تلك المناطق الآمنة والمحمية إلى مشروع تمهيدي لتقسيم العراق وتجزأته أو إيجاد أوضاع وحالات داخل الكيان العراقي تتحول مستقبلاً إلى محاور متقابلة تأتي وعبر حروب أهلية داخلية بين أبناء الشعب الواحد على ماتبقى من العراق.

ونحن في الوقت الذي نتفهم فيه حاجة إخوتنا في كردستان والجنوب إلى الحماية نعتقد أن دول التحالف الغربية إذا كانت جادة في مسعاها لمنع صدام من استخدام قواته ضد الشعب العراقي عليها أن تساعد هذا الشعب في التخلص من الحاكم الدكتاتور ونظام حكمه الجائر، حيث أننا نخشى أن يعمل مشروع المناطق الآمنة لأجزاء من العراق على إطالة عمر نظام صدام من خلال الاكتفاء بشل قدراته العسكرية والإبقاء عليه وعلى أوضاع العراق المأساوية.

إن التركمان العراقيين ومايتعرضون له من ظلم واضطهاد على أيدي مرتزقة صدام لايمكن تركهم يواجهون مصيرهم بمفردهم من دون دعم وعون وأن هناك الآلاف من التركمان منتشرون في المخيمات في كردستان وإيران وتركيا يخشون العودة إلى مناطقهم خوفاً من بطش قوات الطاغية في بغداد..

إن القضية قضية عموم الشعب العراقي بعربه وكرده وتركمانه وسائر أقلياته حيث بالإضافة إلى معاناة الاخوة الكرد والشيعة في الجنوب هناك معاناة التركمان وعرب الوسط، لابد من التفكير بأوضاعهم.

من هنا فنحن مع حماية جميع الشعب العراقي وأن أفضل وسيلة إلى ذلك هو تخليص العراق من الدكتاتورية وأجهزتها القمعية، ونناشد المجتمع الدولي أن يتعامل مع هذه القضية الإنسانية من منطلق مسؤولياتها ودورها وبناء على قرار رقم ٦٨٨.

المكتب الإعلامي
للاتحاد الإسلامي لتركمان العراق

العراق ومستقبل المنطقة
تدويل الشيعة؟

يحدث أمر ملفت في «عقلية» النظام الدولي الجديد، ربما كانت له انعكاساته على مجمل صورة المنطقة.. في المدى الأبعد..

فللمرة الأولى توضع على نار الاستعدادات العملية، خطة دولية تشارك فيها مع الولايات المتحدة الأميركية، بريطانيا وفرنسا، لإنشاء منطقة شيعية أمنية برعاية هذه القوى داخل العراق.

«الخبر» في ما يحدث.. ليس أمنياً فقط، أي حدود التدخل هل هو عسكري مباشر، أم غير مباشر عبر منع الطيران العراقي من التحليق في أجواء كل هذه «المنطقة» في جنوب العراق.

و«الخبر» ليس مجرد استكمال لملف الضغط السياسي الدولي على نظام بغداد في وجهة تصعيد محاولة إسقاط أحد أكثر «دكاترة» (جمع ديكتاتور) المنطقة ستالينية.. إن أهيمته غير العادية تكمن في العنصر المحدد التالي:

اعتبار مناطق طائفة الشيعة في العراق، مناطق «سياسية» مميزة من قبل قوى دولية كبرى، أياً تكن طبيعة العمليات الأمنية التي يحتمل أن يجري اللجوء إليها.

بكلام آخر. إضفاء «هوية سياسية» على طائفة معينة من قبل قوى «النظام الدولي الجديد».

هذا إذا حدث.. فهو يحدث للمرة الأولى.

صحيح إن البعض يرى في ذلك استكمالاً لما حصل ويحصل مع الأكراد.

ولكن دعونا ننتبه هنا، إلى أن «المسألة الكردية» هي مسألة معترف بها تاريخياً على المستويين الدولي والعربي، وحتى في التاريخ العراقي الحديث، لأن نظام بغداد، سبق له أن سلم بها بمجرد قبوله بفكرة، «الحكم الذاتي» للأكراد في السبعينات، كقضية قومية مختلفة داخل الكيان السياسي العراقي.

لكن لاسابقة للتعامل الدولي أو العربي أو العراقي مع «الشيعة» كهوية سياسية مختلفة. والمسألة الشيعية تطرح تقليدياً في العراق من زاوية مدى مشاركتهم في السلطة وحدود التمايز الطائفي في هذا المجال. هذا لدى أكثر الطائفيين العراقيين، سنة أو شيعة

طائفية. ولكن لم يحدث أبداً أن جرى القبول بفكرة «هوية سياسية» مختلفة للشيعة العرب داخل العراق.

فكيف إذا كان هذا التطور يحدث على مستوى قوى دولية كبرى بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية؟

مساواة الشيعة بالأكراد؟

النقلة «الذهنية» التي تتم هنا، هو القبول الدولي لأول مرة بهوية سياسية على أساس «الطائفة» وليس على أساس الانتماء القومي المسلم للأكراد باختلافهم فيه.

أسئلة جوهرية عديد تثار هنا:

الأول.. لماذا التمييز عن سنة العراق العرب؟ فمن قال أن هؤلاء لايعانون من ديكتاتورية النظام الحاكم في بغداد؟

السؤال الثالث: هذا التطور يحصل في وقت لايزال فيه من يعتقد في لبنان بعدم إمكان التعايش الإسلامي - المسيحي، فالقبول بهوية سياسية لجماعة على أساس المذهب، قد يفتح المجال مستقبلاً لقبول فكرة التميز المسيحي داخل لبنان، وبالتالي الاعتراف بهوية سياسية لمناطقهم.. في عالم جديد أخذ يقبل وينفذ مبدأ إمكان تعديل حدود الدول، كما نرى في يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وأثيوبيا (أريتريا).. بعد الانهيار السوفياتي. وهو المبدأ الذي كان النظام الدولي السابق بعد الحرب العالمية الثانية يرفضه رفضاً قاطعاً. فمنع المساس بحدود الدول كان أحد «القوانين» الأهم للعلاقات الدولية في السابق.

المسألة إذن تستمد خطورتها من قبول «النظام الدولي الجديد» بها، إذا تم فعلاً تكريس منطقة أمنية لحماية الشيعة في العراق.

وفي عالم من المتغيرات.. يجب رصد أين يكمن «تيار المستقبل» بدقة بالغة.. في ظل التوسع المستمر لفكرة «حق تقرير المصير» التي تشهد في الحالة العراقية.. انتقالاً من مستوى تطبيقها «القومي».. إلى المستوى «الطائفي» داخل اللون القومي الواحد.

أسئلة أخرى استطرادية:

كيف ستتعامل «المعارضة العراقية» مع هذا التطور؟ هل تفرح به بمجرد تصورها (المحتمل أن يكون ساذجاً) بأنه مجرد نقلة هامة في الضغط لإسقاط صدام. . أم تجد نفسها وهي تشاهد تفتت العراق، الذي نرجو أن لايكون بعض «مجانين» التعصب الطائفي الشيعي سعداء به؟

والسؤال الآخر. . في لبنان، حيث تخفي الأزمات المتلاحقة أزمة جوهرية حول طبيعة الدولة ـ الكيان. . «نقترح» التأمل ملياً في دلالات التطور العراقي. .

وحتى لو بقي الأمر في نطاق التصريحات. . لن يفقد أهميته كمؤشر «ذهني» في النظام الدولي الجديد.

جهاد الزين

عن (السفير) ١٩/٨

أميركا وأقليات العراق

تثير المنطقة الأمنية التي تنوي الإدارة الأميركية إقامتها في جنوبي العراق، أكثر من علامة استفهام، حول الموقف الأميركي من أقليات المنطقة وأكثرياتها، وبالتالي من الجغرافيا السياسية لغالبية الدول العربية، على الرغم من أن الأمر يجري تقديمه باعتباره حاجة ملحة. وساذجة ـ تهدف إلى تدعيم حملة الرئيس جورج بوش الانتخابية.

في البداية، لابد لأي كان من أن يبذل جهداً جباراً لكي يقتنع أن واشنطن صادقة فعلاً في قلقها الذي تبديه هذه الأيام إزاء قمع الرئيس العراقي صدام حسين للمدنيين العراقيين الشيعة في الجنوب. . وهو القمع الذي ساهمت به الإدارة الأميركية أو على الأقل غضت الطرف عنه، منذ انتهاء حرب الخليج الأخيرة.

لذلك، فإن المبرر الإنساني المعلن لإقامة المنطقة الأمنية في الجنوب العراقي، يفتقد المصداقية، حتى ولو جرت مقارنته بما جرى في الشمال العراقي في وقت سابق من هذا العام، لأن الأكراد كانوا ومازالوا حالة استثنائية خاصة في العراق لايمكن أن تقاس بحالة الشيعة الذين يشكلون غالبية العراقيين.

وإذا كان الهدف الفعلي من المنطقة الأمنية المرتقبة في الجنوب هو حماية المدنيين الشيعة وحدهم، من دون السنة المضطهدين أيضاً، فإن الحدود الجغرافية لمثل هذه المنطقة لايمكن أن تقتصر على ما هو دون خط العرض ٣٢ بل ربما يفترض أن تمتد إلى الشمال لتضم أكثر من ثلثي مدينة بغداد نفسها.

أما إذا كان الهدف هو حماية المعارضين الشيعة، أو بالأحرى المقاتلين الشيعة ضد حكم صدام، فإن الأمر لايعدو كونه تقسيماً وهمياً للعراق إلى ثلاث دويلات، ـ حسبما ذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» ـ واحدة كردية في الشمال وثانية سنية حول بغداد، وثالثة في الجنوب، لكن مثل هذا السيناريو، يعني بقاء صدام رئيساً إلى الأبد لإحدى هذه الدويلات.

صحيح أن شعار حماية الشيعة المعارضين في الجنوب العراقي يشكل سابقة في التعاطي الغربي ـ والأميركي تحديداً ـ مع العراق، وربما مع الشيعة في مختلف أنحاء العالم العربي، لكن المنطقة الأمنية المتوقعة في الجنوب، لن تكون بأوفر حظاً من المنطقة الأمنية القائمة في الشمال، والتي مازال صدام حتى اليوم الأقوى في داخلها، ليس فقط لأن التحالف الغربي منع الأكراد من الحصول على جزء من الأرصدة العراقية المجمدة في الخارج، بل لأنه حال دون أي تفكير جدي بالانشقاق عن بغداد.

وعندما وقف الغرب في وجه الطموحات الكردية التاريخية، فإنه لم يكن بذلك يحاول طمأنة تركيا أو إيران أو بغداد، فقط، بل كان أيضاً يطمئن السعودية ودول الخليج العربية، إلى أن ماتبقى من العراق (خارج المنطقة الكردية الشمالية) لن يكون خاضعاً لسلطة غالبية شيعية ساحقة.

بمعنى آخر لايمكن للعراق أن يقسم إلى ثلاث دويلات، بل إلى دولتين فقط واحدة كردية في الشمال، وثانية شيعية في الجنوب، ثم يخير السنة أو يفرض عليهم الالتحاق بإحدى هاتين الدولتين، لأنه لن يكون بإمكانهم الانفصال في دويلة وسطى لاتغطي سوى ٢٠ بالمئة من مساحة العراق.

هل هذا فعلاً ماتخطط له أميركا؟ تفاصيل الحملة الانتخابية الأميركية توحي بأن الرد هو بالإيجاب، لكن الوقائع تتناقض مع الهدف الفعلي الحاسم لبوش وهو السعي لإسقاط صدام، بأي ثمن، وقبل موعد الانتخابات في الثالث من تشرين الثاني المقبل.

ساطع نور الدين

عن (السفير) ٨/١٩

العراق إلى اين؟

الجميع يعلم أن ماحدث في العراق هو تنفيذ لمشروع كان مرتباً قبل احتلال الكويت ولم تكن الكويت إلا ذريعة للبدء بالتنفيذ، ولو لم تكن الكويت لخلقت الذريعة التي يباشر بها تنفيذ هذا المشروع الاميركي الصهيوني الاستراتيجي، والذي يستقرىء الواقع بدقة يجد أن مسلسل الأحداث في العراق، أما أن يتكرر وعلى مدى منظور في أكثر من بلد عربي يشبه العراق في طبيعة التركيبة الإجتماعية والعلاقات السياسية، وإما أن يستعمل كوسيلة تلوح بها أميركا لابتزاز

سياسي يحفظ مصالحها ويؤصل نفوذها تحسباً لما قد يطرأ على حالة التوازن الدولي القائم، أو الذي على وشك أن يقوم.

المشكلة ليس ماحدث في العراق، وإن كان الذي حدث بحد ذاته كارثة كبيرة، بل أن المشكلة الكبيرة حقاً هي توظيف الصراع الداخلي في العراق الدائر بين نظام دكتاتوري دموي متخلف وبين شعب يطلب الحرية والانصاف من هذا النظام، توظيف هذا الصراع ليكون رافداً يصب في الطوفان الاميركي الذي يريد أن يكتسح بجريانه كل شيء، التاريخ، الجغرافية، الماضي، الحاضر، ليرسم خارطة جديدة للمستقبل، لاأصل لها ولاجذور، توزع عليها المصالح الاميركية والصهيونية، برؤية ليس للعراقيين، معارضين سياسيين وغيرهم، أي دور في إخراجها.

ولكي ترسم هذه الخارطة بدقة وسرعة، يجب أن تحقق أوهام، وتوهم حقائق بطريقة درامية يرسم فيها الإعلام للرجل الاميركي دور المنقذ للشيعة والأكراد كاقليتين تعانيان من اضطهاد مذهبي وقومي.

والحقيقة أن هناك صراعاً بين شعب وطاقية، شارك فيه كل العراقيين دون استثناء شيعة، أكراد، سنة، وقدموا تضحيات كبيرة، ولكن حظ الشيعة والأكراد كان هو الأوفر من هذه التضحيات، هذه الحقيقة التي تمثل سمة من سمات العراق المعاصر يجب أن تطمس، لانها لا تخدم في المحصلة المشروع الاميركي الصهيوني الذي يريد أن يضع حداً لكل مايدعو إلى الحرية في الشرق العربي الإسلامي.

أما الوهم الذي تريد أميركا أن تجعله حقيقة، هو الحالة الطائفية، فالذي يلمح له الاعلام الأميركي والغربي أن العراق بلد تحكم فيه أقلية سنيَّة تضطهد أقليتين، شيعية وكردية، إذن الصراع في العراق ليس صراعاً بين نظام وشعب، بل هو صراع بين شعب على أساس طائفي، هذا الوهم الذي تجهد أميركا من أجل تحويله تدريجياً إلى حقيقة سيجعل في تنفيذ المشروع الاميركي في العراق، ليصبح ويحكم الأمر الواقع مقسماً إلى ثلاث دويلات، سنية، شيعية، كردية، حينها يتحقق الحلم الصهيوني القديم.

والشيء الواضح والحقيقي في العراق الآن، هو أن هناك شعباً يصارع نظاماً، وأن هناك نظاماً متمرداً على أميركا لسبب، وهذه معادلة صعبة لاحل لها سوى الوقوف مع الشعب دون أن يؤدي ذلك إلى خدمة المشروع الاميركي، والوقوف ضد أميركا دون أن يؤدي ذلك إلى تدعيم قواعد النظام، وهذه الحالة تشبه إلى حد مامثلاً عراقياً يقول «امسكني لاأطيح، هدني لاأصيح»، والذي يبدو أن أغلب أطراف المعارضة العراقية لم توفق إلى هذا الحل لأسباب. منها ماهو ذاتي، كتلك الأطراف المرتبطة أساساً ومنذ زمن قديم بأميركا وبريطانيا.

ومنها ماهو غير ذاتي، كتلك الأطراف التي كانت ظروف الحدث الموضوعية اكبر بكثير من قدراتها الذاتية، كما هو حال أغلب الأطراف ذات الهوية المستقلة، الإسلامية والوطنية.

وتجييراً للموقف تماماً بصالحها نشطت المخابرات الأميركية في:

١ ـ إغراق الساحة العراقية المعارضة برقم كبير من الأحزاب والتنظيمات والحركات، حتى

وصل الرقم إلى مايقارب السبعين، وفي هذا تحجيم لأدوار بعض الأطراف التي لم تكن مرتبطة بها.

٢ ـ تجاوز الأحزاب والاعتماد على بعض الشخصيات، التي لايمكن حساب حجمها الجماهيري بدقة.

وأخيراً يبدو أن المشروع الاميركي،يراد له أن ينفذ بطريقة المناقصة بين نظام وأطراف مكشوفة الهوية ولكن لم تقدم بعد الصيغة للاميركيين طبعاً.

حسن العاشور

عن السفير ١٩٩٢/٨/٢٩

الفصل بين الحلقات

■ كان الكلام قبل أشهر أن الرئيس جورج بوش يحتاج إلى «إنجاز كبير» في الخارج، كضرب نظام العقيد معمر القذافي في ليبيا مثلاً أو نظام الرئيس صدام حسين أو تحقيق اتفاق مبدئي بين أطراف الصراع في الشرق الأوسط، ليستعيد بعض البريق الكبير الذي حازه في حرب الخليج وتحرير الكويت وراح يخبو مع تعاظم أزمة الاقتصاد الأميركي في الداخل.

وكان اختيار الولايات المتحدة إقامة منطقة آمنة في جنوب العراق مؤشراً إلى أنها حددت الهدف الأسهل لتحقيق «الإنجاز» الذي يسعى إليه الرئيس بوش قبل موعد الانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني (نوفمبر) المقبل. والسؤال الآن هل هذا هو «الإنجاز» أم أنه مقدمة لتوجيه ضربة عسكرية إلى النظام العراقي تخرج منطقة الجنوب من دائرة السلطة المركزية على غرار ماحصل لكردستان العراقية؟.

الأقرب إلى الواقع أن بوش قد لايجد بدأً من اللجوء إلى عمل عسكري ضد العراق، إذا لم تحصل مفاجأة كبيرة ـ وهي ليست مستبعدة ـ على صعيد المفاوضات العربية ـ الاسرائيلية. ذلك أن الإدارة الأميركية هيأت لخطتها بما يشبه «الصفقة» من إيران شرقاً إلى المغرب العربي، خصوصاً بعدما علت أصوات عربية تسجل مخاوفها على مستقبل وحدة العراق أرضاً وشعباً. وهكذا بدا أن العقيد القذافي افلت وإن مرحلياً من الاستحقاق وباتت القاهرة مرتاحة إلى تعاملها مع أزمة لوكربي. وكذلك غضبت واشنطن، وإن مؤقتاً أيضاً، الطرف عن الانتخابات التي تديرها سورية في لبنان، وأبدت إسرائيل في الإطار نفسه استعدادها للبحث في تطبيق القرار ٢٤٢ على الجولان المحتل. فضلاً عن إرضاء إيران بالمنطقة الآمنة للشيعة في جنوب العراق..

ويبدو واضحاً أن الولايات المتحدة أوجدت بهذه الخطوات المناخ اللازم والمناسب لحرية تصرفها ضد النظام العراقي. إلا أن هذه الخطوات تظل في إطار السياسة الاستراتيجية العامة

التي اعتمدتها في الإدارة الأميركية حيال المنطقة العربية برمتها، وعنوانها الفصل بين الازمات في المنطقة أو بمعنى آخر منع اللاعبين الاقليميين من الربط بينها لتظل هي تتحكم بالربط الذي يناسب خططها.

لقد كان واضحاً إثر الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ أن الإدارة الاميركية حاولت تنفيذ خطة كانت تقضي أولاً بحل أزمة لبنان ثم بوقف الحرب العراقية ـ الإيرانية فتسوية أزمة الشرق الأوسط. لكن الظروف الدولية لم تسمح لها بتنفيذ ماأعدت، إذ كان الاتحاد السوفياتي في ذروة توسيع نفوذه من افغانستان إلى افريقيا.. الأمر الذي اضطرها إلى تغيير استراتيجيتها. وهكذا باتت الأولية وقف حرب الخليج الاولى. وهذا ماحصل مع بداية التراجع السوفياتي في عهد غورباتشوف. ثم كان اتفاق الطائف لتسوية الأزمة اللبنانية والانصراف لاحقاً إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي. ولم يكن الغزو العراقي للكويت ليغيّر فيي هذه الخطط بل هو ساهم في تسهيل الحل في الشرق الأوسط. وأظهرت الولايات المتحدة أن ليس مسموحاً لأي لاعب اقليمي بأن يربط بين الحلقات الثلاث على هواه: لبنان والخليج والصراع العربي ـ الإسرائيلي.

ولعل غض الطرف الاميركي عن ليبيا وعما يجري في لبنان هو من باب عدم فتح الباب أمام دول اقليمية لاعادة ربط ماتملكه من أوراق بمشاكل أخرى. من دون أن يعني ذلك أن واشنطن تركت لهذه الدول حرية التصرف. فالعقوبات لاتزال مفروضة على ليبيا. وواشنطن لاتزال تذكّر دمشق بأنها ملتزمة تنفيذ الشق الاقليمي من اتفاق الطائف، أي إعادة انتشار قواتها في البقاع بعد الجلاء عن بيروت ومناطق أخرى، فلا يعود الربط بين مايجري في المفاوضات ومسيرة التسوية اللبنانية. فالولايات المتحدة وحدها تربط ماتريد وتفك ماتريد.

جورج سمعان

عن (الحياة) ٤/ ٩

المؤتمر الأول للاتحاد الديمقراطي لمعلمي كردستان

في مدينة «الفداء والتضحية» محافظة السليمانية وبالتزامن مع الذكرى الرابعة والثلاثين لثورة الرابع عشر من تموز، عقد الاتحاد الديمقراطي لمعلمي كردستان مؤتمره الأول في يومي ١٤ ـ ١٥/٧/ ١٩٩٢ تحت شعار (توحيد معلمي كردستان، الدفاع عن حقوقهم المشروعة، تكريس حياة دراسية ديمقراطية».

افتتح المؤتمر بتقديم مقتضب من لدن الأستاذ كمال غمبار ثم طلب من المؤتمرين الوقوف دقيقة واحدة إجلالاً لأرواح المعلمين من شهداء حركة تحرير كردستان ورفعة شعبها.

وبدأ المؤتمر أعماله تحت رعاية هيئة إدارية ثم قدم الأستاذ (عمر شيخ الله) جدول أعمال المؤتمر من:

١ ـ كلمة مكتب السكرتارية. ٢ ـ تقارير النشاطات. ٣ ـ نبذتان تاريخيتان عن نشأة ا لتنظيم المهني للمعلمين والاتحاد الديمقراطي لمعلمي كردستان. ٤ ـ فسح مجال للمناقشة وإبداء الآراء. ٥ ـ مراجعة مشروعي البرنامج والنظام الداخلي للاتحاد. ٦ ـ تلاوة التقارير المالية. ٧ ـ انتخاب هيئة إدارية جديدة.

وتليت كلمة مكتب السكرتارية المؤقت من لدن الأستاذ (عمر حاجي) أشار فيها إلى أن مؤتمرنا يعد امتداداً تاريخياً لجهود المعلمين المهنيين والديمقراطيين قبل انبثاق ثورة الرابع عشر من تموز وتبقى تجربة مؤتمري معلمي الكرد في شقلاوة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠) وجهود التنظيم المهني الديمقراطي الموحد لمعلمي كردستان مصدراً مهماً من بين المصادر التي يستمد منها ديمومته وعلامة نيّرة يستضيء بها ونبعاً صافياً يستقى منها الخبر.

وبعدها تليت مجموعة من التقارير الخاصة بنشاطات الاتحاد في محافظات (السليمانية، واربيل، ودهوك وكركوك) من لدن الأساتذة: حمه صالح قره جتاني، مغديد حاجي، سعيد مصطفى، فؤاد عاصي. ثم عرض الأستاذان خليل إبراهيم، وعبد الله

شريف نبذتين تاريخيتين عن التنظيم المهني الديمقراطي وتأسيس الاتحاد الديمقراطي لمعلمي كردستان ومنح المؤتمرون فرصة مناقشة مشروع برنامج الاتحاد الديمقراطي لمعلمي كردستان والنظام الداخلي له وتحليل مضمونيهما وامتازت الآراء التي جاد بها المؤتمرون بتأمل عميق طال شكل المشروعين ومضمونيهما بروح ديمقراطية أسهمت في إضفاء إضاءات جديدة حظيت بموافقة أغلبية الأصوات . .

وجدير بالذكر أن هذه المهمة قد أسندت إلى الأساتذة كمال غمبار، دارا جلال ، رزكار عبد الله . . .

ثم عرض على المؤتمرين التقارير المالية المعدة من لدن الأستاذين : أحمد شيخو، وظاهر عبد الله .

وبعد صياغة البيان الختامي للمؤتمر وقراراته وتوصياته من قبل لجنة مؤلفة لهذا الغرض عرضت على الحضور وأقرت بالإجماع . وتألفت من المؤتمرين لجنة للإشراف على انتخاب هيئة جديدة للهيئة الإدارية بعد حل مكتب السكرتارية المؤقت نفسه ، وكانت حصيلة ذلك أن فاز المعلمون المدرجة أسماؤهم في أدناه بأغلبية الأصوات وأغلبية النسبية لها .

معلمو محافظة أربيل :

١ ـ كمال غمبار ٢ ـ مغديد حاجي ٣ ـ عبد الله بيرداود ٤ ـ كليزار مصطفى ٥ ـ عمر شيخ الله ٦ ـ قرداغ يلدا ٧ ـ انور سليمان ٨ ـ عمر حاجي ٩ ـ جوهر طاهر ١٠ ـ أحمد شيخو.

معلمو محافظة السليمانية :

١ ـ دارا جلال ٢ ـ رزكار عبد الله ٣ ـ حمه صالح قره جتاني ٤ ـ عبد الرحمن حاجي ٥ ـ كافية أحمد ٦ ـ خليل إبراهيم ٧ ـ هزار محمود.

معلمو محافظة دهوك :

١ ـ سعيد مصطفى ٢ ـ كمال ناصر.

معلمو محافظة كركوك :

١ ـ عبد الله صابر. ٢ ـ لقمان عبد الله .

وقررت الهيئة الإدارية الجديدة بعد فوزها عقد اجتماعها الأول في الأسبوع القادم في اربيل لانتخاب أعضاء مكتب السكرتارية واللجان الخاصة بها .

قرارات المؤتمر وتوصياته

١ ـ بذل الجهود من أجل توحيد منظمات المعلمين في إطار منظمة مهنية مستقلة واحدة .

٢ ـ حل انتخابات المعلمين التي جرت في ٣٠/ ٤/ ١٩٩٢ لعدم اكتسابها الشرعية على

وفق القانون التي تجاهلته أصلاً ومنافاتها لتطلعات جماهير المعلمين.
٣ ـ إعادة الانتخابات وفق الانتخاب الفردي الذي ينأى عن المنافسة الحزبية الضيقة بين المعلمين واتحاداتهم.
٤ ـ تعزيز أواصر العلاقة بين اتحادنا والمؤسسات الإدارية في كردستان بغية تقديم أفضل الخدمات للمعلمين.
٥ ـ تشكيل لجنة الدفاع عن حقوق المعلمين.
٦ ـ معالجة المناهج التعليمية للمراحل الدراسية كافة بإعادة النظر في مضامينها عن طريق تشكيل للجنة متخصصة تتصف برؤية وطنية صادقة تعمل على إزالة رواسب العنصرية المقيتة التي أشاعها العفالقة فيها وتضع مناهج جديدة تنسجم وروح المرحلة.
٧ ـ اختيار إدارات المدارس والقائمين على المؤسسات التربوية على وفق الجدارة والإخلاص والمواقف الوطنية.
٨ ـ ترسيخ الحقوق الإدارية والثقافية والدينية المشروعة للأقليات في كردستان..
٩ ـ تحفيز الدراسة المختلطة في المراحل الدراسية كافة كونها ظاهرة حضارية.
١٠ ـ العمل على تطوير جامعة صلاح الدين والمعاهد الموجودة في كردستان وفتح جامعات جديدة في مراكز محافظاتها.
١١ ـ تكريم الشهداء من المعلمين ومساعدة عوائلهم بشكل دؤوب وقبول المعلمين من شهداء طريق الديمقراطية وتحرير كردستان عضواً فخرياً في مؤتمرنا.
١٢ ـ معالجة الضائقة الاقتصادية للمعلمين وتوفير حياة آمنة لهم.
١٣ ـ مساندة برلمان كردستان ومجلس وزرائها في المنجزات التي تعبر عن حقيقة مصالح المعليمن وتجسد طموحات شعبنا في كردستان.
١٤ ـ مساندة الجبهة الكردستانية وتعزيز الروح الجبهوية بين أطرافها.
١٥ ـ صون الأمن والاستقرار في كردستان وتعرية الأعمال الشاذةالتي تقف بالضد من تطلعات شعبنا.
١٦ ـ دعم النضال المشروع لشعبنا الكردي في الأجزاء الأخرى لكردستان من أجل حق تقرير المصير.
١٧ ـ مشروعية نضال قوى المعارضة العراقية كافة من أجل إسقاط النظام الدكتاتوري البغيض ووضع بديل ديمقراطي له.
١٨ ـ دعم الجهود المبذولة لترسيخ السلام الدائم في العالم أجمع ومساندة الحركات التحررية للشعوب التي تتطلع للحرب والديمقراطية وحقوق الإنسان.

السليمانية ١٥/٧/٩٢



السعر ديناران